

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هارون الرشيد
أمير الخلفاء
وأجل ملوك الدنيا

هارون الرشيد: أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا / شوقي أبو خليل . - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦ . - ٢٧٢ ص؛ ٢٥ سـم .
١-٩٢٣ : هارون الرشيد خـ ٢ - العنوان ٣ - أبو خليل
مكتبة الأسد

١٩٩٦/٤/٤٨٠ ع -

الدكتور شوقي أبو خليل

هارون الرشيد
أمير الخلفاء
وأجل ملوك الدنيا

دار الفکر
دمشق - سوريا

دار الفکر المعاصر
بصيروت - لبنان



الرقم الاصطلاحي: ٤٢١,٠١١

الرقم الموضوعي: ٩٢٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-261-9

الموضوع: الترجم والسير والأنساب

العنوان: هارون الرشيد

التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٢٧٢ ص

قياس الصفحة: ٢٥×١٧ سم

عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

ينع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق
الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل
المرئي والسموع والحاوسيبي وغيرها من
الحقوق إلا بإذن خططي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
سوريا - دمشق - ص. ب (٩٦٢).

برقية: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧

<http://www.Fikr.com/>

E-Mail: Fikr @asca.com

إعادة: ١٤١٦ھ = ١٩٩٦م

ط ٤: 1991

ط ١: 1977

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصديري الطبعة الجديدة

بِسْمِ اللَّهِ الْقَائِلِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، [الأعراف ٨٥/٧] ، وَصَلَى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، الْقَائِلُ : « مَانِنْ أَحَدُ أَفْضَلُ مُنْزَلَةٍ ، مِنْ إِمَامٍ إِنْ قَالَ صَدَقَ ، وَإِنْ حَكَمَ عَدْلًا ، وَإِنْ اسْتَرْجَمَ رَحِيمًا » ، [رواه ابن النجاشي عن أنس] ، وبعد ..

أُقْدِمَ هَذِهِ الطَّبْعَةِ الْجَدِيدَةِ الْمُزِيَّدةِ مِنْ كِتَابِ : « هَارُونُ الرَّشِيدِ » ، بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَى طَبْعَتِهِ الْأُولَى قَرَبَةِ خَمْسِ عَشَرَةِ سَنَةً ، طَبَعَ خَلَالَهَا عَدَّةَ طَبَعَاتٍ ، وَأَكْرَمَنِي اللَّهُ خَلَالَهَا أَيْضًا بِزِيَارَةِ (طُوس) ، حِيثُ تَوَفَّ الرَّشِيدُ عَنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعينَ سَنَةً ، عَامَ ١٩٣ هـ ، وَرَحَتْ أَفْتَشَ عَنْ ضَرِيحِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ ، وَلَا سَأَلْتُ عَنْهُ قَيْلَ لِي : لَقِدْ دُرِسَ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي طُوسِ وَمَا حَوْلَهَا أَثْرٌ مِنْ آثارِ الرَّشِيدِ إِلَّا (الْهَارُونِيَّةُ) ، وَهِيَ - كَمَا قَيْلَ لِي - سَجْنُ الرَّشِيدِ .

وَقَيْلَ لِي أَيْضًا : فَقَدَتْ طُوسُ أَهْمَيَّتَهَا التَّارِيْخِيَّةَ لِاتِّساعِ مَدِينَةِ (مَشْهَدِ) ، حِيثُ يَرْقُدُ الْإِمَامُ الرَّضاُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ، فَزَرَتْ هَذَا الْمَرْقَدُ الطَّاهِرُ الشَّرِيفُ ،

حيث الهيبة والجلال ، ففوجئت بيبيتين من الشعر لـ دِغْيلُ الْخَزَاعِي ، كُتُباً فوق المرقد :

قَبْرٌ فِي طُوسَ ، خَيْرُ النَّاسِ كُلُّهُمْ
وَقَبْرُ شَرِّهِمْ ، هَذَا مِنَ الْعِبَرِ !
ما يَنْفَعُ الرِّجْسَ مِنْ قُرْبِ الزَّكِيِّ وَمَا
عَلَى الزَّكِيِّ بِقُرْبِ الرِّجْسِ مِنْ ضَرِّهِ

فتساءلت : وهل كان الرشيد حقاً (رجساً وشرّ الناس ؟) .

الرشيد الذي كان شديد التمسك بالإسلام ، غزير الدمع إذا ذُكر بالله ، ولوعاً بالعلم والعلماء ، مشهراً بعدله في قضائه ، ولم يكن خليفة - من قبله أو بعده - ما كان من الهمة والنشاط في مختلف مناطقه وتحركاته ، سواء في الحجّ ، أم الإدارة ، أم الحرب ، وبذلك احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة .

أما عاصمته بغداد ، فقد كانت في أيامه مركز الثقافة العالمية ، فلم تحدث في تاريخ المدينة حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائي بالثقافة ، الذي امتد إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي ، فكان كلُّ مسلم ، من الخليفة إلى الصانع ، يبدو كأنّا قد اعتبرنا فجأة شوقاً إلى العلم ، وظماً إلى السفر ، وكان تهافت طلاب العلم على بغداد ، شبيهاً بهذا التيار الحديث من العلماء الأوربيين الذين توجهوا إلى الجامعات بحثاً وراء العلم الجديد ، بل لقد كان أكثر منه روعة ، [تاريخ العالم : ٦٠٧/٤] .

ازدهار وحضارة ، علم وثقافة ، صناعة وتجارة ، حتى عُثر على النقود العباسية في الدول الإسكندنافية ، مما يدل على مدى اتساع التجارة مع الشمال ، في طلب الفراء والجلود ، وغيرها من المواد .

فهل يستحقُ الرشيد أن يُوصف بالرجس وشرّ الناس ؟ !

☆ ☆ ☆

أنا لم أنصب نفسي حامياً للدفاع عن الرشيد في هذا الكتاب ، بل عرضتْ حياته وسيرته بحيادٍ تام ، وبكلٌّ توثيق ، فوجدت فيها الطهر والخير .

هذا .. ولقد أضفت إلى هذه الطبعة عنوانين جديدة ، حتى كاد حجم الكتاب يتضاعف ، وأهمُ العنوانين الجديدة :

(وفاة الرشيد : ثائر ، أم مؤامرة ، أم غلطة من ابن بختي Shaww ?) .

وعلى الله قصد السبيل .

دمشق في ٢٠ صفر ١٤١١ هـ

الموافق ١٠ أيلول ١٩٩٠ م

الدكتور شوقي أبو خليل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

☆ كان هارون الرشيد قلنوسة
مكتوب عليها : غاز حاج^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ وَلِهِ الْحَمْدُ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمَرْسِلِينَ ، وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَهُ
بِإِحْسَانٍ وَبَعْدٍ ..

كنت أطّالع في كتاب لرئيس وزراء الهند الرّاحل جواهر لال نهرو ،
عنوانه : (لمحات من تاريخ العالم)^(٢) . وما لفت نظري فيه ، كلمات عن سيد
ملوك بنى العباس ، هارون الرشيد ، قالها نهرو يخاطب بها ابنته : « ألا تذكري
بغداد ، وهارون الرشيد ، وشهرزاد ، وقصص ألف ليلة وليلة الممتعة^(٣) ؟ إنَّ
المدينة التي ازدهرت في أيام الخلفاء العباسيين ، هي مدينة ألف ليلة وليلة ،
كانت مدينة فسيحة ، تزخر بالقصور وال محلات العامة والمدارس والكليات
والأسوق والمتزهات والحدائق الغناء ، وكان تجارها يتعاملون مع بلدان الشرق
والغرب ... » .

فقلت في نفسي متسائلاً : هل حقاً بغداد الرشيد ، هي بغداد ألف ليلة
وليلة ، بما في هذه الليالي من ملذات وخمور ونساء وفجور ؟ !؟

وتساءلت أيضاً : وهل سيرة الرشيد ، الخليفة المسلم ، هي كما تصورها بعض

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢١/٨

(٢) منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، ط ٢ ، آب « أغسطس » ١٩٥٧ م .

(٣) سنتناول هذه الليالي بالدراسة ، بما بهم بحثنا ، على صفحات هذا الكتاب .

الكتب المتداولة ؟ صورة شهرزاد ، وقصص ألف ليلة وليلة الممتعة ، حتى إن مجلة معروفة^(١) ، صارت تصوّر الرّشيد في كلّ عدد من أعدادها في منتصف الخمسينات ، وحوله الجواري كاسيات عاريات ؟ !

بقي مasic في ذاكرتي فترة ... وبينما كنت في زيارة لزميل جاب أقطاراً عديدة في كلّ من أوربة وأمريكة ، سألكي هذا الزميل : ما إنتاجك في أيامك هذه ؟ أجبته : إني أدرس حياة الرّشيد .. فابتسم الزميل .. فقلت له : خيراً .. ! فقال : زرت أمريكة ، شاهما وجنوها ، وزرت معظم بلدان أوربة ، والغريب أنَّ سيرة هارون الرّشيد معروفة هناك ، ولكن من ألف ليلة وليلة ، ويسمونها : (اللّيالي العربية) . كلهم هناك يعرفون ألف ليلة وليلة ، سعماً أو قراءة ، وهم يعتقدون أنَّ بطلها هارون الرّشيد .

قلت لهذا الزَّميل : ما سمعته منك ، يزيد من همي ، في دراسة سيرة هذا الخليفة المسلم .

والذى جعلني أبدأ بالفعل دراسة هذه السّيرة ، كتاب عن حياة الرّشيد يحمل اسم : (نواذر أبي النواس وما كان بينه وبين الخليفة هارون الرّشيد)^(٢) ، فقد ورد فيه من القصص والنواذر والأخبار ، ما يجعل المنصف يأبى أن يلصق مافيه يأنسان عادي ، ناهيك عن خليفة مسلم ، كان يحجّ عاماً ويغزو عاماً .

إنَّ الإشارات البذيئة التي يحفل بها الكتاب المذكور ، في التّصريح حيناً ، وفي التّلميح حيناً آخر ، تدلّ دلاله واضحة على ذوق واضعيه الوضيع ، لأنَّ مجلس الرّشيد يسمو عن هذه الأخبار ، فجلسه كان أقرب إلى الفقه والدين والحديث وأخبار العرب .

(١) هي مجلة « روز اليوسف » القاهرة.

(٢) من مطبوعات المكتبة الأدبية في حلب .

وعشت مع الرّشيد أشهراً ، أبحث عن سيرته ، وشغل مخيالي حتى رأيته في الرّؤيا ، فضمنت أن يكون كتابي هذا على شكل أسئلة أخاطب بها روح الرّشيد ، أجعل إجاباتها ما ذكرته مراجعنا العربيّة المعتمدة ، ولكنني وجدت المرحوم عباس محمود العقاد ، قد سبقني إلى ذلك منذ عام ١٩٤٧^(١) ، في عدد من أعداد الملال ، فحمدت الله عزّ وجلّ على معرفتي ذلك ، فلا يظن أحد أنه اقتباس لم أشر فيه إلى مرجعه ، فلعلّ بعض الأفكار التي جئنا بها متشابهة إنما هي من قبيل توارد المخواطر ليس غير .

فعدت إلى سيرة سيد ملوك بنى العباس ، درسها ، حتى أشعّتها بحثاً وتحقيقاً ، فوجدت بها تعاكس ما في مخيلة غالبية الناس ، وتعاكس ما كتبه بعض المؤلفين^(٢) ، الذين شاعت كتبهم في مكتباتنا .

إنه الرّشيد .. سيد ملوك بنى العباس بلا منازع^(٣) ، بلغ عددهم مالما يبلغه أحد قبله ولا بعده ، من سعة الآفاق ، وهيبة السُّلطان ، وتأمين الحدود والشُّغور .. عرفه الشرق من الصين ، وعرفه الغرب حتى فرنسة ، فترنم بسيرته ، وبعظامة دولته ، وبنظامها ، ورفاهيتها ، وعلمها ... من لم يقرأ التّاريخ ، أو يهتم به .

إنه الرّشيد .. الذي كان يصلّي الفرائض والنافلة^(٤) ، ويعطى الزكاة والصدقات ، ويحجّ مرات ومرات ، ويخرج إلى الديار المقدّسة ماشياً في بعض المّرات ، وينادي على المباح ، ويوقظ ندماءه لصلة الفجر قبل الصّباح .

(١) في العدد العاشر « تشرين الأول - أكتوبر » عام : ١٩٤٧ م / ١٣٦٦ هـ ، المجلد ٥٥ ، ص : ٢١ من مجلة الملال .

(٢) كأحد أمين في كتابه (هارون الرشيد) ، وكتابه (ضحي الإسلام) وكجريجي زيدان في كتابه (العباية أخت الرشيد) .

(٣) الرّشيد (أمير الخلفاء) أي أمير الخلقاء العباسين ، (وسيد ملوك الدنيا) أي سيد حكام الدنيا في عصره .

(٤) كان الرّشيد يصلّي كل يوم مئة ركعة ، « سير أعلام النّبلاء ٢٨٧/٩ » .

إِنَّهُ الرَّشِيد .. الَّذِي كَانَ يُنَاظِرُ الْعُلَمَاءَ ، وَيُحَضِّرُ مُنَاظِرَاتِهِم بِعَقْلٍ كَبِيرٍ
حَكِيمٍ ، وَيَقْرَضُ الشِّعْرَ وَيَرْوِيهِ ، أَسْتَاذَهُ قاضِي الْقَضَايَا أَبُو يُوسُفُ ، وَقاضِيهِ
مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِي ، وَهُوَ يَسْتَعِنُ بِإِلَيْهِمَا ، وَإِلَى مَالِكَ بْنِ أَنْسٍ ، وَالْأَصْمَعِي
وَالْكِسَائِي ، وَفِي دُولَتِهِ جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ ، وَالْخُوارِزمِي ، وَالْكَنْدِي .. الَّذِينَ
أَحَدَثُوا أَعْظَمَ الْأَثْرِ فِي الْخَضَارَةِ الْعَالَمِيَّةِ . كَانَ يَتَنَقَّلُ فِي أَرْجَاءِ دُولَتِهِ
فَيَتَنَقَّلُ مَعَهُ الرُّوَاةُ وَالْعُلَمَاءُ وَالْقَضَايَا .. فِي مُوكَبٍ عَلَمِيٍّ مَهِيبٍ .

قال عمرو بن بحر (الجاحظ) : «اجتمع للرشيد من الجنة والهزل مالم يجتمع
لغيره من بعده ، كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراءه ، وحاجبه الفضل بن
الربيع ، أنه الناس وأشدهم تعاظماً ، وندمه عمر بن محمد ، وشاعره مروان بن
أبي حفصة ، ومغنيه إبراهيم الوصلي واحد عصره في صناعته ، ومصحكه ابن
أبي مریم ، وزامرها برصوما ، وزوجته أم جعفر - يعني زيدة - وكانت أرغبة
الناس في كل خير ، وأسرعهم إلى كل بر ومحروم ، أدخلت الماء الحرام بعد
امتناعه من ذلك .. إلى أشياء من المعروف أجرها الله على يدها»^(١) .

وقال ابن طباطبا^(٢) : «وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها
وقاراً وروقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكته .. ولم يجتمع على باب خليفة من
العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب .. ما اجتمع على باب الرشيد ،
وكان يصل كل يوم واحداً منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان
فاضلاً راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهيباً عند
الخاصة وال العامة » .

وقال عنه أيضاً : إِنَّهُ مِنْ أَفَاضِلِ الْخَلْفَاءِ وَفَصَحَّائِهِمْ وَعَلَمَائِهِمْ وَكَرْمَائِهِمْ^(٣) .

(١) البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ ، والنجوم الزاهرة : ١٤٣/٢ ، وتاريخ بغداد : ١٤/١٤

(٢) مع أنه « طالي » يبغض الرشيد ، ولكنه أقر بالحقيقة ، وتفصيل ذلك سير في نهاية الكتاب .

(٣) الفخرى في الآداب السلطانية ص : ١٧٥

إِنَّهُ الرَّشِيدَ ، الَّذِي قَدِمَ إِلَيْهِ الْفَقِيهُ الشَّهِيرُ أَبُو يُوسُفُ كِتَابُ «الْخَرَاجِ»
أُجُوبَةً عَلَى أَسْئَلَةِ قَدْمَهَا الرَّشِيدَ إِلَيْهِ ، فَكَانَ كِتَابُ «الْخَرَاجِ» أَثْرًا مِنْ أَجْمَلِ
الآثَارِ التَّارِيخِيَّةِ الْاِقْتَصَادِيَّةِ لِلِّدُولَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، نَظَمَ جَبَايَةَ الْخَرَاجِ وَغَيْرِهِ مِنْ
مَوَارِدِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَلِكَ عَلَى النُّمُطِ الْمُشْرُوِّعِ الَّذِي سَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَالخَلْفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ ، حَتَّى لَا يَقُعُ حِيفٌ عَلَى الرُّعَيْيَةِ ، فَيَقْتَلُ
الْجُورَ كَاهْلَهُمْ .

إِنَّهُ الرَّشِيدَ .. صَاحِبُ بَيْتِ الْمَالِ الْعَامِرِ الْزَّاهِرِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ ثِروَةُ الدُّولَةِ فِي
بَغْدَادَ تَرْدِهِ مِنَ الْأَقْالِيمِ الإِسْلَامِيَّةِ بَعْدَ أَنْ تَقْضِيَ جَمِيعُ الْأَقْالِيمِ حَاجَاتِهَا .

وَكَانَتْ عَاصِمَتِهِ بَغْدَادَ^(۱) ، قَبْلَةُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْأَمْصَارِ الإِسْلَامِيَّةِ ،
يَرْحَلُونَ إِلَيْهَا لِيَتَمَمُوا مَا بَدَؤُوا مِنْ عِلُومٍ وَفَنُونٍ ، فَهِيَ الْمَعْهُدُ الْعَالِيُّ لِلتَّخَصُّصِ .

☆ ☆ ☆

وَلَقَدْ سَلَكَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ خَطْتَهُ كَانَتْ عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ :
الْأُولَى ، تَقْضِيَ وَجْعَ أَخْبَارِ الرَّشِيدَ ، ثُمَّ تَصْنِيفَهَا بِحسبِ مَوْضِعَاهَا .. لِيَلْمِسَ
الْقَارِئَ ، دُونَ تَحْيِزٍ أَوْ مِرَاوِغَةٍ حِيَاةَ وَفَكْرِ وَعَمَلِ هَذَا الْخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِ .
وَسِيَّجَدُ الْقَارِئُ ثَبَتاً مَفْصَلًا بِأَسْمَاءِ الْمَرَاجِعِ الْكَثِيرَةِ ، تَبْدِئًا بِاسْمِ الْمَرْجَعِ ثُمَّ
الْمُؤَلِّفِ وَالْطَّبْعَةِ وَسِنْتَهَا وَانتِهَاءَ بَدَارِ النُّشُرِ .

(۱) كَانَ يَسْكُنُهَا أَيَّامُ الرَّشِيدِ مَلِيُونَانَ مِنَ الْبَشَرِ ، تَعْلَمَ فِيهَا الْقَصُورُ ، وَتَجْرِي إِلَيْهَا التِّجَارَةُ مِنْ
أَقْصَى الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاهَا ، مِنْ شَرْقِ آسِيَّةِ حَتَّىْ أَوَاسِطِ أُورُبِّيَّةِ وَأَعْلَى النِّيلِ فِي إِفْرِيقِيَّةِ .
وَ« كَانَ يَعَاشُ الرَّشِيدُ الْإِمْپَراَطُورُ إِبْرِيْنِيُّ فِي الْقَسْطَنْطِنْتِيْنِيَّةِ » ، وَشَارِلَانَ فِي فَرْنَسَةِ ، وَقَبْلَهُ بِزَمْنٍ
قَصِيرٍ كَانَ يَجْلِسُ عَلَى عَرْشِ بَلَادِ الصَّينِ تسوانْ دُزُونْجْ Tsuan tsung ، وَلَكِنَ الرَّشِيدُ بِزُهْمِ جَيْعاً
فِي الثَّرَاءِ وَالْسُّلْطَانِ ، وَأَبْهَهَ الْمُلْكَ وَالتَّقْدِيمَ التَّقَافِيَ الَّذِي ازْدَانَ بِهِ حَكْمَهُ » ، [قَصَّةُ الْخَضَارَةِ :

والمرحلة الثانية :

دراسة أسباب تشویه سيرة الرّشید ، التي كانت سيرة إسلاميّة في سلوكها وتصرفاتها ، أو دراسة العوامل التي جعلت سيرة الرّشید مشوّهة في أذهان النّاس .

وعلى ذلك فالكتاب قسمان :

- ١ - قسم فيه أخبار الرّشید ، الخليفة المسلم الملتم بدينه .
- ٢ - وقسم ثانٍ فيه اجتهادنا عن أسباب تشویه هذه الأخبار .

وفي خاتمة الكتاب : لماذا شُوّهت سيرة الرشید ؟ !

فإن أصبت في تقضي أخبار الرّشید ودراستها ، فهذا ماقصدته .

وإن قصرت .. فلي ثواب العمل والاجتهد ، فالله سبحانه وتعالى يشهد أنني مقتنع بهذه الدراسة ، إلا بغية الدفاع عن تراث مقدس متمثل في أعلامه .. لا دفاعاً عن متهم مدانٍ نحاول تبرئته ، ولا دفاع مكابرة وتأويلات ومراوغة لإظهار الوضع شريفاً ، لا سمع الله .

لا .. إِنَّه دفاع عن مسلم جليل ، تحاول عوامل عديدة : استشرافية ، أو صليبية ، أو ملحدة مأجورة ، الحطّ من قيمته ، وبالتالي الحطّ من قيمة الفكر الذي حمله ، بل الحطّ من قيمة الحضارة العربية الإسلامية وهي في أوجها .

وهذا جهد يطيب لي ، والله عزّ وجلّ من وراء القصد .

فباسمه تعالى ، وعلى بركته سبحانه نبدأ ...

شوقى أبو خليل

دمشق : ٢٦ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ

ص.ب ٦٢٢٢

١٥ نيسان ١٩٧٧ م

دمشق - سوريا

حياة الرشيد

« كانت أيام الرشيد كلها خيراً ،
كأنها من حسنها أعراس »^(١).

هارون أمير المؤمنين .

الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، أبو جعفر ، استخلف بعد وفاة أخيه موسى الهادي سنة سبعين ومئة . أمه الحيزران الجرشية ، ولد بالرّي لثلاث بقين من ذي الحجة سنة خمسين ومئة .

كان الرشيد أليض طويلاً ، سمناً ، جميلاً ، مليحاً ، فصيحاً ، له نظر في العلم والأدب « يحب العلم وأهله ، ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء في الدين ، والكلام في معارضته النّص ، كان يبكي إلى نفسه ، ولا سيما إذا وعظ »^(٢) . وكان يحج عاماً ويغزو عاماً ...

وكان يصلّي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الحياة ، إلا أن يعرض له علة^(٣) .. وإذا حجَّ أحج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج - بسبب جهاد أو غزوة - أحج في كل سنة ثلاثة رجال بالنفقة السابعة ، والكسوة الظاهرة .

(١) تاريخ الخلفاء ، ص : ٢٨٦ . (راجع جدول خلفاء العصر العباسي الأول ، وجدول « الخلفاء العباسيين » في آخر الكتاب) .

(٢) تاريخ بغداد : ٥/١٤

(٣) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠ ، وتاريخ بغداد : ٥/١٤ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٣

حاول أخوه الهادي أن يرغم الرّشيد على خلع نفسه من الخلافة بعده^(١) ، وأن يكتب بولالية العهد لابنه جعفر ، ولكن الرّشيد - وهو ولّي عهد - من الجرأة ومتانة الأخلاق والصراحة ، ما هو حقيق بالإعجاب .

بويع له يوم الجمعة في بغداد - مدينة السلام - لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ ، وهو ابن تسع عشرة سنة وشهرين ، وثلاث عشرة ليلة . وولد له المأمون في تلك الليلة ، فكان يقال : ولد في هذه الليلة خليفة ، وولي خليفة ، ومات خليفة^(٢) .

كان الرّشيد يقتفي أخلاق المنصور^(٣) ، ويعمل بها إلا في العطايا والجوائز ، فإنّه كان أسفى الناس عطية ابتداء وسؤالاً .. وكان لا يؤخر عطاء اليوم إلى عطاء غد ، وكان حبه للفقهاء والفقهاء عظيم ، وتقديره أو ميله للعلم والعلماء كبير ، يحب الشعر ويحفظه ، ويستقبل الشعراء ويسمع منهم ، ويعظم في صدره الأدب والأدباء . وكرهه للمراء في الدين والجدال ، كان يقول : « إنّه خلائق أن لا ينتج خيراً »^(٤) ، وكان يصفي إلى المديح ويحبه ، ويجزل عليه العطاء ، ولا سيما إذا كان من شاعر فصيح مجيد .

قال المؤرخون والأدباء :

« اجتمع للّشيد مالم يجتمع لأحد من جدّ و Hazel : وزراؤه البرامكة ، لم يرَ

(١) وكما قيل : « إذا كان في وسع عشرة من الدّراوיש أن يناموا على بساط واحد ، فإنّ ملائكة لا تتسع لها مملكة بأكملها » .

(٢) تاريخ بغداد : ٥/١٤ ، وفي مروج الذهب للمسعودي ٤٣٧/٣ : « وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين » .

(٣) المنصور : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، بويع له بالخلافة سنة ١٣٦ هـ وكانت خلافته ٢٢ سنة .

(٤) تاريخ بغداد : ٧/١٤

مثلكم سخاء وثروة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجرير في عصره ، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد ، وحاجبه الفضل بن الربيع أتى الناس^(١) ، وأشدها تعاظماً ، ومغنيه إبراهيم الموصلي ، واحد عصره في صناعته ، وضاربه زلزال ، وزامرها برسوماً ، وزوجته أم جعفر^(٢) أرغبت الناس في الخير ، وأسرعهم إلى كل بُرٍّ ، وهي أسرع الناس في المعروف ، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك^(٣) .. » .

كان الكسائي معلم الرشيد وفقيحيه ، ومن بعده لولديه الأمين والمأمون ، وكان إماماً في فنون عديدة ، النحو والعربيّة وأيام الناس ، وقرأ القرآن على حمزة الزيارات أربع مرات ، واختار لنفسه قراءة هي إحدى القراءات السبع ، وتعلم النحو على كبر سنه ، وخرج إلى البصرة وجالس الخليل بن أحمد^(٤) .

ذكر أبو حفص الكرماني أنَّ محمد بن يحيى البرمي حدَّثه ، قال : بعث الهادي إلى يحيى ليلاً ، فأُتِيَّ من نفسه ، ووَدَّعَ أهله ، وتحنَّطَ وجَدَّ ثيابه ، ولم يشك في أنه يقتله ، فلما دُخِلَ عليه قال : يا يحيى ما لي ولك ؟ !

قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعتْه ؟ !

قال الهادي : فَلِمَ تدخل بيني وبين أخي تفسدْه عليَّ ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، من أنا حتَّى أدخلَ بينكمَا ؟ إنَّا صَيْرَنَا المهدى معه ، وأمرني بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرني به ، ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك .

(١) في البداية والنهاية : « أئب الناس » .

(٢) ستر ترجمتها مفصلة بعد صفحات .

(٣) رواية النجوم الزاهرة .

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض . ولد ومات في البصرة « ١٠٠ - ١٧٠ هـ » [الأعلام ٣٦٢/٢] .

قال الهادي : فما الذي صنع هارون ؟

قال : ما صنع شيئاً ولا ذلك فيه ولا عنده ، قال : فسكن غضبه ، وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع ، فقال له يحيى : لاتفعل ، فقال هارون : أليس يترك لي المهنِ والمريء فهما يسعاني وأعيش مع ابنة عمّي ، وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً ، فقال له يحيى : وأين هذا من الخلافة ! ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع ، ومنعه من الإجابة .

وذكر الكرماني أيضاً عن خزية بن عبد الله قال : أمر الهاادي بحبس يحيى بن خالد ، على ما أراده عليه من خلع الرشيد ، فرفع إليه يحيى رقعة : إنَّ عندي نصيحة ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين أخْلُني فـأَخْلَاه ، فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر - أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَا نَبْلُغُهُ وَأَنْ يَقْدِمْنَا قَبْلَهُ - أَتَظَنَّ أَنَّ النَّاسَ يَسْلِمُونَ الْخِلَافَةَ لِجَعْفَرٍ وَهُوَ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلْمَ ، وَيَرْضُونَ بِهِ لِصَلَاتِهِمْ وَحَجَّهُمْ وَغَرْوُهُمْ ؟

قال الهاادي : والله ما أظن ذلك .

قال : يا أمير المؤمنين ، أفتؤمن أن يسمو إليها أهلكَ وجلّتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟

قال الهاادي : نبهتني يا يحيى .

وكان يحيى يقول : ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى (الهاادي) ، ثم قال يحيى : لو أنَّ هذا الأمر لم يُعْقِدْ لأخيك ، أما كان ينبغي أن تعقدَه له ؟ فكيف بأن تحل عقدَه وقد عقدَه المهدى له ؟ ولكن أرى أن تقرَّ هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر ، وبلغ الله به أتیته بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من يباعيده ويعطيه صفة يده ، فقال : فقبل الهاادي قوله ورأيه ، وأمر بإطلاقه .

حدث محمد بن عمر الرُّومي عن أبيه قال : جلس موسى المادي بعدهما ملَك في أول خلافته جلوساً خاصًا ، ودعا إبراهيمَ بن جعفر بن أبي جعفر ، وإبراهيمَ بن سلم بن قتيبة ، والحراني ، فجلسوا عن يساره ، ومعهم خادم له أسود يقال له أسلم ويُكْنَى أبا سليمان ، وكان يشقّ به ويقدّمه ، فبینا هو كذلك ، إذ دخل صالح صاحبَ المصلى فقال : هارون بن المهدى ؛ فقال : آئذن له ، فدخل فسلّم عليه وقبّل يديه وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية ، فأطرق موسى ينظر إليه وأدمن ذلك ثم التفت إليه فقال : يا هارون ، كأنّي بك تحدّث نفسك بقام الرؤيا ، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرطُ القتاد^(١) ، تؤمل الخلافة !

قال : فبرك هارون على ركبتيه ، وقال : يا موسى إنك إن تجبرت وضعت ، وإن تواضعت رفعت ، وإن ظلت خللت^(٢) ، وإنني لأرجو أن يُفضي الأمر إليّ ، فأنصِفَ مَنْ ظلمت ، وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادي ، وأزوجهم بناتي ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدى .

قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبا جعفر ! ادن مني ، فدنا منه فقبل يديه ثم ذهب يعود إلى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، أعني أباك المنصور ، لا جلست إلا معى ، وأجلسه في صدر المجلس معه ، ثم قال : يا حراني ، احمل إلى أخي ألف ألف دينار ، وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النصف منه واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا .. فيأخذ جميع ما أراد .
قال : فعل ذلك ، ولما قام قال لصالح : أدن دابته إلى البساط .

(١) القتاد : شجر شاكِ صلب ، ينبت بمجد وتهامة ، واحدته قتادة ، قال أبو حنيفة : القتادة ذات شوك ، وفي المثل : من دون ذلك خرطُ القتاد .

قال الأزهرى : والقتاد شجر ذو شوك لا تأكله الإبل إلا في عام جدب فيجيء الرجل ويضرم فيه النار حتى يحرق شوكه ثم يرعى إبله ، ويسمى ذلك التقييد ، [اللسان : قتد] .

(٢) الخل : تخاذع عن غفلة ، والتخاذل : التخاذع ، [اللسان : ختل] .

قال الرُّومي : وكان هارون يأنس بي ، فقمت إليه ، فقلت : يا سيدِي ، ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدى : أریت في منامي كأني دقعت إلى موسى قضيماً وإلى هارون قضيماً ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً ، فأماماً هارون فأورق قضيبيه من أوله إلى آخره ، فدعوا المهدى الحكم بن موسى الضري ، وكان يكُنْ أبا سفيان ، فقال له : عبر هذه الرؤيا ، فقال : يملكان جمِيعاً ، فأماماً موسى فتقِلُّ أيامه ، وأماماً هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفةً وتكون أيامه أحسن أيامه ، ودهره أحسن دهره ، قال : ولم يلبث إلا أياماً يسيرةً ثم اعتلَّ موسى ، ومات وكانت عِلْته ثلاثة أيام .

قال عمر الرُّومي : أفضت الخلافة إلى هارون فزوج حمدونة من جعفر بن موسى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووفى بكلٍّ ماقال ، وكان دهره أحسن الدُّهور .

لما مات الهادى ، وكان الوقت ليلاً ، جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرشيد ، فوجده نائماً ، فقال : قم يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : كم تروعني ، لو سمعك هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنبٍ عنده ؟! فقال : قد مات الرجل ، فجلس هارون فقال : أشر على في الولايات ، فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد ، فبينما هما كذلك إذ جاء آخر فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعنة غلام ، فقال : هو عبد الله وهو المأمون ، ثم أصبح فصلي على أخيه الهادى ، ودفنه بعيساباذ^(١) ، وحلف لا يصلى الظهر إلا في بغداد ، فلما فرغ من الجنازة ، أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد ، لأنَّه كان مع جعفر بن الهادى ، وكان قد زاحما الرشيد على جسر ، فقال أبو عصمة : اصبر

(١) عيساباذ : ومعنى باد العماره بالفارسية ، وهي محله كانت بشرق بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدى ، [معجم البلدان] ١٧٢/٤ .

وقف حتى يجوز ولـي العهد ، فقال الرشيد : السمع والطاعة للأمير ، فجاز جعفر وأبو عصمة ، ووقف الرشيد مكسوراً ذليلاً ، فلما ولـي أمر بضرب عنق أبي عصمة ، ثم سار إلى بغداد ، فلما انتهى إلى جسر بغداد ، استدعي الغواصين ، فقال : إني سقط مني هنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بعنة ألف ، فلما كان من أيام بعث إلى الهادي يطلبه فألقيته إلى الرسول فسقط هنا ، فغاص الغواصون وراءه ، فوجدوه ، فسرّ به الرشيد سروراً كثيراً^(١) .

كتب يوسف بن القاسم بن صبيح^(٢) ، كاتب الرشيد ، بيان الرشيد إلى العالم الإسلامي ، حين اعتلائه عرش الخلافة ، فقال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل ، والصلوة على النبي ﷺ :

«إِنَّ اللَّهَ بْنُهُ وَلَطْفُهُ، مِنْ عَلَيْكُمْ مَعَاشُ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ، بَيْتِ الْخِلَافَةِ وَمَعْدَنِ الرِّسَالَةِ، وَأَتَّاكُمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ، مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانِ الدُّعَوَةِ، مِنْ نَعْمَهِ الَّتِي لَا تَحْصُى بِالْعَدْدِ، وَلَا تَنْقُضِي مَدِي الْأَبْدِ، وَأَيَادِيهِ التَّامَّةِ إِذْ جَعَلَتُكُمْ، وَأَعْلَى أَمْرَكُمْ، وَشَدَّ عَضْدَكُمْ، وَأَوْهَنَ عَدُوَّكُمْ، وَأَظْهَرَ كَلْمَةَ الْحَقِّ، وَكُنْتُمْ أَوْلَى بِهَا أَهْلَهَا، فَأَعْزِّكُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا؛ فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمَرْتَضِيِّ، وَالذَّابِينَ بِسَيفِهِ الْمُنْتَضِيِّ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَبِكُمْ اسْتَنْقَذُهُمْ مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أَمْمَةِ الْجُورِ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ، وَالسَّافِكِينَ الدِّمْمَ الْحَرَامَ، وَالْأَكَلِينَ الْفَيَءَ، وَالْمُسْتَأْثِرِينَ بِهِ، فَادْكُرُوا مَا أَعْطَيْتُكُمُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النُّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا أَنْ تُغَيِّرُوا فِيْغَيْرِ بَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْثَرَ بِخَلِيقِهِ مُوسَى الْهَادِيِّ الْإِمَامَ فَقَبَضَهُ

(١) الطبرى : ٢٣٢/٨

(٢) يوسف بن القاسم بن صبيح العجلي بالولاء ، أبو القاسم (ت نحو ١٨٠ هـ / نحو ٧٩٦ م) : كاتب من ساكنى سواد الكوفة ، من بيت بلاغة وفضل ، كان من كتاببني أمية ، ولما آلت الدولة إلى بني العباس ، استكتبه عبد الله بن علي (عمُّ النَّصُور) فكان من خاصته ، وهو أول من بشّر هارون الرشيد بالخلافة ، [الأعلام ٢٤٥/٨] .

إليه ، وولى بعده رشيداً مرضيأً أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحياً ، من محسنيكم قبولاً ، وعلى مسيئكم بالغفو عطوفاً ، وهو - أمتעה الله بالنّعمـة ، وحفظـ له ما استرعاـه إـيـاه من أمرـ الـأـمـة ، وتـولـاهـ بما تـولـيـ بهـ أولـيـاءـهـ وأـهـلـ طـاعـتـهـ - يـعدـكمـ منـ نـفـسـهـ ، الرـافـةـ بـكـمـ والـرـحـمةـ لـكـمـ ، وـقـسـمـ أـعـطـيـاتـكـمـ فـيـكـمـ ، عـنـدـ اـسـتـحقـاقـكـمـ ، وـيـبـذـلـ لـكـمـ كـمـ اـجـائـزـةـ ماـ أـفـاءـ اللـهـ عـلـىـ الـخـلـفـاءـ مـاـ فـيـ بـيـوـتـ الـأـمـوـالـ ، مـاـ يـنـوبـ عـنـ رـزـقـ كـنـاـ وـكـنـاـ شـهـراـ غـيرـ مـقـاصـ لـكـمـ بـذـلـكـ فـيـاـ تـسـقـبـلـونـ مـنـ أـعـطـيـاتـكـمـ ، وـحـامـلاـ بـاقـيـ ذـلـكـ لـلـدـفـعـ عـنـ حـرـيمـكـ ، وـمـاـ لـعـلـهـ أـنـ يـحـدـثـ فـيـ النـوـاحـيـ وـالـأـقـطـارـ مـنـ عـصـاـةـ الـمـارـقـينـ إـلـىـ بـيـوـتـ الـأـمـوـالـ ، حـتـىـ تـعـودـ الـأـمـوـالـ إـلـىـ جـمـاـهـاـ^(١) وـكـثـرـتـاـ وـالـحـالـ الـأـيـيـةـ كـانـتـ عـلـيـهـ ، فـاحـمـدـواـ اللـهـ وـجـدـدـواـ شـكـرـاـ يـوـجـبـ لـكـمـ الـمـزـيدـ مـنـ إـحـسـانـهـ إـلـيـكـمـ بـاـ جـدـدـ لـكـمـ مـنـ رـأـيـ الـمـؤـمـنـينـ وـتـفـضـلـ بـهـ عـلـيـكـمـ أـيـيـدـهـ اللـهـ بـطـاعـتـهـ ، وـارـغـبـواـ إـلـىـ اللـهـ لـهـ فـيـ الـبـقـاءـ ، وـلـكـمـ بـهـ فـيـ إـدـامـةـ النـعـاءـ ، لـعـلـكـمـ تـرـحـمـونـ ، وـأـعـطـواـ صـفـقـةـ أـيـانـكـمـ وـقـومـواـ إـلـىـ بـيـعـتـكـمـ ، حـاطـكـمـ اللـهـ وـحـاطـ عـلـيـكـمـ^(٢) ، وـأـصـلـحـ بـكـمـ وـعـلـىـ أـيـديـكـمـ ، وـتـولـاـكـمـ وـلـاـيـةـ عـبـادـهـ الصـالـحـينـ » .

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد دعا يحيى بن خالد وقلده الوزارة وقال له :
يا أبتي ، أنت أجلستني هذا المجلس بربركتك وَيُمْنِكْ وحسن تدبيرك ، وقد
قلدتك الأمر ، ودفع خاتمه إليه .

وقال له أيضاً : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ماترى » ، ودفع إليه خاتمه ، وفي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي :
ألم تر أنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَةً فَلَمَا وَلَيْ هَارُونَ أَشْرَقَ نُورُهَا

(١) الجمُّ والجمُّ : الكثير من كل شيء ، [اللسان : جم] .

(٢) حاطه يحوطه جوطاً وحيطةً وحياطةً : حفظه وتهده ، [اللسان : حوط] .

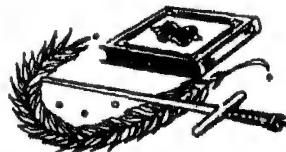
بِيْمَنِ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ ذِي النَّدِي فَهَارُونَ وَالِيهَا وَيَحِيٰ وَزِيرُهَا^(١)

وفي السَّنَةِ الَّتِي وَلِيَ بِهَا الرَّشِيدُ أَمْرًا بِسَمِّ ذُو الْقَرْبَى أَنْ يَقْسِمَ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى السَّوَاءِ ، وَفِيهَا تَتَّبِعُ الزَّنَادِقَةُ فَتَقْتَلُ مِنْهُمْ طَائِفَةً كَثِيرَةً ، وَفِيهَا أَكْمَلَ بَنَاءَ مَدِينَةَ طَرَسُوسَ عَلَى يَدِي فَرَجِ الْخَادِمِ التُّرْكِيِّ وَنَزَلَهَا النَّاسُ^(٢) ، وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ ، وَفِيهَا غَزَا أَيْضًا شَتَاءً ، قَالَ دَاوُدُ بْنُ رَزِينَ الْوَاسِطِيَّ الشَّاعِرُ :

هَارُونَ لَاحَ النُّورَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
إِمَامٌ بِذَاتِ اللَّهِ أَصْبَحَ شَغْلَهُ
وَأَكْثَرُ مَا يَعْنِي بِهِ الْفَزُورُ وَالْحَجُّ
تَضِيقُ عَيْنُونَ النَّاسِ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ
إِذَا مَا بَدَا لِلنَّاسِ مِنْظَرُهُ الْبَلْجُ
وَإِنَّ أَمِينَ اللَّهِ هَارُونَ ذَا النَّدِي
يَنْبَيلُ الَّذِي يَرْجُوهُ أَضْعَافَ مَا يَرْجُو^(٣)

وَفِيهَا أَيْضًا غَزَا الصَّائِفَةُ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَكَائِيُّ .

☆ ☆ ☆



(١) الطبرى : ٢٣٣/٨ ، المسعودى « مروج الذهب » : ٣٤٨/٣

(٢) الطبرى : ٢٣٤/٨

(٣) الطبرى : ٢٣٤/٨ . وَوَرَدَ الْبَيْتُ الْآخِرُ أَيْضًا عَلَى الشَّكْلِ التَّالِي :
تَفَسَّحَتِ الْأَمَالُ فِي جُودِ كَفَّهِ فَأَعْطَى الَّذِي يَرْجُوهُ فَوْقَ الَّذِي يَرْجُو

الخيزران «أم الرشيد»

« كانت عاقلة لبيبة دينية ، تنفق دخلها كله
في الصدقات وأبواب الخير » .

زوجة المهدي العباسي ، وأم بنيه الهادي وهارون الرشيد ، ملكرة حازمة
متفقةً بمنية الأصل ، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي^(١) .

كانت من جواري المهدي ، أعتقها وتزوجها ، ولما مات ، وولي ابنها الهادي
انفردت بكمبار الأمور ، وأخذت المراكب تغدو وتروح إلى بيتها ، وحاول الهادي
منعها من ذلك حتى قال لها : « لئن بلغني أنه وقف بيابنك أحد من قوادي ، أو
أحد من خاصتي ، أو خدمي لأضربي عنقه .. أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف
يذكرك ، أو سبحة ! »^(٢) .

وسعى الهادي في عزل أخيه « الرشيد » من ولاية العهد ، فقيل إنها علمت
عزمه على قتل الرشيد ، فأرسلت إليه بعض جواريها ، وهو مريض ، فجلسن على
وجهه حتى مات خنقاً ، وولي بعده الرشيد فردها إلى ما كانت عليه وزادها ،
فكان يحيى بن خالد يشاورها في الأمور^(٣) .

قال مروان بن أبي حفصة الشاعر النابه حين تبُوا الرشيد عرش الخلافة بعد
أخيه الهادي :

(١) الأعلام : ٣٧٥/٢ ، وهي جُرشية ، وجُرش من مخالفين ، وفي الدر المنثور أنها : الخيزران
بنت عطاء . وفي معجم البلدان : ١٢٦/٢ حيث حركت « جرش » كا يلي : « جُرش » .

(٢) النجوم الراهرة : ٦٤/٢ ، الطبرى : ٢٠٥/٨ (بتصرف) .

(٣) النجوم الزاهرة : ٦٥/٢ ، البداية والنهاية : ١٦١/١٠ ، الطبرى : ٢٠٦/٨

يَا حِيزْرَانْ هَنَاكِ ثُمَّ هَنَاكِ أَمْسَى يَسُوسُ الْعَالَمِينَ أَبْنَاكِ

وصفتها ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) فقال : « وكانت عاقلة لبيبة دينة ، كانت تنفق دخلها كله في الصدقات وأبواب الخير » .

وما ورد عنها : وقف الهيثم بن مطهر على باب الحيزران على ظهر دابته ، فبعث إليه الكاتب في دارها : أُنزل عن ظهر دابتك فقد جاء في الأثر : « لا تجعلوا ظهور دوابكم مجالس »^(١) ، فبعث إليه : إني رجل أعرج وإن خرج صاحبي خفتُ ألاً أدركه . فبعث إليه : إن لم تنزل أُنزلناك ، قال : هو حبيس^(٢) إن أُنزلتني عنه إن أقضمه^(٣) شهراً ، فانظر أيها خير له ، راحة ساعة أو جوع شهر ؟ فقال : هذا شيطان ، أتركتوه^(٤) .

حجَّت الحيزران سنة ١٧١ هـ فأنفقت أموالاً كثيرة في الصدقات وأبواب البر ، واشترت الدار المشهورة بها بِكَة ، المعروفة بدار الحيزران ، فزادتها في المسجد الحرام^(٥) .

توفيت ببغداد سنة ١٧٣ هـ^(٦) / ٨٧٩ م ، فمشي الرشيد في جنازتها وعليه طيلسان أزرق ، وقد شدَّ وسطه بحزام ، وأخذ بقائمة التّابوت ، حافياً يخبط في الطين ، حتى أتى مقابر قريش ، فغسل رجليه ، وصلّى عليها ودخل قبرها ،

(١) ورد في سنن أبي داود أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَخَذُوا ظَهُورَ دَوَابِكُمْ مَنَابِرَ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سُخِّرَهَا لَكُمْ لِتَبْلُغُوكُمْ إِلَى بَلْدِ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْرِ إِلَّا بِشقِّ الْأَنْفُسِ » .

(٢) الحبس ضد التخلية ، وأحبس فلان فرساً في سبيل الله أي وقف ، فهو محبس وحبيس .

(٣) القضم : الأكل بأطراف الأسنان ، وقوله : إن أقضمه شهراً ، أي أنه عزم على أن لا يطعمه شهراً إن أُنزل عن ظهر دابته قهراً .

(٤) عيون الأخبار : ١٦٠/١

(٥) البداية والنهاية : ١٦٤/١٠

(٦) ليلة الجمعة لثلاث بقيت من جادى الآخرة ، البداية والنهاية : ١٦٣/١٠ ، الطبرى : ٢٢٨/٨

وتصدق عنها بمال عظيم . ولما خرج من القبر أتى له سرير فجلس عليه ، واستدعي الفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات ، وأنشد الرشيد قول ابن نويرة حين دفن أمّه الخيزران :

وكنا كندماني جذيمة برهة من الدّهر حتّى قيلَ لن يتصدعا
فلمَا تفرقنا كأي ومسالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً^(١)

روي من طريق الخيزران عن مولاه المهدى عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من اتقى الله وقاه كل شيء ». .



(١) البداية والنهاية : ١٦٤/١٠

زبيدة بنت جعفر بن المنصور

زوج الرشيد

☆ زبيدة للأمون بعد مقتل ابنها الأمين :
« أهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك
قبل أن أراك ، ولئن كنت قد فقدت ابنًا
 الخليفة ، لقد عوضت ابنًا خليفة لم أله ،
 وما خسر من اعتراض مثلك ، ولا ثكلت أم
 ملأتك يدها منك ، وأنا أسأل الله أجرًا على
 ما أخذ ، وإمتاعًا بما عوّض ». .

أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم .

سيدة جليلة ، ذات يد طولى في الحضارة وال عمران والعطف على الأدباء
والشعراء والأطباء ، ومن ذوات العقل والرأي والفصاحة والبلاغة .

أُعرس بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ في خلافة المهدي ببغداد ، فولدت له محمدًا
الأمين ، فأحبته حبًّا عظيمًا جعلها تهieri له كل العوامل التي تعتقدها واصلة به إلى
عرش الخلافة ، ولما ولدت محمدًا الأمين قال مروان بن أبي حفصة :

لله درك يا عقيلة جعفر	ماذا ولدت من الندى والسؤدد
إنَّ الخلافة قد تبيَّن سورها	للناظرين على جبين محمدٍ
إني لأعلم أنَّه خليفة	إنْ بيعته عُقدت وإن لم تُعقد

فأمر له الرشيد بثلاثة آلاف دينار ، وأمرت زبيدة أن يُحشى فوه جوهراً ،
فكان قيمته عشرة آلاف دينار .

واغتت زبيدة غمّاً شديداً لما ذكر الرّشيد البيعة لابنه المأمون ، فدخلت على الرّشيد تعاتبه في ذلك أشد المعاتبة ، وتواخذه أعنف المؤاخذة ، فقال الرّشيد : ويحك إنّا هي أمّة محمد ، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوقاً بعنقي ، وقد عرفت ما بين ابني وابنك ، ليس ابني يازبيدة أهلاً للخلافة ، ولا يصلح للرّعية ، قالت : ابني والله خير من ابني وأصلح لما تريده ، ليس بكبير سفيه ، ولا صغير فيه^(١) ، أسعى من ابني نفسها ، وأشجع قلباً ، فقال هارون : ويحك إنّ ابني لأحب إليّ ، إلا أنّها الخلافة لا تصلح إلاّ من كان لها أهلاً ، وبها مستحقاً ، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ، وما خودون بهذا الأنام ، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم ، وتنقلب إليه يائهم ، فاقعدني حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنك . فقعدت معه على الفراش ، ثم دعا ابني عبد الله المأمون ، فلما صار بباب المجلس سلم على أبيه بالخلافة ، ووقف طويلاً وقد طأطأ برأسه ، وأغضى بيصره ، ينتظر الإذن حتى كادت قدماه ترم ، ثم أذن له بالجلوس فجلس ، فاستأذن بالكلام ، فأذن له فتكلم ، فحمد الله على مامن به من رؤية أبيه ، ويرغب إليه في تعجيل الفرج مما به ، ثم استأذنه في الدُّنْو من أبيه ، فدنا منه ، وجعل يلثم أسافل قدميه ، ويقبّل باطن راحتيه ، ثم انشنّى ساعياً إلى زبيدة ، فأقبل على تقبيل رأسها ، ثم انشنّى إلى قدميها ، ثم رجع إلى مجلسه ، فحمد الله إليها فيما مَنَّ به عليها من رضى أبيه عنها ، وحسن رأيه فيها ، ويسأله تعالى العون لها على بُرْه ، وأداء المفروض عليها من حقه ، ويرغب أن يوزعها شكره وحمده . فقال الرّشيد : يا بني إني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة ، وأعدك مقعد الخلافة ، فإنّي قد رأيتكم أهلاً لها ، وبها حقيقة .

فاستعبر عبد الله المأمون باكيًا ، وصاح متتحبًا يسأل الله العافية من ذلك ،

(١) هكذا وردت في «أعلام النساء» ولعلها لا صغير في هذا الأمر (أي الخلافة) .

ويرغب إليه أن لا يريه فقد أبىه ، فقال له : يا بني ، إني أراني لما بي ، وأنت أحق ، وسلم الأمر لله ، وأرض به ، وسأله العون عليه ، فلا بد من عهدي يكون في يومي هذا ، فقال عبد الله المأمون : يا أبا تاه ! أخي أحق مني ، وابن سيدتي ، ولا أخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني ، وأشد استطلاعاً ، عرض الله لك ما فيه الرشاد والخلاص ، وللعباد الخير والصلاح ، ثم أذن له فقام خارجاً .

ثم دعا هارون بابنه محمد الأمين ، فأقبل يجبر ذيله ، ويتبخر في مشيته ، فمشى داخلاً بنعله قد أنسى السلام ، وذهل عن الكلام نحوة وتجبراً وتعظماً وإعجاباً ، فمشى حتى صار مستوياً مع أبيه على الفراش ، فقال هارون : ماتقول أي بني ، فإني أريد أن أعهد إليك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ومن أحق بذلك مني ، وأنا أحسن ولدك ، وابن قرعة عينك ، فقال هارون اخرج يا بني .

ثم قال لزبيدة : كيف رأيت ما بين ابني وابنك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، ابني أحق بما تريده ، وأولى بما لديك ، فقال هارون : فإذاً أقررت بالحق ، وأنصفت ما رأيت ، فأنا أعهد إلى ابني ثم إلى ابنك بعد .. فكتب عهد عبد الله المأمون ، ثم محمد الأمين بعد^(١) .

وكما سبق ، كان الكسائي يؤدب الأمين بشدة ويقول : « إنَّ مُحَمَّداً مرشح للخلافة بعد أبيه ، ولا يجوز التقصير في تأدبه »^(٢) .

ولما قتل ابنها الأمين ، دخل إليها بعض خدمها فقال : ما يجلسك وقد قُتِلَ أمير المؤمنين مُحَمَّداً ؟ قالت : ويلك وما أصنع ؟ فقال : تخربجين فتطلبين بثأره ، كا خرجت عائشة تطلب بدم عثمان . قالت : أحساً لا أُمَّ لك ، ماللنّساء

(١) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام : ١٧/٢ - ٥٩ عن « الإمامة والسياسة » .

(٢) المرجع السابق : ٢٠/٢

وطلب الثأر ومنازلة الأبطال^(١)؟ وهذا يدل على رجاحة عقلها .

ثم أمرت بثيابها فسُودت ، ولبست مسحًا من شعر ، ودعت بدواة وقرطاس فككت إلى المأمون :

وأفضل راق^(٢) فوق أعواد منبر
وللملك المأمون من أم جعفر
إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
ومن زال عن كبدي فقل تصبرى
فما طاهر في فعله^(٦) بظهر
 وأنهب أموالي وأحرق أدوري^(٨)
وما نالني من ناقص الخلق أعور^(٩)

خير إمام قام من خير عنصر
ووارث^(٣) علم الأولين وفخرهم^(٤)
كتبتْ وعيّني تستهل دموعها
أصبتْ بأدني الناس منك قربة
أتي طاهر^(٥) لا قدس الله طاهرًا
فأبزني^(٧) مكشوفة الوجه حاسراً
يعزُّ على هارون ما قد لقيته

(١) مروج الذهب للمسعودي : ٤٨٦/٣ ، وهذا ليس طعنًا بالسيدة عائشة ، إنما استفادت زبيدة من دروس التاريخ .

(٢) في رواية « وأفضل سام » .

(٣) وفي رواية « لوارث » .

(٤) وفي رواية « وفهمهم » .

(٥) وفي رواية « لأظهر » ، وظاهر هو : طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي (أبو الطيب) : [١٥٩ - ٢٠٧ هـ ٧٧٥ / ٨٢٢ م] ، وهو الذي وطَّدَ الملك للمأمون عندما زحف إلى بغداد ، فهاجمها وظفر بالأمين وقتله سنة ١٩٨ هـ ، وعقد البيعة للمأمون ، وكان في نفس المأمون شيء عليه ، لقتله أخيه (الأمين) بغير مشورته ، ولعله شعر بذلك ، فلما استقرَّ في خراسان ، قطع خطبة المأمون ، فقتلته أحد غلمانه في تلك الليلة مرو ، وقيل مات مسموماً . [الأعلام ٢٢١/٣] .

(٦) « فيها أتي » .

(٧) « فأخرجني » .

(٨) « Adri » .

(٩) تعني طاهراً ، وكان أعور .

صبرت لأمر من قدير مقدر
 وقد مسني ضر وذل كابرة
 وأرق عيني يابن عمي تفكري^(١)
 فهمت لما لقيت بعد مصابه
 فأمرني عظيم منكر جد منكر
 سأشكو الذي لقيته بعد فقده
 إليك شفاعة المستهام المقهى
 وأرجو لما قد مر بي مذ فدته
 فإن كان مأسدي لأمر أمرته

فلماقرأ المؤمن شعرها بكى ، ثم قال : اللهم إني أقول كما قال أمير المؤمنين
 علي لما بلغه قتل عثمان : والله ما قاتلت ، ولا أمرت ، ولا رضيت ، اللهم حبلى
 قلب طاهر - بن الحسين - حزنا .

ولما لقيت المؤمن قالت له : يا أمير المؤمنين ، إن للكما يوماً تجتمعان فيه ،
 وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله .

وفي رواية الخطيب البغدادي ، أن زبيدة قالت للمؤمن عند دخوله بغداد ،
 أهنيك بخلافة قد هنأت نفسى بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنت قد فقدت ابنًا
 خليفة ، لقد عوضت ابنًا خليفة لم أله ، وما خسر من اعتراض مثلك ،
 ولا ثكلت أم ملأ يدها منك ، وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ ، وإمتناعًا بما
 عوض . فأخذ المؤمن بعد ذلك يزيد في تكريمه لزبيدة وأسرتها .

لقد كانت زبيدة كاتبة ، يسمع من قصرها دوي كدوى النحل من قراءة
 القرآن الكريم ، شملت عطفها القراء ، وأرباب التقوى والصلاح والعلماء ، ومن
 آثارها ، وأعمالها الجليلة التي خلفتها وانتفع بها المسلمون خير انتفاع ، أنها سقت
 أهل مكة الماء ، بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وأسالت المياه عشرة أميال
 بخط الجبال ونحت الصخر ، غلغلته من الحل إلى الحرم ، ومهدت الطريق لمائتها

(١) تقطة الأبيات من « الطبرى » .

في كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر . وعرفت هذه العين بعين الشّماس ، وكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصي ألف ألف وسبعين مئة ألف دينار .

ووصف اليافعي في القرن الثامن للهجرة تلك العين ، فقال : إنَّ آثارها باقية ومشكلة على عمارة عظيمة عجيبة ، مما يتنزه برأيتها على يمين الذاهب إلى مِنْيَ من مَكَّةَ ، ذات بنيان حُكْمٍ في الجبال ، تقصُّر العبارات عن وصف حُسْنِه . وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ، ذات درج كثير جداً ، لا يوصل إلى قراره إِلَّا ببُوطٍ كَالْبَلِيرِ ، يسمونه لظماته يفزع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهاراً فضلاً عن الليل^(١) .

وبلغت نفقاتها في بعض حاجاتها ألف ألف دينار ، وبلغت نفقاتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف درهم ، فرفع إليها وكيلها حساب النَّفقة ، فنهته عن ذلك وقالت : ثواب الله بغير حساب .

وقال ابن جبیر بعد أن ذكر المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة : إن كل ذلك من آثار زبيدة ، فانتدبت لذلك مدة حياتها ، فأبقيت في هذه الطريق مرافق ومنافع تعمّ وفدى الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن ، ولو لا آثارها الكريمة في ذلك ، لما سُلِّكت هذه الطريق ، والله كفيل بمجازاتها ، والرضى عنها^(٢) .

وينسب إلى زبيدة مسجد زبيدة أم جعفر ببغداد ، كان قريباً من مسجد الشّيْخ معروف الكرخي ، وقد اندرس سنة ١١٩٥ هـ ، وكان هذا المسجد واسعاً وطيد البناء قوي الأركان ، ولما بني سليمان باشا الكبير والي بغداد سور الجانب

(١) أعلام النساء : ٢٧/٢ ، « أوردنا النص بحرفيته ، على الرغم مما فيه من انقطاع وأخطاء » .

(٢) رحلة ابن جبیر : ١٦٥ . ورآها بعض الصالحين في المنام بعد وفاتها سنة ٢١٧ هـ ، فقال لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي بأول معمول ضرب في طريق مكة . وينسب هذا الخبر خطأ إلى عبد الله بن المبارك لأنَّه توفي قبلها أيام الرَّشيد .

الغربي استعملت أتقاضه في بناء السور ، ولم يبق من ذلك المسجد سوى قبر زبيدة ، وعليه قبة مخروطية الشكل من نوادر الفن المعماري .

وينسب إليها (المحدث) ، وهو منزل في طريق مكة بعد النقرة ، على ستة أميال منها ، فيه قصر وقبات متفرقة ، وفيه بركة وبيان ما وهمها عندي ، وينسب إليها (العنابة) ، وهي بركة لزبيدة بعد قباب على ثلاثة أميال تلقاء سميرة ، وبعد توز^(١) ، وما وهمها ملح غليظ ، وينسب إليها بركة أم جعفر ، وهي في طريق مكة بين المغية^(٢) والعديب^(٣) ، وينسب إليها القنيعة ، وهي بركة بين الثعلبية^(٤) والخزيبة^(٥) بطريق مكة ، وينسب إليها الحسني ، وهو بئر على ستة أميال من قروري^(٦) قرب معدن النقرة ، وينسب إليها الزبيدية ، وهي بركة بين المغية والعديب ، وبها قصر ومسجد عمرتها زبيدة .

ومن أخبارها :

وقع خلاف بين هارون الرشيد وزبيدة في بيت من الشعر هو :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحيين قلانا^(٧)
فكان الرشيد يقول : « يحيين » ، وزبيدة تقول : « يجنن » بالجيم والنون ، فتخارطا على ذلك بalfi دينار ، ودعوا مسروراً الخادم ، وأعطياه على أن يخرج فيسأل أفضل من بي بغداد من أهل العلم ، فإن صوب قول الرشيد أعطاه ألفاً ، وإن

(١) سميرة : منزل بطريق مكة بعد توز ، وتوز منزل في طريق الحاج أيضاً .

(٢) المغية : منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة .

(٣) العذيب : ماء بين القادسية والمغية ، بينه وبين القادسية أربعة أميال .

(٤) الثعلبية : منزل من منازل الطريق إلى مكة من الكوفة بعد الشوق وقبل الخزيبة .

(٥) الخزيبة : منزل من منازل الحاج بعد الثعلبية من الكوفة وقيل الأجر .

(٦) قروري : موضع بين المعدن والماجر على اثنى عشر ميلاً من الحاج .

(٧) البيت لجرين ، ديوانه : ٥٩٥

صَوْبَ قُولْ زَبِيْدَةَ فَالْفُهْمَا ، فَخَرَجَ مَسْرُورَ بِالشَّمْوَعِ يَطْلُبُ مِنْ يَفْتِيهِ فِي ذَلِكَ ،
فَدَلَّ عَلَى الْكَسَائِيِّ ، وَكَانَ قَرِيبُ عَهْدِ الْقَدْوَمِ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى بَغْدَادِ ، وَكَانَ يَأْوِي
إِلَى مَسْجِدٍ ، فَدَخَلَ مَسْرُورَ عَلَيْهِ بَخِيلَهُ وَحْشَهُ ، فَتَحْفَزَ لَهُ الْكَسَائِيُّ ، فَقَالَ :
لَا بَأْسَ ، إِنَّهُ بَيْتَ أَشْكَلِ عَلَيْنَا ، وَاسْتَفْتَاهُ فِي الْكَلْمَتَيْنِ فَصَوَّبَهَا جَمِيعًا ، فَأَعْطَاهُ
الْأَلْفَيْنِ ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ اسْتَفَادَ بِكَلْمَةِ أَوْضَحَهَا مَا أَغْنَاهُ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى حَسْنِ تَأْتِيهِ
وَلَطَافَةِ أَدْبِهِ^(١) .

وَأَنْشَدَ رَجُلُ زَبِيْدَةَ :

أَزِيَّدَةُ ابْنَةُ جَعْفَرٍ طَوْبِي لِرَازِئِكَ الشَّابِ
تَعْطِينَ مِنْ رَجْلِيْكَ مَا تُعْطِي الْأَكْفَانَ الرَّغَابِ
فَوَثِبْ إِلَيْهِ الْخَدْمِ يَضْرِبُونَهُ ، فَمُنْعِتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَتْ أَرَادَ خَيْرًا وَأَخْطَأَ ،
وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَرَادَ شَرًا فَأَصَابَ ؛ سَمِعَ قَوْلَهُمْ : شِمَالُكَ أَنْدَى مِنْ يَمِينِ غَيْرِكَ ،
فَظَنَّ أَنَّهُ إِذَا قَالَ هَذَا كَانَ أَبْلَغَ . أَعْطُوهُ مَا أَمْلَى ، وَعَرَّفُوهُ مَا جَهَلَ^(٢) .

وَمَاتَ لَهَا قَرْدٌ ، فَسَاءَهَا ذَلِكُ ، وَنَالَهَا مِنَ الْفَمِ مَا عَرَفَهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ مِنْ
خَاصِّتِهَا ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ : أَيْتَهَا السَّيِّدَةُ الْخَطِيرَةُ ، إِنَّ مَوْقِعَ
الْخَطِيبِ بِذَهَابِ الصَّغِيرِ الْمَعْجَبِ ، كَمَوْقِعِ السُّرُورِ بِنَيْلِ الْكَثِيرِ الْمَفْرَحِ ، وَمَنْ جَهَلَ
قَدْرَ التَّعْزِيَةِ عَنِ التَّافِهِ الْخَفِيِّ ، عَمِيَّاً عَنِ التَّهْنِيَّةِ بِالْجَلِيلِ السَّنِّيِّ ، فَلَا تَنْقُصَكَ اللَّهُ
الْزَّائِدُ فِي سَرُورِكَ ، وَلَا حَرْمَكَ أَجْرُ الدَّاهِبِ مِنْ صَغِيرِكَ ، فَأَمْرَتْ لَهُ بِجَائِزَةِ^(٣) .

اَخْتَلَفَ الرَّشِيدُ وَأَمَّ جَعْفَرُ فِي الْلَّوْزِينِجِ وَالْفَالَّوْذِجِ أَيُّهُمَا أَطِيبُ ، فَمَالَتْ زَبِيْدَةُ
إِلَى تَفْضِيلِ الْفَالَّوْذِجِ ، وَمَالَ الرَّشِيدُ إِلَى تَفْضِيلِ الْلَّوْزِينِجِ ، وَتَخَاطَرَا عَلَى مَئَةَ

(١) أَمَالِيُّ الْمَرْتَضِيُّ : ٢٢٥

(٢) زَهْرَةُ الْأَدَابِ وَقَرْنَةُ الْأَلْبَابِ : ٣٤٩

(٣) الْمَرْحُونُ السَّابِقُ : ٩٦٢

دينار ، فأحضر أبا يوسف القاضي ، وقال له : يا يعقوب قد اختلفنا في كذا على كذا وكذا فاحكم فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما يحكم على غائب وهو مذهب أبي حنيفة ، فأحضر له جامئين من المذكورين ، فطفرق يأكل من هذا مرّة ، ومن هنا مرّة ، وتحقق أنّه إنْ حكم للرّشيد لم يأْمِن غضب زبيدة ، وإنْ حكم لها لم يأْمِن غضب الرّشيد ، فلم يزل في الأكل إلى أن نصف الجامئين ، فقال له الرّشيد : إيه أبا يوسف ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مارأيت خصمين أجدر منها ، كلما أردت أن أسجّل لأحدهما أدلى الآخر بحجّته ، وقد حِرَّت بينها ، فضحك الرّشيد ، وأعطاه المئة دينار ، وانصرف مشكوراً^(١) .

هذه لحات من حياة زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، التي توفيت ببغداد في جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ ، ولقد كانت سيدة مؤمنة جليلة ، محبة للعمان ، عطوفة على ذوي الرأي والبلاغة والعلم .

وما قيل فيها : « امرأة لها اثنا عشر محراً كل منهم خليفة : عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبي سفيان جدّها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، وعبد الملك بن مروان زوجها ، ومروان بن الحكم حموها ، ويزيد بن عبد الملك ابنها ، والوليد وسلمان وهشام أبناء عبد الملك أولاد زوجها .

ومثلها في بني العباس زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، جدها المنصور ، وأخوها السفاح ، وزوجها الرشيد ، وعمها المهدى ، وابنها الأمين ، وأبناء زوجها المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل »^(٢) .

وزوجها الرشيد خليفة سلم عليه بالخلافة عمه وعم أبيه وعم جده ، سلم عليه

(١) وفيات الأعيان : ٢١٦/٢

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنسا : ٤٤٠/١

سلیمان بن المنصور ، والعباس بن محمد عم أبيه المهدی ، وعبد الصمد بن علي عم جده أبي جعفر المنصور .

وابنها محمد الأمین ، ولی الرشید الكسائی تأدیبه وتأدیب عبد الله المأمون ، يقول الكسائی : « فكنت أشدّ عليهما في الأدب ، وأخذهما به أخذًا شديداً ، وبخاصة محمد ، فأتنى ذات يوم « خالصة » جارية أم جعفر - زبیدة - فقالت : ياكسائی ، إن السيدة تقرأ عليك السلام ، وتقول لك ، حاجتي إليك أن ترافق بابني محمد ، فإنه ثرة فؤادي ، وقرة عيني ، وأنا أرق عليه رقة شديدة ، فقلت خالصة : إن محمدًا مرشح للخلافة بعد أبيه ، ولا يجوز التقصير في تأدیبه ، فقالت خالصة : إن لرقة السيدة سبباً أنا مخبرتك به . »

إنها في الليلة التي ولدته أريتُ في منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه ، فاكتفنه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه ، فقالت التي بين يديه : ملِك قليل العمر ، ضيق الصدر ، عظيم الكبر ، واهي الأمر ، كثير الوزر ، شديد الغدر . وقالت التي من ورائه : ملِك قصاف ، مبذُّر متلاف ، قليل الإنصاف ، كثير الإسراف ، وقالت التي عن يمينه : ملِك ضخم ، قليل الحلم ، كثير الإثم ، قطوع للرحم . وقالت التي عن يساره : ملِك غدار ، كثير العشار ، ثم بكت خالصة وقالت : ياكسائی ، وهل يغنى الحذر ؟ »^(١) .

لم نُسق ما قالته « خالصة » ، لصحة الصفات التي وردت بحق ابن زبیدة محمد الأمین ، إنها رؤيا أوردتها بعض الكتب منقولة مسجونة ، والحقيقة تقول : جلس الأصمي يتحن ويخبر الأمین والمأمون ، فقال : « ثم أمرني - الرشید - مطارحتها ، فكنت لأولي عليها شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا ». ورأينا أن الأخبار التي وردت عن الأمین هي إما أحلام ، وإما أنها كتبت

(١) الأخبار الطوال : ٣٨٨

في عهد المؤمن وإخوته أي بعد اخسار العنصر العربي وتغلب الشعوبية . وما من شك أن الرشيد كان يقدم الأمين ، ولو لا ذلك فما الذي كان يمنعه من تقديم المؤمن ؟ ورواية الأصحابي عنهم تؤكد أن الأمين كان على مستوى الخلافة . غير أن الحديث عنه تقرّباً من المؤمن والفرس . وهل كان الرشيد منساقاً في عواطفه مع زبيدة ؟ إنّ ماجاء في هذا من أخبار الأمين والمؤمن فيه نظر .

قال الرشيد لزبيدة يوماً : أتزوج عليك ؟

قالت زبيدة : لا يحل لك أن تتزوج عليّ .

قال : بلى .

قالت : يبني ويبينك من شئت .

قال : ترضين بسفيان الثوري ؟

قالت : نعم . فوجه إلى سفيان الثوري ، فقال الرشيد : إنّ زبيدة تزعم أنه لا يحلّ لي أن أتزوج عليها ، وقد قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرَبْعَ﴾ ، ثم سكت ، فقال سفيان : قُمِ الآية ، يريد أن يقرأ : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء ٢٤] وأنت لا تعدل ، فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم ، فأبى سفيان أن يقبلها^(١) .

وجرى بين الرشيد وبين ابنة عمّه زبيدة مناظرة وملاحة في شيء من الأشياء ، فقال الرشيد لها في عرض كلامه : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ، ثم ندم واغترّا جميعاً بهذه اليمين ، ونزلت بها مصيبة لوضع ابنة عمّه منه ، فجمع الفقهاء ، وسألهم عن هذه اليمين فلم يجد منها مخرجاً .

(١) حلية الأولياء : ٣٧٨/٦

وفي جلسة ضمت فقهاء من سائر الأمسكار ، تكلم كلهم باستثناء الليث بن سعد ، فدعاه الرشيد وقربه ، فطلب من الرشيد إحضار مصحف جامع ، فأمر به فأحضر ، فقال الليث بن سعد : يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتى يصل إلى سورة الرحمن ، فأخذه الرشيد وتصفحه ، حتى وصل إلى سورة الرحمن ، فقال الليث : يقرأ أمير المؤمنين ، فقرأ فلما بلغ : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ ، قال : قِفْ يا أمير المؤمنين هنا ، فوقف ، فقال : يقول أمير المؤمنين والله ، فاشتد على الرشيد وعلى ذلك ، فقال له الرشيد : ما هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين على هذا وقع الشرط ، فنكس أمير المؤمنين رأسه - وكانت زبيدة في بيت مسبل عليه ستر قريب من المجلس تسمع الخطاب - ثم رفع الرشيد رأسه إليه فقال : والله ! قال الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إلى أن بلغ آخر اليدين ، ثم قال الليث : إنك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله ؟ قال الرشيد : إنني أخاف مقام الله ، فقال : يا أمير المؤمنين فهي جنّاتان وليس بجنة واحدة ، كما ذكر الله تعالى في كتابه ، ففرحت زبيدة ، وقال الرشيد : أحسنت والله بارك الله فيك ، ثم أمر بالجوائز والخلع للبيث بن سعد . وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد ، فحمل إليه واستأذن في الرجوع إلى مصر ، فحمل مكرماً .

هذه هي زبيدة ، التي تزوجها الرشيد عام ١٦٥ هـ ، واسمعها الحقيقية (أمة العزيز) وغلب عليها لقب زبيدة ، لقد كان جدها المنصور يداعبها في طفولتها ويقول : يازبيدة « لِبَضَاطُتْهَا وَنَضَارُتْهَا »^(١) ! فغلب ذلك على اسمها .

لقد كانت كما وصفها ابن تغري بردي : « أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً ، ولقد تركت على طريق الحج مرافق ومنافع عمت الجميع فروناً . وهكذا كانت بحق من فضليات النساء وشهيراتهن » .

تغمّدنا الله برحمته ، وأجزل لها الثواب .

(١) وفيات الأعيان : ٢١٤/٢

بيت الرشيد

١ - نساء الرشيد المهاجر^(١) :

تزوج زبيدة ، وهي أم جعفر بنت جعفر بن المنصور ، سنة ١٦٥ هـ ، في خلافة المهدى ببغداد ، وفي دار محمد بن سليمان - التي صارت بعد للعباسة ، ثم صارت لالمعتصم بالله - فولدت له مهداً الأمين ، وماتت ببغداد في جادى الأولى سنة ٢١٦ هـ .

وتزوج أمة العزيز أم ولد موسى ، فولدت له علي بن الرشيد .

وتزوج أم محمد ابنة صالح المسكين ، وأعرس بها بالرقة سنة ١٨٧ هـ ، وأمها أم عبد الله ابنة عيسى بن علي ، كانت أملكت من إبراهيم بن المهدى ، ثم خلعت منه فتزوجها الرشيد .

وتزوج العباسة ابنة سليمان بن أبي جعفر سنة ١٨٧ هـ .

وتزوج الجرشية العثمانية ، وهي ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وسميت الجرشية لأنها ولت بجرش بالین .

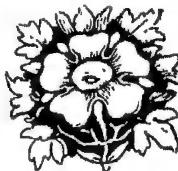
ومات الرشيد عن أربع مهائير : أم جعفر ، وأم محمد ابنة صالح ، و Abbasة ابنة سليمان ، والعثمانية .

(١) اعتمدنا روایة الطبری : ٣٦٠/٨ ، وهناك اختلاف بين الروایات ، انظر : البداية والنهاية : ١١٧/٥ ، والعقد الفريد : ٢٢٢/١٠

٢ - أَوْلَاد الرَّشِيد :

أ - الذُّكُور : محمد الأَكْبَر وَأُمُّهُ زَيْدَة ، وَعَبْدُ اللَّهِ الْمَأْمُون وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا مَرَاجِل ، وَالْقَاسِمُ الْمُؤْتَنُ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا قَصْف ، وَمُحَمَّدُ أَبُو إِسْحَاقِ الْمُعْتَصِمُ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا مَارَدَة ، وَعَلِيٌّ وَأُمُّهُ أُمَّةُ الْعَزِيزِ ، وَصَالِحٌ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا رَثْم ، وَمُحَمَّدُ أَبُو عِيسَى وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا عَرَابَة ، وَمُحَمَّدُ أَبُو يَعْقُوبِ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا شَذْرَة ، وَمُحَمَّدُ أَبُو الْعَبَاسِ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا خَبْث ، وَمُحَمَّدُ أَبُو سَلِيمَانِ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا رَوَاح ، وَمُحَمَّدُ أَبُو عَلِيٍّ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا دَوَاج ، وَمُحَمَّدُ أَبُو أَحْمَدِ وَأُمُّهُ أُمْ وَلَد يَقَالُ لَهَا كِتْمَان .

ب - الْبَنَات : سَكِينَة وَأُمُّهَا قَصْف وَهِيَ أُخْتُ الْقَاسِمِ ، وَأُمْ حَبِيب وَأُمُّهَا مَارَدَة وَهِيَ أُخْتُ أَبِي إِسْحَاقِ الْمُعْتَصِمِ ، وَأَرْوَى وَأُمُّهَا حَلْوَب ، وَأُمْ الْحَسْنِ وَأُمُّهَا عَرَابَة ، وَأُمْ مُحَمَّد وَهِيَ حَمْدُونَة ، وَفَاطِمَة وَأُمُّهَا غُصَّصُ وَاسْمُهَا مَصْفَى ، وَأُمْ أَبِيهَا وَأُمُّهَا سَكَر ، وَأُمْ سَلَمَة وَأُمُّهَا رَحِيق ، وَخَدِيجَة وَأُمُّهَا شَجَر ، وَهِيَ أُخْتُ كَرِيبِ ، وَأُمْ قَاسِمِ وَأُمُّهَا خَرْق ، وَرَمْلَة أُمْ جَعْفَرِ وَأُمُّهَا حَلْى ، وَأُمْ عَلِيٍّ وَأُمُّهَا أَنِيق ، وَأُمْ الْغَالِيَةِ وَأُمُّهَا سَهْنَدَل ، وَرِيَطَة وَأُمُّهَا زَيْنَة .



ولاية العهد

وَقَدْ الْأَرْضَ هَارُونَ لِرَأْفَتِهِ
بَنَا أَمِينًا وَمَأْمُونًا وَمَؤْتَنًا

عقد الرّشيد لابنه محمد الأمين ولاية العهد ، يوم الخميس في شعبان سنة ثلاثة وسبعين ومئة ، وضم إلينه الشّام والعراق في سنة خمس وسبعين ومئة^(١) ، ثمّ بايع عبد الله المأمون بالرّقة في سنة ثلاثة وثمانين ومئة ، وولاه من حد هذان إلى آخر المشرق . فقال في ذلك سلم بن عمرو الخاسر :

بَايَعْ هَارُونَ إِمَامَ الْهَدِي
الخِلِيفَ الْمُتَلِفِ أَمَّا وَالْأَمَّةَ
وَالْعَالَمِ النَّافِذَ فِي عِلْمِهِ
وَالرَّاتِقِ الْفَاتِقِ حَلْفَ الْهَوَى
خَيْرُ عَبَّاسٍ إِذَا حَصَّلَوا
أَبْرَهَمْ بَرًّا وَأَوْلَاهُمْ
لِمُشْبِهِ الْمُنْصُورِ فِي مَلْكِهِ
فَقَمَّ بِالْمَأْمُونِ نُورُ الْهَدِي

لِذِي الْحِجَّى وَالْخُلُقِ الْفَاضِلِ
وَالضَّامِنِ الْأَنْتَالِ لِلْحَامِلِ
وَالْحَامِكِ الْفَاضِلِ وَالْعَادِلِ
الْقَائِلِ الصَّادِقِ وَالْفَاعِلِ
وَالْمَفْضِلِ الْجَدِيِّ عَلَى الْعَائِلِ
بِالْعُرْفِ عَنْدَ الْحَدِثِ النَّازِلِ
إِذَا تَدَجَّتْ ظُلْمَةُ الْبَاطِلِ
وَانْكَشَفَ الْجَهْلُ عَنِ الْجَاهِلِ^(٢)

(١) حين بايع الرّشيد لمحمد بن زبيدة ، يعني ولده الأمين ، قال قصيده التي أوطها :
قل للمنازل بالكتيب الأعفر أُسقيت غادي السحاب المطر
قد بايع التّقلان مهديّ المدى محمد بن زبيدة ابنة جعفر
فحشت زبيدة فاه دراً فباعه بعشرين ألف دينار .

(٢) تاريخ الطبرى : ٢٧٥/٨ و ٢٧٦

وبعد مبايعة الرَّشِيد لِمُحَمَّد الْأَمِين ، وَعَبْدَ اللَّهِ الْمَأْمُون ، كَتَبَ إِلَيْهِ

عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِح :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي
لَوْ كَانَ نَجَّاً كَانَ سَعْدًا
اعْقَدْ لِقَاسِمٍ بِعَيْنَةٍ
وَاقْدَحْ لَهُ فِي الْمَلِكِ زَنْدًا
اللَّهُ فَرِدٌ وَاحِدٌ فَرِدًا^(١)
فَاجْعَلْ وَلَةَ الْعَهْدِ فَرِدًا

فَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى مِنْ حُضُورِ الرَّشِيدِ عَلَى الْبِيَعَةِ لِلْقَاسِمِ ، ثُمَّ بَاعَ لِلْقَاسِمِ ابْنَهُ
وَسَمَّاهُ الْمُؤْتَنِ ، وَوَلَاهُ الْجَزِيرَةَ وَالثُّغُورَ وَالْعَوَاصِمَ ، فَقَيْلٌ :

حَبُّ الْخَلِيفَةِ حَبُّ لَا يَدِينُ بِهِ
مِنْ كَانَ اللَّهُ عَاصِي يَعْمَلُ الْفِتْنَةَا
لَمَّا اصْطَفَاهُ فَأَحْيَا الدِّينَ وَالسُّنَّةَا
اللَّهُ قَلَّدَ هَارُونَ سِيَاسَتَنَا
وَقَلَّدَ الْأَرْضَ هَارُونَ لِرَأْفَتِهِ^(٢)
بَنَا أَمِينًا وَمَأْمُونًا وَمُؤْتَنَا

وَلَا قَسْمَ الرَّشِيدِ الْبَلَادَ بَيْنَ أَوْلَادِهِ الْثَلَاثَةِ ، كَانَ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ : قَدْ أَحْكَمَ
أَمْرَ الْمَلِكِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : بَلْ أَقْرَبَ بِأَسْهَمِ بَيْنَهُمْ ، وَعَاقِبَةُ مَا صَنَعَ فِي ذَلِكَ خَوْفَةٌ
عَلَى الرُّعْيَةِ .

الْبِيَعَةُ بِوَلَايَةِ الْعَهْدِ التَّلَائِيَّةِ أَوِ التَّلَاثِيَّةِ سُنَّةً أُمُوَّيَّةً أَتَتْ تُمَرِّهَا الْخَبِيثُ ، وَكَانَ عَلَى
الرَّشِيدِ تَجْنِبُهَا ، وَمَعَ أَنَّهُ احْتَاطَ فَأَخْذَ عَلَى أَبْنَائِهِ الْعَهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ ، أَنْ يَفِي بِعَصْمِهِمْ
لِبَعْضِهِمْ ، وَيَبْرِّئُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، وَلَكِنْ مَا قِيمَةُ هَذَا الْاحْتِياطِ قَبْلَةُ مَطَامِعِ الْإِنْسَانِ ؟

وَفِي سَنَةِ سِتِّ وَثَانِيَنِ وَمِئَةٍ ، حَجَّ الرَّشِيدِ وَالْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ مَعَهُ وَقَوَادِهِ ، فَلَمَّا
قَضَى مَنَاسِكَهُ كَتَبَ لِعَبْدِ اللَّهِ الْمَأْمُونِ ابْنَهُ كَتَابَيْنِ ، أَجْهَدَ الْفَقَهَاءَ وَالْقَضَاءَ آرَاءَهُمْ
فِيهَا ، أَحْدَهُمَا عَلَى مُحَمَّدِ الْأَمِينِ بِمَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ بِمَا فِيهِ مِنْ تَسْلِيمٍ مَا وَلَيَّ
عَبْدُ اللَّهِ الْمَأْمُونُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَصَبَرَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّيَّاعِ وَالْغَلَاتِ وَالْجَوَاهِرِ
وَالْأَمْوَالِ . وَالآخِرُ نَسْخَةُ الْبِيَعَةِ الَّتِي أَخْذَهَا عَلَى الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ . وَالشُّروطُ
لِلْمَأْمُونِ عَلَى الْأَمِينِ وَعَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ الْكَتَابَيْنِ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ بَعْدَ أَخْذِهِ الْبِيَعَةِ

(١) وَ(٢) تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ : ٢٧٦/٨

على الأمين ، وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم .

ولما رفع الكتاب ليعلق في الكعبة وقع ، فقيل إنَّ هذا الأمر سريع انتقاده قبل قيامه^(١) .

قال إبراهيم الموصلي في بيعة هارون لبنيه في الكعبة :

خِيْرُ الْأَمْرِ وَرِمْغَةٌ
وَاحِدَقُ أَمْرٍ بِسَالَتَهٖ
أَمْرٌ قَضَى إِحْكَامَهُ الرِّحْمَانُ
فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ

كان الرَّشِيد يتوسم النِّجَابَة والرجاحة في عبد الله المأمون ، ويقول : والله إنَّ فيه حزم النصور ، ونسك المهدى ، وعزَّة نفس الهادى ، ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت^(٢) ، وإنِّي لأُقدِّم محمد بن زبيدة ، وإنِّي لأعلم أنه متبع هواء ، ولكن لا أستطيع غير ذلك وقال :

غلبتُ على الأمر الذي كان أحزماً	لقد بان وجه الرأي لي غير أنني
توزع حتى صار نهباً مقصماً	وكيف يردد الدرُّ في الضُّرع بعدما
وأن ينقض الأمر الذي كان أبراً ما ^(٣)	أخاف التواء الأمْرِ بعد استوايه

لقد دخل الرَّشِيد مرَّة على المأمون وهو ينظر في كتاب ، فقال : ما هذا ؟ فقال : كتاب يشحد الفكرة ، ويُحسِّن العشرة ، فقال الرَّشِيد : أَحَمَّ اللَّهُ الَّذِي رَزَقَنِي مِنْ يَرِي بَعْنَى قَلْبِه أَكْثَرَ مَا يَرِي بَعْنَى جَسْمِه^(٤) .

☆ ☆ ☆

(١) راجع الطبرى : ٢٧٦/٨ ، وصح الأعشى : ٩٢/١٤

(٢) مما في الرشيد من إيمان وأدب وعلم . (مروج الذهب) ٣٦٢/٢

(٣) البداية والنهاية : ١٦٥/١٠ ، ١٦٦

(٤) زهرة الأدب وثرة الألباب : ١٤٢

وفاة الرشيد

«اللَّهُمَّ انْفَعْنَا بِالْإِحْسَانِ، وَاغْفِرْ لَنَا إِلَيْهِ،
يَا مَنْ لَا يَوْتُ ، ارْحَمْ مَنْ يَوْتُ .. ». ١٠

الرَّسِيدُ

رأى الرّشيد وهو بالكوفة رؤيا أفزعته ، وغمّه ذلك ، فدخل عليه جبريل بن بختي Shaw⁽¹⁾ فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت كفّاً فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري ، وقائلاً يقول : هذه تربة هارون .

فهُونَ عَلَيْهِ جَبَرِيلُ بْنُ بَحْتِيشُورُ أَمْرَهَا ، وَقَالَ : هَذِهِ مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحَلَامِ ،
مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ، فَتَنَسَّها يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

ولما سار الرشيد إلى خراسان عام ١٩٣ هـ ، مرّ بطُوس^(٢) واعتلتْه العلة بها .

(١) جبريل بن بختيشوع بن جرجس « توفي سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م » ، طبيب الرشيد ، علت منزلته
عنه ، وعندما توفي الرشيد خدم الأمين ، دفن في المدائن في دير مارجرجس ، ولله تصانيف
ألفها للآمدون . الأعلام : ١٠١/٢

(٢) طوس : مدينة بالقرب من مدينة يسابور ، بها آثار إسلامية جليلة ، وكان بها دار حميد
قطحبة ، وهي اليوم ضاحية من ضواحي مدينة مشهد ، حيث مقام الإمام الرضا رضي الله
عنه ، زرها يوم الأحد ١٩٨٩/٢/١٤ وحتى ١٩٨٩/٢/١٥ ، ولم يبق في طوس أثر من آثار الرشيد
إلا بناء بجواره قبر الإمام الغزالي (حجۃ الإسلام) يقال إنه سجن كان يستخدم أيام الرشيد ،
لقد درس قبر الرشيد ، وكتب فوق مقام الإمام الرضا على جدار القبة التي تعلوه ، يبتان من
الشعر لدعبل المزاعي بما :

قبـان في طـوس ، خـير النـاس كـلـهم
ما يـنفع الرـجـس من قـرب الرـزـي ولا
عـلـى الرـزـي بـقـرب الرـجـس مـن صـرـر !!
وقـيل لي فـي مـتـهـد : إـن طـوس الـقـديـة هـدمـها الـمـغـول ؛ وـطـوس الـجـدـيدـة الـيـوـم وـالـتي نـراـهـا الـآن ،
قرـيبـة جـداً مـن مـوـقـع طـوس الـقـديـة . كـا ذـكـرـنا فـي التـصـدـير .

وذكر رؤياه ، فهاله ذلك ، وقال جبريل : ويحك ! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا ؟ فقال : بلى . فدعا مسروراً الخادم وقال : أئتني بشيء من تربة هذه الأرض ، فجاءه بترفة حمراء في يده ، فلما رأها قال : والله هذه الكف التي رأيت ، والترفة التي كانت فيها . قال جبريل : فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفي ، وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها ، وهي دار حميد بن أبي غانم الطائي ، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول : يا ابن آدم تصير إلى هنا ، ثم أمر أن يقرؤوا القرآن في قبره ، فقرؤوه حتى ختموه ، وهو في محفة على شفير القبر ، ولما حضرته الوفاة احتبى بلاءة ، وجلس يقاسي سكرات الموت ، فقال له بعض من حضر : لو اضطجعت كان أهون عليك . فضحك ضحكاً صحيحاً ثم قال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني من قَوْمٍ كرامٍ يَزِيدُهُمْ شَامَّاً وَصَبْرًا شَدَّةُ الْحَدَثَانِ^(١)

وما قاله عندما حضره الموت : « اللَّهُمَّ انفعنا بالإحسان ، واغفر لنا الإساءة ، يا من لا يموت ، ارحم من يموت »^(٢) ، وقال :

إِنَّ الطَّبِيبَ بِطَبَيْبِهِ وَدَوَائِهِ لَا يُسْتَطِعُ دِفَاعَ مَحْذُورِ الْقَضَا
مَا لِلطَّبِيبِ يَمُوتُ بِالْدَّاءِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَشْفِي مَثْلَهُ فِيهَا مَضِي^(٣)

مات الرشيد بطوس ، ليلة السبت لأربعين خلون من جمادى الآخرة من سنة
ثلاث وتسعين ومئة^(٤) ، ودفن بقرية يقال لها (سناباذ) ، وصلى عليه ابنه
صالح .

(١) البداية والنهاية : ٢١٣/١٠

(٢) تاريخ بغداد : ٢٢١/١٤

(٣) مروج الذهب : ٣٧٥/٢ ، وفي الأخبار الطوال : ٣٩٢ ، عجز البيت الأول : « لا يستطيع دفاع
محذور جرى » .

(٤) الموافق ٢٧ مارس (آذار) ٨٠٨ م .

وكان عمره عندها خمساً وأربعين سنة ، وخلافته دامت ثلاثة عشر سنتين ،
 وشهرين ، وستة عشر يوماً^(١) .

وقيل عن سبب وفاته : مرضه بالدم ، وقيل بالسُّل ، وجبريل الطَّبِيب
 يكتُم ما به من العلَّة ، فأمر الرَّشيد رجلاً أن يأخذ ماءه في قارورة ويدهب به إلى
 جبريل ، فieri به إيه ، ولا يذكر بول من هو ، فإن سأله قال : هو بول مريض
 عندنا ، فلما رأه جبريل ، قال لرجل عنده : هذا مثل ماء ذلك الرجل . ففهم
 صاحب القارورة من عني به . فقال له : بالله عليك أخبرني عن حال صاحب هذا
 الماء ، فإن لي عليه مالاً ، فإن كان به ر جاء ، وإن أخذت مالي منه ، فقال :
 اذهب فتخلص منه ، فإنه لا يعيش إلا أيامًا ، فلما جاء وأخبر الرَّشيد ، بعث إلى
 جبريل فتغيّب ، حتى مات الرَّشيد ، وقد قال الرَّشيد وهو في هذه الحال^(٢) :

إني بط——وس مقيم——مالٰي بط——وسِ حمٰي
 أرجو إلهي لما بي——فإنْه بي رحيم
 لقد أتي بي طوساً——قضـاؤه المحتوم
 وليس إلا رض——والصـبر والتسـليم——لـائي

ولأبي الشّيص يرثي الرَّشيد :

غربت في الشرق شمسٌ فلها عينٌ تدمع

(١) تاريخ بغداد : ١٣/١٤ ، والأخبار الطوال : ٣٩٢ ، والنجوم الزاهرة : ١٤٠/٢ ، وفي مروج الذهن للمسعودي ٣٤٧/٢ : « ومات بطوس بقرية يقال لها سنابة ، يوم السبت لأربع ليالٍ خلؤنَّ من جمادى الآخرة سنة ثلاثة وسبعين ومئة ، فكانت ولادته ثلاثة عشر سنتين وستة أشهر ، وقيل : ثلاثة عشر سنتين وشهرين (وثمانية عشر يوماً) وهي الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر » .

(٢) البداية والنهاية : ٢٢١/١٠ ، والنجوم الزاهرة : ١٢٢/٢

مارأينا قط شمساً غربت من حيث تطلَّع^(١)

وقال أبو نواس جامعاً بين العزاء والهنا :

فحنن في ملائمة وفي عرسِ
فحنن في وحشة وفي أنسِ
كينما وفاة الإمام بالأمسِ
خلد وبدر بطورسِ في الرّمسي^(٢)

جرت جوارِ بالسعادة والنُّحسِ
القلب يبكي والعينُ ضاحكة
يضحكت القائم الأمين ويبَدِّل
بدرانِ بدرَ أضحي بيغداد في الـ

☆ ☆ ☆

وفاة الرّشيد ..

ثار ، أم مؤامرة أم غلطَةٌ من ابنِ بختيشوع ؟ !؟

خمسة نصوص ، أتقنها من مصادرها دون تعليق ، ولكنني أضع علامات استفهام كبيرة تجاهها ، وأترك لمحكمة القارئ القرار الذي يراه مناسباً بعد إقام دراستها :

النص الأول : « ولما مضت ثلاثة أيام من قتل الرّشيد عفراً [البرمي] ، قال الرّشيد لسرور : ما كان عفراً يصنع لما أخذته ؟ قال : كان يلعب بالشطرنج ويشرب ، وعنده جبريل بن بختيشوع الطّبّيب ، قال : فما قال حين مسه حد السيف ؟ قال : سمعته يقول : أهونُ بها من قتلة ، ولا سيما إذا كانت في طاعة الله .

(١) و(٢) تاريخ الخلفاء : ٢٩٦ و ٢٩٧

فقال الرّشيد : ويلي على ابن الفاعلَة ، أراد أن يوم أني قتله في هوى نفسي ، لا بل في طاعة الله .. ^(١)

النص الثاني : « فلما صار في بعض الطّريق ، ابتدأت به العلة ، فلم تزل تتزايد حتّى دخلنا طُوس » ^(٢).

« ومرّ بِطُوس ، واعتلتَه العلة بِهَا » ^(٣).

وهناك رواية في (تاريخ الخلفاء) تقول :

« وفي سنة اثنتين وتسعين ومئة توجّه الرّشيد نحو خراسان ، وذكر محمد بن الصباح الطّبرى أنَّ أباه شيع الرّشيد إلى النّهروان ، فجعل يجادلها في الطّريق ، إلّي أن قال : يا صباح ، لا أحسبك تراني بعدها ، فقلت : بل يرذك الله سالماً ، ثمَّ قال : ولا أحسبك تدرى ماإجْدَ ، فقلت : لا والله ، فقال : تعال حتّى أريك ، وانحرف عن الطّريق ، وأوْمأ إلى الخواص فتنحّوا ، ثمَّ قال : أمانة الله يا صباح أن تكتم علىَّ ، وكشف عن بطنه ، فإذا عصابة حرير حوالى بطنه ، فقال : هذه علة أكتها الناس كُلُّهم ، ولكلَّ واحد من ولدي علىَّ رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين ، مامنهم أحد إلّا ويُحصي أنفاسي ، ويُعَدُّ أَيَّامِي ، ويستطيع دهري ، فإنْ أردتَ أن تعرف ذلك فالسّاعة أدعوك ببرذون ^(٤) ، فيجيئون به أَعْجَف^(٥) ليزيد في علّتي ، ثمَّ دعا ببرذون ، فجاؤوا به كا وصف ، فنظر إلىَّ ثمَّ ركبَه ، وودعني وسار إلىَّ جرجان ، ثمَّ رحل منها في صفر سنة

(١) وفيات الأعيان : ٤٧٤/١

(٢) الطّري : ٣٤٣/٨

(٣) البداية والنهاية : ٢١٢/١٠ ، وفي الأصل : « واعتلتَه العلة بِهَا » .

(٤) البرذون : الدّابة ، [اللسان : برذن] .

(٥) العَجَفُ : ذهاب السَّمَن ، والهزال ، [اللسان : عجف] .

ثلاث وسبعين ومئة ، وهو عليل إلى طوس ، فلم يزل بها إلى أن مات ”^(١) .

وأنا إذ أرفض هذه الرواية ، وأثبت رواية : (الطّبرى) ، و (ابن كثير في البداية والنهاية) ، أرجع الرّفض للأسباب الثلاثة التالية^(٢) :

١ - لو كان الرّشيد معتلاً إلى هذا الحد ، لما خرج إلى قتال سيكون ميدانه فيما وراء النّهر ، ولأنّاب عنه في قيادة الجيش ، ولاقام في بغداد ، وكثيراً ما فعل ذلك في خلافته .

٢ - ما وردت في كل المُصادر الموثوقة ، أخبار تشير ولو إشارة لطيفة عابرة ، إلى تأمر الأمين أو المأمون على أيهما ، أو أنّهما كانا يحصيان عليه أنفاسه ، أو يعذّان عليه أيامه التي استطالت .

٣ - والرّشيد أقوى وأحزم وأهيب ، من أن يعامل بمثل هذه المعاملة غير اللائقة ، وما الذي كان يقف في وجهه لو رفض البردون الأعجف ، وأمر بإحضار فرسٍ قويٍّ سليمة ؟

وما أظن جيشاً يمثل الخلافة العباسية أيام الرّشيد ، خرج من بغداد في طريقه إلى سمرقند ، فيه برذون أعجف ، فثل هذه الدّابة من أبسط الأمور الحربية أن تستبعد ، لأنّها ستكون عبئاً على مسيرة جيش سيجتاز جبالاً وقفاراً وطريقاً طويلاً جداً ، تصل ما بين بغداد - حاضرة الخلافة آنذاك - وسمرقند حيث ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيّار !!

فالنص الثاني يثبت أن الرّشيد قد اُعتل في طوس ، ولم يخرج معتلاً من بغداد .

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٠ ، وكان السيوطي يشك بهذه الرواية ، فيورد صفحة ٢٩٦ النّص الثالث الآتي أعلاه .

(٢) لذلك الرواية أرفضها أينما وردت .

النَّصُّ الثَّالِثُ : « غلطة جبريل بن بختيشوع على الرَّشِيدِ في عِلْتِهِ في علاج عالجه به ، كان سبب منيّته ، فهمَ أن يفصل أعضاءه ، فقال [ابن بختيشوع] : أَنْظِرْنِي إِلَى غِيرِهِ ، فَإِنَّكَ تَصْبَحُ فِي عَافِيَةٍ ، فمات ذلك اليوم »^(١).

النَّصُّ الرَّابِعُ : ولماً أُخْبِرَ الرَّشِيدَ بِمَا قَالَهُ جَبَرِيلُ بْنُ بَخْتِيشَوْعَ ، حِينَ رَأَى الْمَاءَ الَّذِي فِي الْقَارُورَةِ^(٢) ؛ « بَعْثَ إِلَى جَبَرِيلَ فَتَغَيَّبَ حَتَّى مات الرَّشِيدُ »^(٣) ، و « كَانَ الرَّشِيدُ قَدْ هُمِّ لَيْلَةَ مات بِقُتْلِهِ »^(٤) ، بِقُتْلِ ابْنِ بَخْتِيشَوْعَ .

النَّصُّ الْخَامِسُ : « ثُمَّ دَعَا [الرَّشِيدَ] بِقَصَابٍ فَأَمَرَ بِهِ فَفَصَلَ أَعْضَاءَهُ »^(٥).

« .. ثُمَّ أَمَرَ قَصَابًا فَفَصَلَ أَعْضَاءَهُ »^(٦).

☆ ☆ ☆

هذه هي النصوص الخمسة موثقة كما جاءت في مصادرها .

ويتساءل المرءُ بعد دراستها ، وبكل تجرُّد وموضوعية وعلمية ، ودون كبير عناء : أكان موت الرَّشِيدُ ، وهو في الخامسة والأربعين من عمره ، حدثاً طبيعياً ، لا استفهام حوله ؟ ! أمْ كان ثاراً من جبريل بن بختيشوع ، الَّذِي كان من نخبة أصدقاء جعفر البرمكي وندمائه ، يلعب معه بالشطرنج ويشرب ؟ أمْ هو تأمر من ابن بختيشوع مع آل برمك ، فكانت (الغلطة) الَّتِي أودت بحياة الرَّشِيدِ ، من

(١) الطبرى : ٣٤٤/٨ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٦

(٢) مرَّ ذكر الخبر مفصلاً قبل صفحات قليلة .

(٣) البداية والنهاية : ٢٢١/١٠ ، النجوم الزاهرة : ١٢٢/٢ ، الطبرى : ٣٤٤/٨

(٤) الطبرى : ٣٤٤/٨

(٥) الكامل في التاريخ : ١٣٠/٥

(٦) ابن خلدون : ٢٢٩/٣

الطيب الخاص ، الذي كان يشرف حتى على طعام الخليفة ومأدنته ؟ ، ولقد ذكر المسعودي^(١) : « أهديت للرشيد سكّة [بالحِيرَة] فمنعها عنه ابن بختي Shaw ع الطَّبِيب » ، فأيُّ مرض مفاجئ في طُوس ، يسبّب هذه النهاية المحتومة خلال أيام معدودات ، ولا يحرك ابن بختي Shaw ساكناً ، بل لا يقدّم ما يخفّف آلام الخليفة ولهم يتساقط ، ويكتفي بالقول : « أنظري إلى غدِ ، فإنك تصبح في عافية ، فمات ذلك اليوم » .

يقول ابن بختي Shaw ، وهو يعلم ، ويعرف يقيناً مرض الرشيد : « أنظري إلى غدِ ، فإنك تصبح في عافية » ، أيُّ عافية هذه التي يراها ابن بختي Shaw في غدِ ، والقصّاب يفصل أعضاء الخليفة ؟

ولماذا تغيب حتى مات الرشيد ؟

ولماذا هم الرشيد بقتله ؟ وهو الذي لم يسفك دماً إلاً بحق ؟

وأيُّ مرض مفاجئ مميت يحلُّ بالرشيد وهو في طريقه إلى قتال رافع بن الليث بن نصر بن سيّار ، الذي شارفها وراء النهر ، في سمرقند ، إذ كان في قمة الصحة والعافية والنشاط ، أمْ سُمْ دُسْ في ليل ؟ !؟!

نصوص وأحداث ، وتساؤلات تتضمنا قبلة ثلاثة احتمالات :

ثأر ، أو مؤامرة ، أو (غلطة) من جبريل بن بختي Shaw !؟!

وفي حالة الغلط ، نحن أمام احتمالين أيضاً :

أولاً : احتمال الغلط عن سوء فهم أو تقدير أو تخمين .

ثانياً : احتمال (الغلط) عن قصد ، وسوء نية ، وخبث طوئية !!

(١) مروج الذهب : ٢٥٥/٣

ثقافة الرشيد

ناقد ذوقة ، وبحر واسع في علوم الدين
واللغة والأدب .. لذلك قيل : « كان فهم
الرشيد فهم العلماء » .

كان الرشيد مثقفاً ثقافة عربية واسعة ، فقد جمع إلى عقله الرا�ح الكبير أدباً
رفيعاً وتذوقاً متزاً رائعاً للشعر واللغة .. لذلك قيل : « كان فهم الرشيد فهم
العلماء » ^(١) .

فقد علمه الأدب : المفضل الضبي العلامة بالشعر والأدب وأيام العرب ،
وقرأ القرآن العظيم على حمزة الزبيات أربع مرات ، واختار لنفسه قراءة هي
إحدى القراءات السبع ، وعلمه الكسائي ^(٢) النحو والعربية وأيام الناس والفقه ،
وخرج إلى مجلس الخليل بن أحمد الفراهيدي في البصرة ، وملاه الأصمعي طرفاً من
طرائف العرب الأدبية ، وملحاً من ملخthem العربية . لذلك .. تدل مناقشاته
الكثيرة للعلماء والأدباء على سعة علمه وأدبه ، ويدل تقدّه للشعر والشعراء على أنه
بحر واسع في اللغة والعلم والأدب ، لقد كان يقول : « البلاغة التباعد عن
الإطالة ، والتقارب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل على المعنى » ^(٣) .

جاء في تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٢ : « أول شعر قاله الرشيد أنه حجّ سنة ولي

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٢

(٢) الكسائي : علي بن حمزة ، وسمي بالكسائي لأنّه أحزم في كسام ، « النجوم الظاهرة » : ١٣٠/٢ ،
الأعلام : ٩٢/٥ .

(٣) وفيات الأعيان : ٤٧٨/٣ ، والعقد الفريد : ٢٧٢/٢ ، وأحضر الرشيد أبا عبيدة مُعتمر بن المشتى
البصري النحوي من البصرة إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ ، وقرأ عليه بها أشياء من كتبه .

الخلافة ، فدخل داراً ، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر قد كتب على حائطه :

ألا يا أمير المؤمنين أما ترى فديتك هجران الحبيب كبيرا

فدعوا بدواه ، وكتب تحته بخطه :

بلى والهدايا المشعراتِ وما مشى بركة مرفوع الأظل حسيراً»

وهذه نماذج من علمه وأدبه :

مر الرشيد بالفضل الضبي والمأمون عن يمينه ، ومحمد الأمين عن يساره ، قال المفضل : فسلمت ، فأواما إلي بالجلوس فجلست ، فقال لي : يا مفضل ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : كم من الأسماء في « فسيكفيكم » !

فقلت : ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين ، قال : وما هي ؟ قلت : (فسيكفي) الله عز وجل ، والكاف الثانية لرسول الله عليه السلام ، والهاء والميم والواو للكفار ، قال : صدقت .. كذا أفادنا هذا الشيخ - يعني الكسائي - ثم التفت إلى الأمين فقال له : فهمت ؟ قال : نعم ، قال : أعد المسألة ، فأعادها كما قال المفضل .

قال الرشيد : يا مفضل هل عندك مسألة ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ،
قول الفرزدق :

أخذنا بأطراف السماء عليكم لنا قراها والنجوم الطوالع

قال الرشيد : هيئات قد أخذنا هذا قبلك ، فقد أخبرنا الشيخ - يعني الكسائي - أن « لنا قريها » ، يعني الشمس والقمر ، كما قالوا سنته العمران ، يريدون أبا بكر وعمر ، وذلك أنه إذا اجتمع اسنان من جنس واحد ، وكان أحدهما أخف على أفواه القائلين غلبوه ، فسموا الأخير باسمه ، فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبي بكر وفتحه أكثر ، غلبوه ، وسموا أبا بكر باسمه ، وقد قال الله عز

وَجْلٌ : « بَعْدَ الْمُشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ » [الرُّخْرُف : ٤٣/٢٨] ، وهو المشرق والغرب .

وقال الأحمر النحوي : بعث إلى الرَّشِيد لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت عليه قال : يا أحمر ، إنَّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثرة قلبه ، فصَّيرَ يدك عليه مبوطة ، وطاعتكم عليه واجبة ، فكن له بخيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرَّه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروَّه الأشعار ، وعلَّمه السنن ، وبصْرَه موقع الكلام ، وابدأه وامنعه الضَّحْك ، إلَّا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا ترْنَّ بك ساعة إلَّا وأنت مفتعم منها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فقيت ذهنه ، ولا تعن في مسامحته فيستحلِّي الفراغ ويألفه ، وقوَّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإنَّ أباها فعليك بالشدة والغلظة^(١) .

وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ما أعلم أنَّ ملك رحلة في طلب العلم إلا الرَّشِيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله ، وكانت أصول الموطأ بسماع الرَّشِيد في خزانة المصريين ، ثم رحل بسماعه السُّلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية ، فسمعه على ابن طاهر بن عوف ، ولا أعلم لها ثالثاً^(٢) .

صعد الرَّشِيد المنبر ليخطب ، فسقطت ذبابة على وجهه فطردها ، فعادت فحضر وأرتج عليه ، فقال : أعود بالله السَّمِيع العليم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَا اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَقِنُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ »

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٣٦٢/٣

(٢) تاريخ الحلفاء : ٢٩٤

[الحج ٧٣/٢٢] ، ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه^(١) .

قال الأصمعي : سمعت الرشيد يقول : قلب العاشق عليه مع معشوقه ،
فقلت له : هذا والله يا أمير المؤمنين أحسن من قول عروة بن حزام العذري
لعراء :

أراني تُعْرُونِي لِذِكْرِكِ رَوْعَةً
وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاهَةً
وَأَضْرَفَ عَنْ دَارِي الَّذِي كُنْتُ أَرْتَئِي
وَيُنْضِرَ قَلْبِي غَدْرَهَا وَيَعِنْهَا

لها بين جلدي والظماء دبيب
فأبايتها حتى لا أكاد أجيبي
ويغزب عني علمه ويغيب
عليه، فما لي في الفؤاد نصيب

فقال الرشيد : من قال هذا وهم إيني أقوله علاماً ، والله درك يا أصمعي !
إيني أجد عندك ماتضل عنه العلماء^(٢)

وقال إسحاق الموصلي : قال لي الرشيد : ما أحسن ما قيل في رياضة النفس
على الفراق ؟ قلت قول الأعرابي :

وإِنِّي لَأَسْتَحِي عَيْوَنَا وَأَتَقِي
فَأَنْذَرْ بِالْهَجْرَانِ نَفْسِي أَرْوَاهَا

كثيراً، وأستبقي المودة بالهجر
لأعلم عند الهجر هل لي من صبر

فقال الرشيد : هذا مليح ، ولكنني أستلبح قول أعرابي آخر :

وَمَا كَانَ هَجْرَانِي لَهَا عَنْ مَلَالَةٍ
وَلَكِنِّي جَرِبْتُ نَفْسِي بِالصَّبْرِ^(٣)

وقال الأصمعي : دخل العباس بن الأحنف على هارون الرشيد ، فقال له
الرشيد : أنسدني أرق بيت قاتله العرب ، فقال : قد أكثر الناس في بيت جميل

(١) أمالى المرتضى : ١٠٥/٢

(٢) أمالى المرتضى : ٤٥٩/١

(٣) زهرة الآداب وقرة الألباب : ١٠٥٢

حيث يقول :

ألا ليتني أعمى أصم تقدودني بشينة لا يخفى على كلامها

قال هارون : أنت والله أرق منه حيث تقول :

طاف الموى في عباد الله كلهم حتى إذا مرت بي من بينهم وقفوا

قال العباس : أنت والله يا أمير المؤمنين أرق قوله مني ومنه حيث تقول :

أما يكفيك أنك تملكوني وأن الناس كلهم عبيدي

لقلت من الموى أحسنت زيدي وإنك لو قطعت يدي ورجلي

فأعجب بقوله وضحك^(١)

وما روي في عيون الأخبار لابن قتيبة : حبس الرشيد أبا العتاهية ، فكتب إليه من الحبس أبياتاً منها :

تفديك نفسي من كل ما كرهت نفسك إن كنت مذنبًا فاغفر

يا ليت قلبي مصور لك ما فيه لستيقن الذي أضر

فوق الرشيد في رقته : « لا بأس عليك » ، فأعاد عليه رقعة أخرى فيها :

كان الخلق رُكْب فيه روح له جسد وأنت عليه رأس

أمين الله إن الحبس بـأس وقد وقعت « ليس عليك بـأس »

فأمر الرشيد بإطلاقه^(٢) .

قال الأصم : دخلت على الرشيد في الليل ، فتناكرنا أحوال القمر ،

(١) تاريخ بغداد : ١٤/١٢

(٢) عيون الأخبار : ١/٧٢

فقلت : العرب يقول للقمر إذا كان ابن ليلة : ما أنت ابن ليلة^(١) ؟ قال : رضاع سُخِيلَة^(٢) ، حلَّ أهْلَهَا بِرْمِيلَة^(٣) ، قيل له : مَا أَنْتَ ابْنَ لَيْلَتَيْنِ ؟ قال : حديث أَمْتَيْنِ^(٤) بِكَذْبٍ وَمِينٍ . قيل له : مَا أَنْتَ ابْنَ ثَلَاثَ ؟ قال : قَلِيلُ الْبَلَاثُ - وَقِيلَ أَيْضًا : حديث فتيات ، غَيْرُ جَدِّ مُؤْتَلَفَات^(٥) - قيل له : فَمَا أَنْتَ ابْنَ أَرْبَعَ ؟ قال : عَتَمَةُ أَمْ رَبَعٍ^(٦) - وَقِيلَ : عَتَمَةُ الرَّبَعِ - غَيْرُ جَائِعٍ وَلَا مَرْضَعٍ . قيل له : فَمَا أَنْتَ ابْنَ خَمْسَ ؟ قال : عَشَاءُ خَلِيفَاتُ قُعْسٍ^(٧) ، وَيَقُولُ : حديث وَأَنْسٍ ، وَيَقُولُ : سِرْ وَمَسْ^(٨) ، قيل له : مَا أَنْتَ ابْنَ سَتَ ؟ قال : سَرْ وَبِتٌ^(٩) - وَقِيلَ : تَحْدَثُ وَبِتٌ - قيل له : مَا أَنْتَ ابْنَ سَبْعَ ؟ قال : دَلْجَةٌ ضَبْعٌ . وَقِيلَ : هَدِي لَأَنْسٍ ذِي الْجَمْعِ ، وَقِيلَ : يَصْفِرُ فِي النَّسْعِ^(١٠) - وَقِيلَ : يَلْتَقِطُ فِي الْجَزْعِ - وَقِيلَ :

(١) أي أستفهمك عن نفسك ، في حال كونك ابن ليلة !

(٢) سُخِيلَةٌ : تصغير سخلة ، والمعنى : أن القمر يبقى بقدر ما ينزل قوم ، فنضع شاهم سخلة ثم ترصفها ويرتحلون ، فبقاءه بالأفق بقدر هذا الزمان .

(٣) المعنى : الإخبار عن قلة اللبات وسرعة الانتقال ، لأن الرمل ليس بمنزل مقام للقوم ، لأنهم كانوا يختارون في منازلهم جلد الأرض « الصلب المستوي » وهضبها والأماكن التي لا تستوفي السيلول عليها .

(٤) يريده أن بقاءه قليل بقدر ماتلقى الأمة الأمة ، فتكذب لها حديثاً ثم تفترقان .

(٥) أراد أنه يبقى بقاء فتيات اجتمعن على غير ميعاد فتحادثن ساعة تم انصرفن غير مؤتلفات .

(٦) يقال : عَتَمَتْ إِبْلَهُ ، إذا تأخرت عن العشاء ، ومن هذا سميت صلاة العتمة ، لأنها آخر الوقت في العشاء .

(٧) قوله : « أم رَبَعٍ » يعني الناقة ، وهو تأخير حلتها ، يريده أن بقاءه بقدر ما تخلب ناقته لها ولد ولدته في أول الربيع ..

(٨) الخلفات اللواتي قد استبان حلمهن ، واحدتها خلفة ، وهي المخاض ، ولا واحد للمخاض من لفظها ، وإنما قال : عشاء خلفات ، لأنها لاتعشى إلى أن يغيب القمر في هذه الليلة ، والقمساء : الداخلة الظهر الخارجة البطن .

(٩) يريده أنه لا يبقى إلا بقدر ما يبيت الإنسان ثم يسير ، ويريد أنه يبقى بقدر ما يسير الإنسان ثم يبيت ، فقلب المعنى لأنه يسير في الضوء .

(١٠) سير مضفور مثل الأعناء .

ما أنت ابن ثمان ؟ قال : قمر أضحيان^(١) . قيل له : ما أنت ابن تسع ؟ قال : منقطع الشّسّع^(٢) ، وقيل : يلتقط في الجزء^(٣) - وقيل : الودع^(٤) - ، وقيل : عشية أهل جمع ؛ قيل له : ما أنت ابن عشر ؟ قال : ثلث الشهر ، وقيل : مخنق الفجر^(٥) ، وقيل : أؤديك إلى الفجر ، وقيل : أبادر الفجر ، قيل له : ما أنت ابن إحدى عشرة ؟ قال : أطلع عشاء ، وأرى بكرة ، وقيل : أغيب بسحرة ، قيل له : ما أنت ابن اثنين عشرة ؟ قال : مؤنق للبشر^(٦) ، بالبدو والحضر ، قيل : ما أنت ابن ثلاثة عشرة ؟ قال : قمر باهر يعشو^(٧) له الناظر ، قيل له : ما أنت ابن أربع عشرة ؟ قال : مقبل الشباب ، أضيء مدجنات^(٨) السحاب ، وقيل : مضيء للسحاب ، قيل له : ما أنت ابن خمس عشرة ؟ قال : تم الشباب وانتصف الحساب .

قيل له ما أنت ابن ست عشرة ؟ قال : نقص الخلق ، بالغرب والشرق ، قيل له : ما أنت ابن سبع عشرة ؟ قال : أمكنت المُقتفي القيفة ، قيل له : ما أنت ابن ثانية عشرة ؟ قال : قليل البقاء ، سريع الفناء ، قيل له : ما أنت ابن تسع عشرة ؟ قال : بطيء الطلع ، بين الخشوع ، قيل : ما أنت ابن عشرين ؟

(١) أي ضاح وباز ، ومنه قيل : ليلة اضحيانة ، إذا كانت نقية البياض .

(٢) أراد أنه يبقى بقدر ماتبقى شیئ من قدّم يمشي به حتى ينقطع .

(٣) أي أنه مضيء أبلج ، لو انقطعت مخنقة فتاة فيها شذور مفصلة بجزع ماضع منها شيء لضيائه ونقاءه .

(٤) الودع : خرز أبيض يخرج من البحر ، الواحدة : ودعة ، سكون الدال وفتحها .

(٥) وفي رواية : « موفق البتر ». وشيء « أنيق » أي حسن معجب ، « مختار الصحاح : ٢٢ » .

(٦) أي حسن معجب .

(٧) عتنا يعشو : إذا ضعف بصره .

(٨) التقدير : السحاب المدجنات ، وهذا من باب ما يقال له إضافة الصفة إلى الموصوف في الظاهر .

كقول : مررت بمحسان النساء وجسام الرجال ، أي النساء الحسان ، والرجال الجسم .

قال : أطلع بسُحْرَة ، وأضيء بالبَهْرَة^(١) . قيل : ماأنت ابن احدى وعشرين ؟ قال : كالقبس ، يُرى بالغُلُس^(٢) . قيل : ماأنت ابن اثنين وعشرين ؟ قال : لا أطلع إلاّ ريثاً أري . قيل : ماأنت ابن ثلاَث وعشرين ؟ قال : أطلع في قُتْمَه^(٤) ، ولا أجلو الظُّلْمَة ، قيل له : ماأنت ابن أربع وعشرين ؟ قال : لا قر ولا هلال ، قيل : ماأنت ابن خمس وعشرين ؟ قال : دنا الأجل ، وانقطع الأمل ، قيل : ماأنت ابن ست وعشرين ؟ قال : دنا مادنا ، فلا يُرى مِنِي إِلَّا شفَا^(٥) . قيل : ماأنت ابن سبع وعشرين ؟ قال : أطلع بَكْرَاً^(٦) ، ولا أرى ظهراً ، قيل : ماأنت ابن ثمان وعشرين ؟ قال : أسبق شعاع الشَّمْس ، قيل : ماأنت ابن تسع وعشرين ؟ قال : ضئيل صغير ، فلا يراني إِلَّا البصير ، قيل : ماأنت ابن ثلاثين ؟ قال : هلالٌ مستنير .

قال الأصمعي : ثم قلت للرَّشيد : يقال إِنَّه لا يحفظ هذا الحديث من الرِّجال إِلَّا عاقل ، فقال : خذه علىّ ، قلت هات . فأعاده حتى بلغ : قيل له : ماأنت ابن ثمان ؟ قال : قمر أضحيان^(٧) ..

دعا الرَّشيد بعد الملك بن صالح - وكان معتقلًا في حبسه^(٨) - فلما مثل بين يديه التفت إِلَيْه ، وكان يحدّث يحيى بن خالد بن برمك وزيره ، فقال متّلأ :

(١) البَهْرَة : نصف الليل ، وبهْرَة كل شيء وسطه .

(٢) أَهْجَر بالبَهْرَة : أي أطلع نصف الليل .

(٣) العَلْس : ظلمة آخر الليل .

(٤) القُتْمَة : لون غبرة وحرقة « آخر الليل » .

(٥) شفَا : حرف كل شيء ، أراد أن قوسه كأنها خط هلامي يوم الحق .

(٦) بَكْرٌ : البَكْرَة : الغدوة ، والإِبْكَارُ : اسم البَكْرَة كِلِّ الإِصْبَاح .

(٧) إلى آخر ما ورد .

(٨) سير سبب سجنـه مفصلاً .

أُريد حياته ويريد قتلي عذرك^(١) من خليلك من مراد

ثم قال الرشيد : يابعد الملك ، كأنني أنظر إلى شؤوبها^(٢) قد هم ، وإلى عارضها قد لمع ، وكأنني بالوعيد قد أورى^(٣) ، بل أدمى ، فأبرز عن براجم بلا معاضم^(٤) ، ورؤوس بلا غلام ، مهلاً مهلاً بنبي هاشم ، في والله سهل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها ، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل^(٥) .

فقال عبد الملك : أَفَذَا أَتَكُلْ أَمْ تَوَمَّا ؟

قال الرشيد : توَمَّا^(٦) .

قال : أتّق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، واحفظه في رعاياك الذي استرعاك ، ولا تجعل الكفر بموضع الشُّكُر ، والعقاب بموضع الثواب ، فقد والله تسهلت لك الوعور ، وجُمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وشدّدت أواخي ملكك بأوثق من ركني يَلْمِلُ ، وكنت لك كما قال أخوبني جعفر بن كلاب - يعني لبيدا :-

ومقام ضيق فرجته بلسانٍ ويبيانٍ وجتنٍ

(١) عذرك : أي أطلب من يدركك .

(٢) الشُّؤُوب : الدفعة من المطر .

(٣) من قوله : « أورى الزند » إذا قدحته فأخرج ناراً .

(٤) البراجم : الأصابع ، والمعلم : موضع السوار من الساعد .

(٥) وفي العقد الفريد : ١٥٢/٢ : « أما والله لكاني أنظر إلى شؤوبها قد هم ، وعارضها قد لمع ، وكأنني بالوعيد قد وقع ، فأقلع عن براجم بلا معاضم ، وجاجم بلا غلام ، فهلاً مهلاً ، قبّي والله يسهل لكم الوعر ، ويصفو لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور مقاليدة أزمتها ، فالتدارك التدارك قبل حلول داهية خبوط باليد آبوط بالرجل ».

(٦) مروج الذهب : ٢٥٤/٢

لو يقُوم الفيل أو فيَاله زل عن مثل مقامي وزَحل

وأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد ، فقال له : يا عبد الملك ، بلغني أنك حَقْود ، فقال : أصلاح الله الوزير !! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي ، إنها لباقيان في قلبي . فالتفت الرشيد إلى الأصمي ، فقال : يا أصمي حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك .

فأعاد الرشيد عبد الملك بن صالح إلى محبسه ، ثم التفت إلى الأصمي فقال : لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مراراً ، يعني من ذلك إيقائي على قومي في مثله^(١) .

وبناءً على محاكاة عبد الملك بن صالح .

كان الرشيد مضرب المثل في العدل ، وفي قلبه توازن عجيب بين العصف بالعدُّ ، وبين العطف على الرعية ، وهذا التوازن يشبه توازنه بين سره البريء الطاهر العفيف ، وبين إيمانه وورعه والتزامه بإسلامه .

والمتهم عنده يسوق حججه على أعلى مستوى يتصوره دفاع عن متهم في حضرة خليفة يحسن الاستئاع ، بوجود قاضٍ هو أعظم أهل الأرض علماً يومذاك ، أبو يوسف ، ومن بعده محمد بن الحسن الشيباني .

فلم يرق الرشيد دمأ إلا إذا أدانت الأدلة صاحبه ، وكان دأبه أن يضرب بشدة ، لكن العدل كان شأنه في كل حكم . والمتصفح لتاريخ الرشيد ، يلمس بوضوح أنه مأمور بقتل إنسان إلا في حالات ثلاث :

(١) مروج الذهب : ٣٥٥/٣ ، وفيات الأعيان : ٥٥/٧

١ - زنديق^(١) يعلن كفره ويُجاهر به ، ويستخف بقيم الآخرين ويُسخر منها ، وهذا مارأه الرّشيد أيام أبيه المهدى المشهور بعدله وتقواه ، لقد كان لوزير المهدى (معاوية بن يسار) ابن تزندق ، فدعا المهدى الوالد وولده ، وسأل الولد عن شيء من القرآن الكريم ، فلم يتكن من تلاوة بعض الآيات ، قال المهدى : ألم تخبرني أن ابنك حفظ القرآن ؟ قال الوزير : بلى ، ولكن فارقني منذ مدة فنسية ، قال المهدى : قم فتقرّب إلى الله بدمه ، فقام الأب فعثر وقع وارتعد ، فأمر المهدى بعض الحضور لقتل الزنديق . فضرب عنقه .

٢ - مسلمٌ تبيح الشّريعة قتله في حالات ثلاث ، مصداقاً لقول النبي ﷺ : « لا يحلُّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلات : الثَّيْبُ الرَّازِيُّ ، والنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، والثَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ » ، [رواه البخاري ومسلم] .

٣ - ثائرٌ يهدف قلب نظام الحكم ، يشيع الفوضى والذُّعر والقتل والفتوك ، بدل الأمان والطمأنينة .. وهذا تقره الدول قدّيماً وحديثاً ومستقبلاً ، إنّه قانون السلطة في كلّ زمان : الدفاع عن النفس والدولة . وهذا إما أن يقتل في مواجهة حربية عسكرية ، وإما بـالقاء القبض عليه ومحاكمته علينا ، مع دفاع كامل بحضور قاضي القضاة .

وهكذا .. إن صفق الرّشيد وقال : السيف والنطع يا غلام ، فهذا يعني بعد محاكمة بكلّ ما في الكلمة من معنى ، وبعد إدانة ضمن حدود الشّريعة .

فالتأريخ يزدهي بورع الرّشيد وعلمه وشجاعته وسياسته ، مع الحزم والجسم دفاعاً عن الدولة ، وعن رفاهيتها وأمنها ، كيف لا ... وهو الأب العطوف

(١) الزّيْدَةُ : إصطلاح عقدي ظهر في أواخر الدولة الأُمويَّة ، وأصبح متداولاً منذ قيام الدولة العباسية ، المقصود به بصفة عامة الإلحاد ، أو إبطان الكفر وإظهار الإيمان ، أصل الكلمة فارسية (زَنْدَكَر) ، وهو من يقول ببقاء الدّهر (دهري) .. [القاموس الإسلامي : ٩٧٣] .

الرَّحِيم لرَعِيَّتِه كُلُّهَا ؟ !

سأَل الرَّشِيد إِبْرَاهِيم بْن سَعْد الزُّهْرِي : مَن بِالْمَدِينَة مَن يَحْرُم الْغِنَاء ؟ بَلْغَنِي
أَن مَالِك بْن أَنْس يَحْرُمْه ، فَأَجَاب : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِين ، أَوْ لِمَالِك أَن يَحْرُم
وَيُحَلِّل ؟ وَاللَّهُ مَا كَان ذَلِك لَابْن عَمِّك مُحَمَّد ﷺ إِلَّا بُو حِيٌّ مِنْ رَبِّه ، فَمَن جَعَل
هَذَا لِمَالِك ؟ فَشَهَادَتِي عَلَى أَبِي أَنَّه سَمِعَ مَالِكًا فِي عَرْسِ ابْنِ حَنْظَلَةِ الْفَسِيلِ يَتَغَنَّى :

سَيِّدِي أَزْمَعْتَ يَئِنْنَا فَأَيْنَ تَظَنْنَا أَيْنَا ؟
وَلَوْ سَعَتْ مَالِكًا يَحْرُمْه وَيَدِي تَنَاهَ لَا حَسِنَتْ أَدْبَه ، قَال : فَبِسْمِ
الرَّشِيد^(١) .

وَقَال إِسْحَاقُ الْمُوصَلِي : حَضَرَتْ مَسَامِرَ الرَّشِيد لَيْلَةَ عَبْثَرًا الْمَغْنِي^(٢) ، وَكَانَ
فَصِيحًا مَتَادِبًا ، وَكَانَ مَعَ ذَلِك يَغْنِي الشِّعْرَ بِصَوْتِ حَسَن ، فَتَذَاكَرُوا رَقَةُ شِعْرِ
الْمَدِينَيْن ، فَأَنْشَدَ بَعْضُ جَلْسَائِه أَلْيَاتًا لَابْنِ الدَّمِينَةِ حِيثُ يَقُول :

وَأَذْكُرْ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَنْشِنِي عَلَى كَبِدي مِنْ خَشِيَّةِ أَنْ تَصَدِّعَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوْاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِيكَ تَدْمِعا
بَكْتُ عَيْنِيَ الْيَمْنِيَّ فَلَمَّا زَجَرَتْهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدِ الْحِلْمِ أَسْبَلْتَنَا مَعَا^(٣)
فَأَعْجَبَ الرَّشِيدَ بِرَقَّةِ الْأَيَّاتِ ، فَقَالَ لَهُ عَبْثَر : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِين ، إِنَّ هَذَا
الشِّعْرَ مَدِينيَّ رَقِيقٌ ، قَدْ عَذَّى بَيَّنَ الْعَقِيقِ ؛ حَتَّى رَقَّ وَصَفَا ، فَصَارَ أَصْفِيَّ مِنَ
الْهَوَاءِ ، وَلَكِنْ إِنْ شَاءَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْشَدَتِه مَا هُوَ أَرْقَ مِنْ هَذَا وَأَحْلَى ، وَأَصْلَبَ
وَأَقْوَى ، لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَّةِ ، قَالَ : فَإِنِّي أَشَاءَ ، قَالَ : وَأَتَرْنَمْ بِهِ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : وَذَلِكَ لَكَ ، فَغَنَّى لِجَرِيرِ :

(١) العقد المريدي : ١١/٦

(٢) العَبْثَر : نَبَاتٌ طَيِّبٌ الْأَكْلُ ، لَهُ قَضْبَانٌ دَقَّاقٌ ، طَيِّبٌ الرَّيْحُ . [اللسان : عَبْثَر] .

وَشَلَّاً بَعْيُنكَ لَا يِزَالْ مَعِينَا
مَاذَا لَقِيتَ مِنْ الْهَوَى وَلَقِينَا
إِنْ حِزْنَ حِرْنَا أَوْ هَدِينَ هَدِينَا
إِنْ مِنْ مِتْنَا أَوْ حَيْنَ حَيْنَا

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْ بِلِبْكَ غَادُوا
عَيْضَنْ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وَقُلنَ لِي
رُوْحَوْ الْعَشِيَّةِ رُوحَةً مَذْكُورَةً
فَرَمَّوْ بِهِنَ سَوَاهِمَا عَرْضَ الْفَلَّا

قال : صدقَتْ يَا عَبْرَ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَجَازَهَ^(١) .

☆ ☆ ☆

قال الرَّشِيدُ يَوْمًا لِبَعْضِ الشُّعُرَاءِ : هَلْ أَحْدَثْتَ فِينَا شَيْئًا ؟ قَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَدِيعَ فِيكَ دُونَ قَدْرِكَ ، وَالشِّعْرُ فِيكَ فَوْقَ قَدْرِي ، وَلَكُنْيَّ
أَسْتَحْسِنُ قَوْلَ الْعَتَّابِيِّ^(٢) :

نَادَاكَ فِي الْوَحْيِ تَقْدِيسٌ وَتَطْهِيرٌ
مُسْتَنْطَقَاتٌ بِمَا تُخْفِي الصَّمَائِيرُ
مِنَ الْكِتَابِ وَلَمْ تُقْضِيَ الْمَشَاعِيرُ
وَصَارَمُّ مِنْ سَيُوفِ الْهَنْدِ مَأْثُورٌ^(٣)

مَاذَا يَرِيْ قَائِلٌ يُشَنِّي عَلَيْكَ وَقَدْ
فَتَّ الْمَدَائِحَ إِلَّا أَنَّ الْسُّنْنَا
فِي عَتَّةٍ لَمْ تَقْمِ إِلَّا بَطَاعَتْهُمْ
هَذِي يَمِينَكَ فِي قُرْبَكَ صَائِلَةٌ

☆ ☆ ☆

دخل الفَرَاءُ ، أَبُو زَكْرِيَا يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَنْظُورِ الْأَسْلَمِيِّ عَلَى
الرَّشِيدِ فَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ لَهْنَ فِيهِ مَرَّاتٍ ، فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ : إِنَّهُ قدْ لَهْنَ

(١) العقد الفريد : ٣٣/٦

(٢) كثيرون بن عمرو بن أيوب التَّغْلِيَّيِّ ، أبو عمرو ، من بني عَتَّابِ بْنِ سَعْدٍ ،
(ت ٢٢٠ هـ ٨٢٥ م) ، كاتب وشاعر مجید ، رَمِي سالِزِيدَة ، فطلبَهُ الرَّشِيدُ ، فهربَ إِلَى
الْيَمَنَ ، فسعيَ المُضْلُّ بْنُ يَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ بِأَخْذِ الْأَمَانَ لَهُ مِنَ الرَّشِيدِ ، فَأَمْنَهُ ، وَعَادَ فَاخْنَصَ
بِالْبَرَامِكَةَ ، مِنْ كُتُبِهِ : فَنُونُ الْحُكْمِ ، الْأَدَابِ ، الْحَيْلَ ، الْأَجْوَادِ ، الْأَلْفَاظِ ، [الأعلام] :
[٢٣١/٥] .

(٣) عيون الأخبار : ٩٤/١ ، العقد الفريد : ١٣٦/٢

يا أمير المؤمنين ، فقال الرّشيد للفراء : أتلحن ؟ فقال الفراء : يا أمير المؤمنين ، إنَّ طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا تحفظت لم أحن ، وإذا رجعت إلى الطَّبع لحت ، فاستحسن الرّشيد قوله^(١) .

☆ ☆ ☆

أنشد العباسُ بنَ الأحنف الرّشيدَ يوماً قوله^(٢) :

طاف الهوى في عباد الله كُلُّهم حتَّى إذا مُرِّ بي من بينهم وقفَا
قال له الرّشيد : ما الذي رأى فيك حتَّى وقف عليك ؟
قال : سأله عن جود أمير المؤمنين فأخبرته ، فاستحسن الرّشيد جوابه
ووصله .

☆ ☆ ☆

وقيل : إنَّ الرّشيد عمل في اللَّيل بيتاً ، ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه ، فقال : علي بالعباس ، فلما طرق عليه ذعر وفرع أهله ، فلما وقف بين يدي الرّشيد قال له : وجّهت إليك بسبب بيت قلته ، ورميتك أن أشفعه بثله فامتنع القول على^٣ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، دعني حتَّى ترجع إليَّ نفسي ، فإنِّي تركت عيالي على حال من القلق عظيمة ، ونالني من الخوف ما يتجاوز الحدّ والوصف ، فانتظر هنئها ثمَّ أنسده :

جنان قد رأيناها ولم نر مثله ا ب ش را
فقال العباس بن الأحنف :

(١) وفيات الأعيان : ١٧٧/٦

(٢) وفيات الأعيان : ٢٢/٣ و ٢٢

يزيدك وجهها حسناً إذا مازدت نظراً

قال : زدني ، فقال :

إذا ما الليل سال عليه ك بالإظلم واعتakra
ودج فلم تز قمراً فأبرزها ترثها

قال له الرشيد : قد ذعنناك وأفرغنا عيالك ، وأقل الواجب أن نعطيك
ديتك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

وللرشيد :

عينا رسولي وفزت بالخبر
ردت عمداً في عينيه نظري
فانظر لها واحتكم على بصري

إن تشق عيني بها فقد سعدت
وكلما جاءني الرسول لها
خذ مقلتي يا رسول عارية

☆ ☆ ☆

ولما عزم جعفر البرمكي على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، وصفه يحيى
بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصيله إلي ، فلما وصل إليه أدركته حيرة
فسكت ، فنظر الرشيد إلى يحيى نظر منكر لاختياره ، فقال ابن سهل :
يا أمير المؤمنين ، إن من أعدل الشواهد على فراحة الملوك أن يملأ قلبه هيبة
سيده ، فقال الرشيد : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام فلقد أحسنت ، وإن
كان بديهة إنه لأحسن وأحسن ، ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق
وصف يحيى له ^(١) .

☆ ☆ ☆

(١) وفيات الأعيان : ٤١/٤

وقيل : حلف الرشيد أن لا يدخل إلى جارية له أياماً ، وكان يحبها ، فمضت
لأيام ولم تسترضه ، فقال^(١) :

صَدَّ عَنِي إِذْ رَأَيْ مُفْتَنْ
وَأَطْالَ الصَّبَرَ لِمَا أَنْ فَطَنْ
كَانَ مَلْوِيْ فَأَضْحَى مَالِكِيْ
إِنَّ هَذَا مِنْ أَعْجَبِ الزَّمْنِ

ثُمَّ أَخْضَرَ أَبَا الْعَتَاهِيَةَ ، فَقَالَ : أَجْزَهَا ، فَقَالَ :

عِزَّةُ الْحُبُّ أَرْتَهَ ذِلَّتِيْ
فِي هَوَاهُ ، وَلَهُ وَجْهَ حَسَنْ
فَلِهَذَا صَرَتْ مَلْوَكَالَةَ
وَلِهَذَا شَاعَ مَا يِيْ وَعَلَنْ

وَمِنْ شِعْرِ الرَّشِيدِ يَرْثِيْ جَارِيَتِهِ هِيلَانَةَ (أُورْدَهُ الصُّولِيْ) :

لَمَا اسْتَخَصَّ الْمَوْتُ هِيلَانَا	قَاسِيَتْ أَوجَاعاً وَأَحْزَانَا
فَمَا أَبْيَالِيْ كَيْفَ مَا كَانَا	فَارْقَتْ عِيشِيْ حِينَ فَارْقَتْهَا
فِي قَبْرِهَا فَارْقَتْ دُنْيَا نَا	كَانَتْ هِيَ الدُّنْيَا فَلِمَا ثَوَتْ
لَسْتُ أَرِيْ بَعْدِكِ إِنْسَانَا	قَدْ كَثُرَ النَّاسُ وَلَكَنِيْ
رِيحَ بَأْعَلِيْ نَجِدِ أَغْصَانَا	وَاللَّهُ لَا أَنْسَاكِ مَا حَرَّكَتْ

☆ ☆ ☆

قال الأصمي : جمع الرشيد من الأطباء أربعة : عراقياً ، ورومياً ، وهندياً ، ويونانياً . فقال : ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لاده معه ، فقال العراقي : الدواء الذي لاده معه حب الرشاد الأبيض ، وقال الهندى : الإهليج الأسود ، وقال الرومي : الماء الحار ، وقال اليوناني - وكان أطبئهم - حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة ، والماء الحار يرخي المعدة ، والإهليج

الأسود يرق المعدة ، لكن الدواء الذي لاداء معه أن تتعذر على الطعام وأنت
تشتهيه ، وتقوم عنه وأنت تشتهيه^(١) .

☆ ☆ ☆

دخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يضاحك ابنه المأمون ، فقال سهل
ـ يدعو للمأمون ـ : اللهم زده من الخيرات ، وابسط له من البركات ، حتى يكون
كل يوم من أيامه موفياً على أمسه ، مقصراً عن غده .

فقال له الرشيد : يا سهل ، من روى من الشعر أفصحه ، ومن الحديث
أوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول ، قال : يا أمير المؤمنين ، ما أعلم أحداً
سبقني إلى هذا المعنى ، قال : بلى ، سبقك أعشى هدان ، حيث يقول :

رأيتك أمس خيراً بني معاذٌ وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً كذلك تزيد سادة عبد شمس^(٢)

وقال الرشيد : لو قيل للدنيا صفي لنا نفسك ، وكانت من ينطق ،
ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
واما الناس إلا هالك وابن هالك
له عن عدو في ثياب صديق^(٣) ذو نسب في المالكين عريق

ومن توقيعات الرشيد : وقع :

إلى صاحب خراسان : داو جرحاك لا يتسع .

(١) العقد الفريد : ٣٠٧/٦

(٢) العقد الفريد : ٢٣٩/٥

(٣) العقد الفريد : ١٧٥/٣

وإلى عامله على مصر : أحذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف ،
فيأتيك مني ما لا قبل لك به ، ومن الله أكثر منه .

ووقع في قصة رجل من البرامكة : أبنته الطاعة ، وحصدته المعصية .

وإلى عامله في فارس : كُنْ مني على مثل ليلة البيات^(١) .

وفي قصة محبوس : من لجأ إلى الله نجا .

وفي قصة متظلم : لا يجاوز بك العدل ، ولا يقصّر بك دون الإنفاق .

وإلى صاحب السند ، إذ ظهرت العصبية : كلُّ من دعا إلى الجاهلية ، تعجلَ
إلى المنية .

وفي رقعة متظلم من عامله على الأهواز ، وكان بالمتظلم عارفاً : قد ولِّنك
موضعه ، فتنكب سيرته^(٢) .

☆ ☆ ☆

وهم الرشيد بالإقامة بأنطاكية^(٣) ، وكره أهلها ذلك ، فقال شيخُ منهم ،
وصدقةً : يا أمير المؤمنين ، ليست من بلادك ، ولا بلادِ مثلك ، لأنَّ الطيب
الفاخر يتغَيَّر فيها حتَّى لا ينتفع منه بكثير شيء ، والسلاح يصادفها^(٤)

(١) أي منتبهاً يقطأ من غير نوم .

(٢) العقد الفريد : ٢١٢/٤

(٣) أنطاكية : قصبة العاصمة من الشعور الشامي ، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ، موصوفة
بالنزاهة والحسن وطيب الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثرة الفواكه ، وسعة الخير ، [معجم البلدان :
٢٦٧/١] ، وهي اليوم عاصمة لواء الاسكندرية .

(٤) لكثرة الرطوبة الجوية .

ولو كان من قلعة الهند^(١) ، ومن طبع الين ، ومطرها رِيَا أقام شهرين ، ليس
فيه سكون ، فلم يَقِمْ بها^(٢)

☆ ☆ ☆

وقال الرشيد للعباس بن الحسن : أراك تكثر من ذكر يَنْبُغِي^(٣) وصفتها ،
فصفها لي وأوجز ، قال : بكلام أو شعر ؟ قال الرشيد : بكلام وشعر ، فقال
العباس بن الحسن : جِدَتْهَا في أصل عِنْقَهَا ، وعِنْقُهَا مسْرَحٌ شَانِهَا ، فتبسم
الرشيد ، فقال العباس :

يَا وَادِيَ الْقَصْرِ نَعِمُ الْقَصْرُ وَالوَادِي
مِنْ مَنْزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شَئْتَ أَوْ بَادِي
تَرِي قَرَاقِيرَهُ وَالْعِيْسَى وَاقْفَأْتَهُ^(٤)
وَالضَّبَّ وَالنُّونَ وَالْمَلَاحَ وَالْحَادِي

☆ ☆ ☆

اجتاز هارون الرشيد ببلاد منبع و معه عبد الملك بن صالح ، وكان أفعى
ولد العباس في عصره ، فنظر إلى قصر مشيد ، ويستان معتر بالأشجار كثير
الثار ، فقال : من هذا ؟ فقال : هو لك ولـي يا أمير المؤمنين . قال : وكيف
بناء هذا القصر ؟ قال : دون منازل أهلي ، و فوق منازل الناس ، قال : فكيف

(١) قلعة عظيمة ببلدة تُسمى (كَلَه) ، وهي أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفي هذه القلعة تُضرب السُّيُوفُ القلعية ، [معجم البلدان : ٢٨٩/٤] .

(٢) كتاب الحيوان : ١٤٢/٣

(٣) ميناء المدينة المنورة على ساحل البحر الأحمر ، « وفيها عيون عذاب غزيرة .. وهي قرية غُباء .. ينبع حصن به خيل وماء وزرع .. » ، [معجم البلدان : ٤٤٩/٥] .

(٤) الطبرى : ٣٥٦/٨

فكيف ليلاً ؟ قال : سَحْرَ كَلَهٖ^(١) .

☆ ☆ ☆

دخلت امرأة على الرّشيد وعنه جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أقرَ الله عينك وفرحك بما آتاك ، وأتّم سعدك ، لقد حكمت فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيّتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، من قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم ، وسلبت نوالهم ، فقال : أمّا الرّجال فقد مضى أمر الله ، ونفذ فيهم قدره ، وأمّا المال فرددود إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرؤن ما قالـت المرأة ؟ قالوا : مانراها قالـت إلا خيراً ، قال : ما أظنّكم فهمتم ذلك ، أمّا قوله أقرَ الله عينك ، فتعني أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأمّا قوله وفرّحـك بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤/٦] ، وأمّا قوله وأتّم الله سعدك ، فأخذته من قول الشاعر :

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بِـ **تَرَقُّبٍ زَوْلًا إِذَا قِيَـ** **لَ تَمَّ**

وَأَمَّا قَوْلُهَا لَقَدْ حَكِتْ فَقْسَطْتُ ، فَأَخَذْتَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا
الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الحنـ : ١٥/٧٢] . فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ^(٢)

☆ ☆ ☆

(١) العقد الفريد : ١٢٩/٢ ، وفيات الأعيان : ٣٠/٦

(٢) المستطرف في كلّ فنٍ مستظرف : ٢٠٣/٢ ، طبعة : مصطفى البابي الحلبي .

إيمان الرّشيد

« مَرَأَيْتُ أَغْزَرَ دِمْعًا عِنْدَ الذِّكْرِ مِنْ ثَلَاثَةٍ :
فَضِيلَ بْنَ عِيَاضَ ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ
الْزَّاهِدَ ، وَهَارُونَ الرَّشِيدَ »^(١) .
حجَّ الرَّشِيدِ فِي سَنِ حُكْمِهِ فِي السَّنَوَاتِ :
٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ،
٨٨ ، بَعْدَ الْمَئَةِ لِلْهِجْرَةِ .

لَا لَقِيَ هَارُونَ الرَّشِيدَ فَضِيلَ بْنَ عِيَاضَ ، قَالَ لَهُ الْفَضِيلُ : يَا حَسْنَ الْوَجْهِ ، أَنْتَ الْمَسْؤُلُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، حَدَّثَنَا لِيَثُ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ وَتَقْطَعُتْ بِهِمْ أَلْأَسْبَابُ ﴾^(٢) ، قَالَ الْوَصْلُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا . قَالَ : فَجَعَلَ هَارُونَ بَيْكِي وَيَشْهُقُ^(٣) .

حَدَّثَ الأَصْعَيِّ عَنْ شَبَّابِ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ : كَنَا فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، فَجَاءَ أَعْرَابِيًّا فِي يَوْمٍ صَائِفٍ شَدِيدِ الْحَرَّ ، وَمَعَهُ جَارِيَّةٌ سُودَاءُ وَصَحِيفَةٌ ، فَقَالَ : أَفِيمُ كَاتِبٍ ؟ قَلَّا نَعَمْ ؛ وَحَضَرَ غَدَّافُنَا فَقَلَّا نَعَمْ ؛ لَوْدَخَلْتَ وَأَصْبَتَ مِنَ الطَّعَامِ ! قَالَ : إِنِّي صَائِمٌ ، قَلَّا نَعَمْ ؛ فِي الْحَرِّ وَشِدَّتِهِ وَجَفَاءِ الْبَادِيَّةِ ! فَقَالَ : إِنَّ الدُّنْيَا كَانَتْ وَلَمْ أَكُنْ

(١) تاریخ بغداد : ٨/١٤ ، ص : ٨ ، والمول نتصور بن عمار حدث به مجبي بن أیوب العابد .

البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ ، وتاریخ الخلفاء : ٢٨٥

(٢) ﴿ إِذْ تَبَرُّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقْطَعُتْ بِهِمْ أَلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : ١١٦/٢] .

(٣) تاریخ بغداد : ٨/١٤

فيها ، وستكون ولا أكون فيها ، ولا أحب أن أغبن^(١) أيامي ، ثم نبذ إلينا الصحيفة ، وقال : اكتب ولا تزيدن على ما أقول حرفًا :

هذا ما أعتقد عبد الله بن عقيل الكلبي ، أعتقد جارياً له سوداء يقال لها لؤلؤة ، ابتغاء وجه الله تعالى وجواز العقبة^(٢) ، وإنه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولاء ، المِنَّةُ لله عليها وعليه واحدة .

قال الأصمي : فحدثت الرشيد ، فأمر أن يُعتق عنده ألف نسمة أو مئة نسمة ، ويكتب لهم هذا الكتاب^(٣) .

كان حجّ الرشيد عام ١٨٨ هـ آخر حجّاته^(٤) ، وفيه رأى الفضيل ، ومن قول الفضيل بعد لقائه مع الرشيد : لو أنّ لي دعوة مستجابة لجعلتها للإمام ، لأنّ به صلاح الرعية ، فإذا صلحّ أمنت العباد والبلاد^(٥) .

وفي طريق عودة الرشيد إلى بغداد ، رأى في الكوفة (بهلولاً) الجنون^(٦) ، فنصح بهلول الرشيد وحاول الربيع إسكاته ، فقال له الرشيد : قُل يا بهلول ، فقال :

(١) غبن رأيه : غبناً وغبانة : ضعف ، [اللسان : غبن] .

(٢) العقبة : واحدة عقفات الجبال ، والعقبة : طريق في الجبل وعتر ، والعقبة : الجبل الطويل ، [اللسان : عقب] ، وفي كتاب الله المجيد : ﴿فَلَا أَقْتَحَمُ الْعَقْبَةَ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْعَقْبَةُ فَكُرَّبَةٌ ..﴾ [البلد : ١٢ و ١٢ و ١٢] ، والمعنى : هلاً جاهد نفسه في تحطّي العقبة ، بالقيام بأعمال البرّ .

(٣) عيون الأخبار : ٣٦٧/٢

(٤) مروج الذهب : ٢٥٣/٣

(٥) تاريخ بغداد : ١٩٨/١٤

(٦) توفي بهلول الجنون سنة ١٨٣ هـ ، واسم أبيه عمرو وكنيته أبو وهب الصيرفي الكوفي ، تشوّش عقله وكان يصحو في وقت ويختلط في آخر ، وهو معدود من عقلاه الجنانيين . النجوم الراherة : ١١٠/٢ . ومن الملاحظ أن الرشيد قابل بهلولاً هذا قبل ١٨٣ هـ ، وليس عند عودته من حجّ عام ١٨٨ هـ .

هُبْ أَنْ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طُرًّا
وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ فَكَانَ مَاذَا !
أَلِيسْ غَدًا مَصِيرُكَ جَوْفَ قَبْرٍ
وَيَحْثُو عَلَيْكَ التَّرَابَ هَذَا ثُمَّ هَذَا ؟

قَالَ الرَّشِيدُ : أَجَدْتِ يَا بَهْلَولَ ، أَفْغِيْرِهِ ؟

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مِنْ رِزْقِهِ اللَّهِ مَالًا وَجَمَالًا ، فَعَفَّ فِي جَمَالِهِ ،
وَوَاسِيٌّ فِي مَالِهِ ، كَتَبَ فِي دِيوَانِ اللَّهِ مِنَ الْأَبْرَارِ .

فَظْنَ الرَّشِيدَ أَنَّهُ يَرِيدُ شَيْئًا ، فَقَالَ : إِنَّا أَمْرَنَا بِقَضَاءِ دَيْنِكَ .

فَقَالَ : لَا تَفْعُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا يَقْضِي دَيْنَ بَدَيْنَ ، أَرْدَدَ الْحَقَّ إِلَى أَهْلِهِ ،
وَاقْضِي دِينَ نَفْسِكَ مِنْ نَفْسِكَ .

قَالَ الرَّشِيدُ : إِنَّا أَمْرَنَا أَنْ يَجْرِي عَلَيْكَ رِزْقٌ تَقْتَاتُ بِهِ ، قَالَ : لَا تَفْعُلْ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهُ سَبَحَانَهُ لَا يَعْطِيْكَ وَيَنْسَانِي ، وَهَا أَنَا قَدْ عَشْتُ عُمْرًا لَمْ تَجْرِ
عَلَيَّ رِزْقًا ، انْصَرَفْ لَا حَاجَةَ لِي فِي جَرَائِيكَ .

قَالَ الرَّشِيدُ : هَذِهِ أَلْفُ دِينَارٍ خَذْهَا .

قَالَ : أَرْدَدَهَا عَلَى أَصْحَابِهَا فَهُوَ خَيْرُ لَكَ ، وَمَا أَصْنَعُ أَنَا بِهَا ؟ انْصَرَفْ عَنِي
فَقَدْ آذَيْتَنِي .

فَانْصَرَفَ عَنْهُ الرَّشِيدُ وَقَدْ تَصَاغَرَتْ عَنْهُ الدُّنْيَا^(۱) .

قَالَ الْكَسَائِيُّ : صَلَيْتُ يَوْمًا بِالرَّشِيدِ ، فَأَعْجَبَتِي قِرَاءَتِي ، فَغَلَطْتُ غَلْطَةً
مَا غَلَطْهَا صَبِيٌّ ، أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ « لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ » ، فَقَلَتْ : « لَعْلَهُمْ
تَرْجِعُونَ » ، فَمَا تَجَاهَسَ الرَّشِيدُ أَنْ يَرْدِهَا ، فَلَمَّا سَلَّمَتْ قَالَ : أَيُّ لَغَةٍ هَذِهِ ؟
فَقَلَتْ : إِنَّ الْجَوَادَ قَدْ يَعْثِرُ . فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَمَا هَذَا فَنَعَمْ^(۲) .

(۱) الْبَدَائِيْةُ وَالنَّهَايَةُ : ۲۰۰/۱۰

(۲) الْبَدَائِيْةُ وَالنَّهَايَةُ : ۲۰۲/۱۰

كان الرّشيد قد رَتَب لسفيان بن عيينة ألف درهم كلّ شهر ، فكان سفيان يدعو للرّشيد في سجوده ، ويقول : اللّهم إِنَّه كفاني المؤونة ، وفرّغني للعبادة فاكافه أمر آخرته ، ولما مات سفيان وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه : « قد تقدّم الخصم والمدعى عليه بالأثر ، والحاكم الحكيم العدل الذي لا يحور ولا يحتاج إلى بُيُّنة » فحملت إلى الرّشيد ، فلما قرأها بكى يومه ذاك ، وبقي أياً ما يتبين الأسى في وجهه^(١) .

قال بعض أهل العلم للرّشيد : يا أمير المؤمنين ، انظر هؤلاء الّذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونها فأكرمهم بعَزْ سلطانك .

قال الرّشيد : أولست كذلك ، أنا والله كذلك أحبهما ، وأحب من يحبهما وأُعقاب من يبغضهما^(٢) .

قال ابن السَّمَاك^(٣) : إنَّ الله لم يجعل أحداً فوقك ، فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك ، فقال الرّشيد : لئن كنت أقصرت في الكلام ، لقد أبلغت الموعظة^(٤) .

وقال الفضيل بن عياض : إنَّ الله لم يجعل أحداً فوقك في الدُّنيا ، فاجهد نفسك ألا يكون أحداً منهم فوقك في الآخرة ، فاكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربّك^(٥) .

(١) البداية والنهاية : ٢٠٥/١٠

(٢) البداية والنهاية : ٢٠٥/١٠

(٣) ابن السَّمَاك : هو محمد بن صبيح أبو العباس المذكور الواعظ . « النُّجوم الزَّاهرة : ١١١/٢ . من كلامه : « الدُّنيا كُلُّها قليل ، والذُّي بقي منها في جنب الماضي قليل ، والذُّي لك من الباقي قليل ، ولم يبق من قليلك إلا القليل » « النُّجوم الزَّاهرة : ١١٢/٢

(٤) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠

(٥) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠

قال ابن قتيبة : حدثنا الرّياشي (العباس بن الفرج) : سمعت الأصمي يقول : دخلت على الرّشيد وهو يقلّم أظفاره يوم الجمعة ، فقلت له في ذلك ، فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة ، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتخشى الفقر ؟ قال : يا أصمي ، وهل أحد أخشا للفقر مني ؟ !^(١) .

روى ابن عساكر عن إبراهيم المهدى قال : كنت يوماً عند الرّشيد ، فدعا طباخه فقال : أعندي في الطّعام لحم جزور ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضره مع الطّعام .

فلا وضع بين يديه ، أخذ لقمة منه فوضعها في فيه ، فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرّشيد مضغ اللّقمة ، وأقبل عليه فقال : مِمْ تضحك ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين ، ذكرت كلاماً بيّني وبين جاريتي البارحة . فقال له : بحقي عليك لما أخبرتني .

قال جعفر : بكم تقول إن هذا الطّعام من لحم الجزر يقوم عليك ؟ قال الرّشيد : بأربعة دراهم ، قال جعفر : لا والله يا أمير المؤمنين ، بل بأربع مئة ألف درهم ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بعده طويلة ، فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يدخلون المطبخ من لحم الجزر ، فنحن نتحرّك كلّ يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأنّا لانشتري من السوق لحم جزور ، فصرف في لحم الجزر من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربع مئة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلاً هذا اليوم ، قال جعفر : فضحتك لأنّ أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللّقمة ، فهي على أمير المؤمنين بأربع مئة ألف .

(١) البداية والنهاية : ٢٦٦/١٠

قال جعفر : فبكى الرشيد بكاء شديداً ، وأمر برفع السماط من بين يديه ، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكت والله يا هارون ، ولم يزل يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلة الظهر ، فخرج فصلٌ بالناس ، ثم رجع يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلة العصر ، وقد أمر بآلفي ألف تصرف إلى فقراء المحرمين ، في كل حرم ألف صدقة ، وأمر بآلفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي ، وبآلف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة ، ثم خرج إلى صلاة العصر ، ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين باكياً في هذا اليوم ؟ فذكر أمره ، وما صرف من المال الجزييل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة ، فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ماتذبحونه من الجزار يفسد أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس ، فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسره الله عليك من الصدقة ، وبما رزقك من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن ٤٦/٥٥] ، فأمر له الرشيد بأربع مئة ألف ، ثم استدعى ب الطعام فأكل منه ، فكان غذاؤه في هذا اليوم عشاء^(١) .

حدث إبراهيم بن المهدى قال : استزررت الرشيد بالرقة ، فزارني ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البارد رأى فيها قرب إليه منها جام قريص مثل قريص السمك^(٢) ، فاستصغر القطع ، وقال : لم صغّر طباشك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السمك ، قال : فيشبهه أن يكون في هذا الجام مئة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مئة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف

(١) البداية والنهاية : ٢١٦/١٠

(٢) المقرص : المقطع ، والقطعة الصغيرة جداً : قرص ، [اللسان : قرص] .

درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن يحضره ألف درهم ، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به ، وقال : أرجو أن يكون كفارة تصرفك في إتفاقك على جام سك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخي ، ثم انظر أول سائل تراه فادفعه إليه ، قال إبراهيم : وكان شراء الجام على الرشيد بمئتين وسبعين ديناراً ، فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليبتاع الجام من يصير إليه ، وفطن الرشيد فقال له : يا غلام إذا دفعته إلى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احضر أن تبيعه بأقل من مئتي دينار فإنه خير منها ، ففعل الخادم ذلك ، فوالله ما ممكن خادمي أن يخلصه من السائل إلا بمئتي دينار^(١) .

ويروي بعضهم هذه الحادثة من حياة الرشيد مبتورة ناقصة ، ليثبت ما في نفسه من حقد تجاه الرشيد ، يرويها كدليل على إسراف وترف الرشيد ، فيذكر أنه قد قدم للرشيد - بينما كان في الرقة - طبقاً من السنة السك كلف أكثر من ألف درهم ، ويكتفي بهذا . لأنَّ تمام الحادثة يفسد عليه ما في نفسه من حقد على هذا التاريخ الماجد ، فلا يذكر غضب الرشيد من أشرف على تحضير هذا الطبق ، وأنَّه نبهه على إسرافه ، وأنَّه أحضر ألف درهم تصدق بها كفارة ذلك ، فاعتبر الرشيد أن تحضير الطبق كله ذنب يحتاج إلى كفارة ، ثم تصدق بالطبق كله !!

بينما كان الرشيد يطوف في البيت الحرام ، إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أريد أن أكملك بكلام فيه غلظة ، فقال الرشيد : لا ، ولا نعمت عين ، قد بعث الله من هو خير منك ، إلى من هو شرّ مني ، فأمره أن يقول له قوله لينا^(٢) .

(١) مروج الذهب : ٣٧٣/٣

(٢) البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ ، وهو يعني إرسال موسى عليه السلام بالقول اللين إلى فرعون .

وعن شعيب بن حرب المدائني قال : بينما أنا في طريق مكة إذ رأيت هارون الرشيد ، فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر والنهي ، فقالت لي : لاتفعل فإن هذا رجل جبار ، ومتن أمرته ضرب عنقك ، فقلت لنفسي : لابد من ذلك ، فلما دنا مني صحت :

يا هارون ! قد أتعبت الأمة وأتعبت البهائم .. فأمر الرشيد به ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين ، فقال : ثكلتك أمك من أنت ؟ فقلت : من الأنبار^(١) ، فقال : ما حملك على أن دعوتي باسمي ؟ قال شعيب : فورد على قلبي كلمة ماخطرت لي قطعاً على بال ، فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا الله يا رحمن ، أفلأ أدعوك باسمك ؟ وما ينكر من دعائي باسمك وقد رأيت الله تعالى سمعي في كتابه أحب الخلق إليه : يا آدم ، يا نوح ، يا هود ، يا صالح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى ، يا محمد ، وكفى بأبغض الخلق إليه فقال : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ، فقال الرشيد : أخرجوه أخرجوه ، فأخرجت^(٢) .

قال له ابن السمك يوماً : إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكمم ، وتنزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة قبل ، ولا عترة تقال ، ولا يقبل فداء بمال ، فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته ، فقال يحيى بن خالد له : يا ابن السمك ! لقد شقت على أمير المؤمنين الليلة ، فقام فخرج من عنده وهو يبكي^(٣) .

(١) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، يسمى بها الفرس « فيروز سابور » ، والأنبار أيضاً مدينة قرب مدينة بلخ . « معجم البلدان : ٢٥٧/١ » . وفي وفيات الأعيان ٤٧١/٢ : « من الأباء » ، أي من أبناء خراسان ، وهو الأصح .

(٢) وفيات الأعيان : ٤٧١/١ ، والبداية والنهاية : ٢١٧/١٠ .

(٣) البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ .

قال الفضيل : استدعاني الرّشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها ، ثم استدعى أبي العتاهية فقال له : صف لنا مانحن فيه من العيش والنعيم فقال :

في ظلٍ شاهقة القصور ت لدى الرّواح إلى البكوير عن ضيق حشارة الصُّدور ما كانت إلا في غرور	عِيشْ مَا بِدَالِك سالاً تَسْعِي عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهِي فَإِذَا النُّفُوسْ تَقْعُدْتِ فَهَنَاكَ تَعْلَمْ مَوْقِنًا
--	--

قال : فبكى الرّشيد بكاء شديداً ، فقال له الفضل بن يحيى : دعاء أمير المؤمنين تسرّه فأحزنته ؟ فقال له الرّشيد : دعه فإنه رأنا في عمى فكرّة أن يزيدنا عمى .

وقال الرّشيد لأبي العتاهية : عظني بأبيات من الشّعر وأوجز فقال :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ولو تُتَعَّتَ بالحجّابِ والحرسِ وَأَعْلَمْ بِأَنَّ سهَامَ الموتِ صَائِبَةَ لِكُلِّ مَدْرَعٍ مِنْهَا وَمَتْرِسٍ	تَرْجُو النُّجَاةَ وَلَمْ تَسلِكْ مَسَالِكَهَا فَخَرَّ الرّشيد مغشيّاً عليه ^(١) .
--	---

حجّ الرّشيد ماشياً ، كان يشي على اللّبود ، كانت تبسّط له من منزلة إلى منزلة ، وسبب حجه ماشياً أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام ، فقال له : يا هارون ! إنّ هذا الأمر صائر إليك ، فحج ماشياً واغز ، ووسع على أهل الحرمين . فأنفق فيهم الرّشيد أموالاً عظيمة ، ولم يحج خليفة قبله ولا بعده ، ماشياً رحمة الله^(٢) ..

(١) البداية والنهاية : ٢١٨/١٠

(٢) النجوم الزاهرة : ٦٠/٢

دخل إلى الرشيد ابن السمك الوعاظ فذكره ثم وعظه حتى بكى بكاء شديداً ،
فقال ابن السمك : لتواضعك في شرفك ، أحب إلينا من شرفك ^(١) .

وعظه أيضاً فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لك بين يدي الله تعالى مقاماً ،
وإن لك من مقامك منصرفأ ، فانظر إلى أين منصرفك ؟ إلى الجنة أو إلى
النار ، فبكى الرشيد حتى قال بعض خواصه : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال : دعه
فلimit حتى يقال : خليفة الله مات من مخافة الله تعالى ^(٢) .

قال الفضيل بن عياض للرشيد : حساب الخلق كلهم عليك ، وبكى الرشيد
وشهق ، ثم بكى الفضيل حتى جاء الخدم فحملوهما ^(٣) .

وفي أول لقاء بين الفضيل والرشيد ، دخل الفضيل في مكة على الرشيد ،
فسأل الفضيل سفيان بن عيينة : يا سفيان أيهم أمير المؤمنين ؟ قلت : هذا ،
قال : أنت هو يا حسن الوجه الذي تقلدت أمر هذه الأمة في عنقك ؟ لقد
تقلدت أمراً عظيماً ، قال : وبكى هارون ، وبكى الفضيل ، ثم أتي لكل واحد من
علماء مكة ببدرة ، فوضعت بين أيديهم ، فحمل كلّ منهم بدرته ، إلا الفضيل .
فقال له هارون : يا أبا علي لا تستح أن تأخذ منا ، خذها فأعطها مديوناً ،
وأشبع بها جائعاً ، واكس بها عرياناً ، أو فرج بها عن مكروب ، قال : ولا هذا ،
أعفني منه يا أمير المؤمنين ، قال سفيان : فلما خرجنا قلت : يا أبا علي أخطأت
اليوم ، قال : وكيف ؟ قلت : هذا خطأ إذ لم تقبلها ، أفلأ أخذتها فقضيت عن
مديون ، وأشبعتك جائعاً ، قال سفيان : فأخذ أطراف لحيتي فقال : يا أبا محمد
أنت فقيه البلد ، والمنظور إليه تغلط هذا الغلط ، لو طابت لأولئك طابت لي ،
قال سفيان : فصغرت عند ذلك نفسي ^(٤) .

(١) النجوم الظاهرة : ٦٧/٢

(٢) النجوم الظاهرة : ١١١/٢

(٣) النجوم الظاهرة : ١٢١/٢

(٤) تاريخ الموصى : ٢٩٢

قال الإمام مالك بن أنس : شاورني هارون الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان وكل مصيب .

ووعلظ أبو العاتية الرشيد بهذه الآيات :

أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَمِيعُ
رَدْنُّوْ وَزُّزُوكُ
تَوْبَةً مِنْهُ نَصْوُ
إِنَّا هُنَّ قُرُوْخُ !
الْخَطَايَا لَا تَفْرُوْخُ
جَسْداً مَا فِيهِ رُوْخُ
عَلَمُ الْمَوْتِ يَلْوُخُ
مَوْتٌ يَغْدُو وَيَرُوْخُ
يَا غَبْوَقَ^(١) وَصَبْوَخُ
بَحْنَ عَلَيْهِنَّ الْمُسْوَخُ
رِلَهِ يَوْمَ نَطْوَخُ
كَيْنَ إِنْ كُنْتَ تَنْوَخُ
رَتَ مَا عَمَرَ نُوْخُ !

خَانَكَ الْطَّرْفُ الطَّمْوَخُ
لَدَوْاعِي الْخَيْرِ وَالشُّ
هَلْ مَطْلُوبٌ بِذَنْبٍ
كَيْفَ إِصْلَاحٌ قُلُوبُ
أَحْسَنَ اللَّهُ بَنَّا أَنَّ
سِيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا
بَيْنَ عَيْنِي كُلَّ حَيٍّ
كُلُّنَا فِي غَفْلَةٍ وَال
لِبْنِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْ
رُحْنَ فِي السُّوْشِي وَأَصَ
كُلُّ نَطْلَاحٍ - مِنَ الدُّنْ
نُخْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسَ
لَتَمَ وَتَنَ وَإِنْ عَمَّ

فبكى الرشيد وانتصب .

قال ابن الجوزي : قال الرشيد لشيبان : عظني ، فقال : لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمان ، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف . فقال الرشيد : فسر لي هذا ، قال : من يقول لك : أنت

(١) العَبْوَقُ : الشُّرُبُ بالعشي .

مسؤول عن الرَّعِيَّةِ فاتقُ اللَّهِ أَنْصَحْ لَكَ مَنْ يَقُولُ : أَنْتَ أَهْلُ بَيْتٍ مَغْفُورُ لَكَ ،
وَأَنْتَ قَرَابَةُ نَبِيِّكُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَبَكَ الرَّشِيدُ حَتَّى رَحْمَهُ مَنْ حَوْلَهُ^(١) .

كتب ابن السَّمَاكَ إِلَى الرَّشِيدِ يَعْزِيهِ بَابِنِ لَهُ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ أَسْطَعْتَ أَنْ
يَكُونَ شَكْرُكَ لِلَّهِ حِينَ قَبْضَهُ أَكْثَرُ مِنْ شَكْرِكَ لَهُ حِينَ وَهْبَهُ ، فَإِنَّهُ حِينَ قَبْضَهُ
أَحْرَزَ لَكَ هَبْتَهُ ، وَلَوْ سَلَمَ لَمْ تَسْلُمْ مِنْ فَتْنَتِهِ ، أَرَأَيْتَ حَزْنَكَ عَلَى ذَهَابِهِ وَتَلَهُفِكَ
لِغَرَامِهِ ! أَرْضَيْتَ الدَّارَ لِنَفْسِكَ فَتَرَضَاهَا لَابْنِكَ ! أَمَا هُوَ فَقْدٌ خَلْصٌ مِنَ الْكَدْرِ ،
وَبَقِيَتْ أَنْتَ مَعْلَقاً بِالْخَطْرِ ، وَاعْلَمَ أَنَّ الْمَصِيبَةَ مَصِيبَتَانِ إِنْ جَزَعْتَ ، وَإِنَّمَا هِيَ
وَاحِدَةٌ إِنْ صَرَتْ ، فَلَا تَجْمِعُ الْأَمْرَيْنِ عَلَى نَفْسِكَ^(٢) .

وَقَدْمُ عَلَى الرَّشِيدِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، يَقَالُ لَهُ نَفِيعٌ^(٣) - وَكَانَ عَرِيَّضاً^(٤) -

قَالَ : فَحَضَرَ بَابَ الرَّشِيدِ وَمَعَهُ عَبْدُ الْعَزِيزَ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَحَضَرَ
مُوسَى بْنُ جَعْفَرَ عَلَى حَمَارِهِ ، فَتَلَقَّاهُ الْحَاجِبُ بِالْبَرِّ وَالْإِكْرَامِ ، فَأَعْظَمَهُ مِنْ كَانَ
هُنَاكَ ، وَعَجَّلَ لَهُ إِلَيْذِنَ ، فَقَالَ نَفِيعُ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ : مَنْ هَذَا الشَّيْخُ ؟ قَالَ :
أَوْمَأْتَعْرَفُهُ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : هَذَا شَيْخُ آلِ أَبِي طَالِبٍ ، هَذَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرَ ،
قَالَ : مَا رَأَيْتَ أَعْجَزَ مِنْ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ ! يَفْعَلُونَ هَذَا بِرَجُلٍ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيلَهُمْ عَنِ
السَّرِيرِ ! أَمَا لَئِنْ خَرَجَ لِأَسْوَئَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنَّ هُؤُلَاءِ
أَهْلَ بَيْتٍ قَلَّمَا تَعْرَضُ لَهُمْ أَحَدٌ فِي خُطَابٍ إِلَّا وَسَمَوَهُ بِالْجَوَابِ يَمْهُمْ يَبْقَى عَارِهَا عَلَيْهِ

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٤

(٢) عيون الأخبار : ٥٤/٣

(٣) نَفِيعُ هَذَا أَنْصَارِيُّ وَلَيْسَ صَحَابِيُّ ، نَفِيعُ الصَّحَابِيُّ اسْمُهُ : (أَبُو بَكْرَةَ) نَفِيعُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ
كَلْدَةَ ، وَكَانَ هَذَا يَقُولُ : أَنَا مِنْ إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَأَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّ أَبِي النَّاسِ
إِلَّا أَنْ يَنْسُبُونِي ، فَأَنَا نَفِيعُ بْنُ مَسْرُوحٍ ، وَكَانَ مِنْ فَضْلَاءِ الصَّحَابَةِ وَصَالِحِيهِمْ ، [أَسْدُ الْفَاغِيَةِ] :

[٢٨/٦]

(٤) تَعْرَضَ لِفَلَانَ : تَصْدَى لَهُ ، يَقَالُ : تَعْرَضَتْ أَسْلَمُ . وَفَلَانَ «عَرْضَةً» لِلنَّاسِ : أَيْ لَا يَرَالُونَ
يَقْعُونَ فِيهِ .

مدى الدهر^(١) . والحادثة دليل على إكرام الرّشيد لآل البيت بشخص موسى بن جعفر .

☆ ☆ ☆

كان ابن أبي مريم هو الذي يضحك الرّشيد ، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها ، وكان الرّشيد قد أنزله في قصره .. نبهه الرّشيد يوماً إلى صلاة الصّبح ، فقام فتوضاً ، ثم أدرك الرّشيد وهو يقرأ : ﴿ وَمَا لَيْسَ لِأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [يس : ٢٢/٢٦] ، فقال ابن أبي مريم : لا أدرى والله ، فضحك الرّشيد وقطع الصّلاة ، ثم أقبل عليه وقال : ويحك اجتنب الصّلاة والقرآن وقل فيها عدا ذلك^(٢) .

قال أبو معاوية الضّرير محمد بن حازم : ما ذكرت عند الرّشيد حدثاً إلا قال صلى الله وسلم على سيد^(٣) ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبل الشّرى ، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء علىي وأنا لا أراه ، ثم قال : يا أبو معاوية أتدري من يصب عليك الماء ؟ قلت : لا ، قال : يصب عليك أمير المؤمنين ، قال أبو معاوية : فدعوت له ، فقال : إنّا أردت تعظيم العلم^(٤) .

دخل على الرّشيد ابن السمّاك يوماً فاستسقى الرّشيد ، فأتي بقلة فيها ماء مبرد ، فقال لابن السمّاك : عطني ، فقال : يا أمير المؤمنين ! بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو متعتها ؟ قال : بنصف ملكي ، فقال : اشرب هنيئاً ، فلما شرب

(١) أمالى المرتضى : ٢٧٥/١

(٢) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠

(٣) أمر الرّشيد أن يكتب في صدر الرسائل : الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الثناء على الله عزّ وجلّ . [البداية والنهاية : ١٧٧/١٠] .

(٤) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠ ، وتاريخ بغداد : ٢٩٣/١٤ ، سير أعلام النّبلاء : ٢٨٧/٩

قال : أرأيت لو مَنِعْت خروجها من بدنك ، بكم كنت تشتري ذلك ؟ قال : بنصف ملكي الآخر ، فقال : إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء ، وقيمة نصفه الآخر بولة ، خليق أن لا يتنافس فيه ، فبكي الرشيد^(١) . قال : يا بن السمك ، ما أحسن ما بلغني عنك ! قال : يا أمير المؤمنين ، إن لي عيوباً لو اطلع الناس منها على عيبٍ واحدٍ ما ثبتت لي في قلب أحدٍ مودةً ، وإنني لخائف في الكلام الفتنة ، وفي السرّ الغرّة ، وإنني لخائف على نفسى من قلة خوفي عليها^(٢) .

وأخرج الصولي عن إسحاق الهاشمي قال : كنا عند الرشيد ، فقال : بلغني أن العامة يظنون في بعض علي بن أبي طالب ، ووالله ما أحب أحداً حبي له ، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضاً لنا ، وطعننا علينا ، وسعينا في فساد ملكتنا بعد أخذنا بثأرهم ، ومساهمتنا إياهم وما حويته ، حتى إنهم لأميل إلى بني أمية منهم إلينا ، فأماماً ولده لصلبه فهم سادة الأهل ، والسابقون إلى الفضل ، ولقد حدثني أبي المهدى عن أبيه المنصور عن ابن عباس أنه سمع النبي صلّى الله عليه وآله وسلم يقول في الحسن والحسين : « من أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أغضبني » ، وسمعه يقول : « فاطمة سيدة نساء العالمين ، غير مريم بنت عمران وأسيمة ابنة مزاحم »^(٣) .

قال الرياشي : قال الأصمى : دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتاب ودموعه تنحدر على خديه ، فظللت قائماً حتى سكن ، وكان منه التفاتة فقال : اجلس يا أصمى ، أرأيت ما كان ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل ، وهو :

(١) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠ ، تاريخ بغداد : ٨١٤ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

(٢) العقد الفريد : ١٦٤/٣

(٣) تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

منه غَدَاءَ مُضِي دسَاكِرِه
 فتبرأَتْ منه عشائِرِه
 وبين خَلَّتْ منه منابرِه
 صاروا مصِيرًا أنت صائِرِه
 والمستعِدُ لِمَن يفَسِّرُه
 دُنْيَا فِيَانَ الْمَوْتَ آخِرِه

هل أنت مَعْتَبِرٌ بْنَ خَلِيلَتْ
 وَبْنَ أَذْلَّ الْمَوْتَ مَصْرَعَه
 وَبْنَ خَلَّتْ منه أَسِرَّتْه
 أين الْمَلْوَكُ وأين غَيْرُهُمْ؟
 يا مُؤْثِرُ الدُّنْيَا بِلِذْتِه
 نَلْ مَابِدَا لَكَ أَن تَنالَ مِنَ الْا

ثم قال الرَّشِيد : كَأَنِي وَالله أَخاطِبُ بِذَلِكَ دُونَ النَّاسِ ، فَلَمْ يَلْبِسْ بَعْدَ إِلَّا
 يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ .

وما رواه الرَّشِيدُ مِنَ الْحَدِيثِ : قَالَ الصَّوْلِيُّ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ
 خَلْفٍ ، حَدَّثَنِي جَدِيُّ الْحَصِينِ بْنُ سَلَيْمَانَ الْضَّبِيِّ ، سَمِعْتُ الرَّشِيدَ يَخْطُبُ فَقَالَ فِي
 خُطْبَتِه : حَدَّثَنِي مَبَارِكُ بْنُ فَضَالَةَ عَنْ الْحَسْنِ عَنْ أَنْسٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 « اتَّقُوا النَّارَ وَلَا بِشِقٍّ تَرْجِعُوا » ، وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَيرٍ عَنْ
 أَبْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ طَالِبٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَظِفُوا أَفْوَاهَكُمْ فَإِنَّهَا
 طَرِيقُ الْقُرْآنِ » ^(١) .



(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٧

مَجَالِسُ الرَّشِيد

« ويحك اجتنب الصلاة والقرآن
وقل فيها عدا ذلك »^(١).

كان قصر الرّشيد : « مرتع الحكماء والعلماء ، وسوق البلاغة والشعر والتّاريخ والفقه والطّب والموسيقا والفنون النّافعة ، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في سجيّته النّبل والكرم ، فأجاز العلماء في كل فن جائزات سخية نبيلة » ، لقد كان عصره : « عصر ازدهار الحضارة الإسلامية أي ازدهار ».

حدث محمد بن عيسى بن يزيد الطّرسوسي ، قال : سمعت خرزاد القائد يقول : كنت عند الرّشيد ، فدخل أبو معاوية الضرير وعنه رجل من وجوه قريش ، فجرى الحديث إلى أن خرج أبو معاوية إلى حديث الأعش عن أبي صالح عن أبي هريرة : « أَنَّ مُوسَى لَقِيَ آدَمَ فَقَالَ: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْنَا مِنَ الْجَنَّةِ ! » وذكر الحديث ، فقال القرشي : أين لقي آدم موسى ؟ .. قال : فغضب الرّشيد ، وقال : النّطع والسيف ، زنديق والله يطعن في حديث رسول الله عليه السلام ، قال : فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول : كانت منه بادرة ، ولم يفهم يا أمير المؤمنين ، حتى أسكنه^(٢).

قال الأصمعي : دخلت على هارون الرّشيد ومجلسه حافل ، فقال : يا أصمعي ما أغفلك عنا ، وأجفاك لحضرتنا ؟ ! قلت : والله يا أمير المؤمنين ما ألاقني بلاد

(١) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠

(٢) تاريخ بغداد : ٥/١٤ ، والبداية والنهاية : ٢١٤/١٠ ، وتاريخ الموصل : ٢٩٤ ، وسير أعلام النبلاء : ٢٨٨/٩ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٥ ، والرواية لتاريخ بغداد .

بعدك حتى أتيتك ، قال : فأمرني بالجلوس ، فجلست وسكت عنِي ، فلما تفرق الناس - إلا أقلهم - نهضت للقيام ، فأشار إليَّ أنْ أجلس ، فجلست حتى خلا المجلس ، فلم يبق غيري وغيره ومن بين يديه من الغممان ، فقال لي : يا أبا سعيد : ما ألاقتني ؟ قلت : أمسكتني يا أمير المؤمنين ، وأنشدت :

كفاك كف مائليق درهما جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما
فقال : أحسنت ، وهكذا فكن ، وقرنا في الملا ، وعلمنا في الخلا ، وأمر لي
بخمسة آلاف دينار^(١) .

قال الأصمي : كنا عند الرشيد ، فقدمت إليه فالوذجة ، فقال : يا أصمي ، حدثنا بحدث مزري ، قلت : إن مزرياً أخا الشماسخ كان غلاماً جشيعاً ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالطعم علىه ، وكان ذلك يحفظه (يغضبه) فخرجت أمه ذات يوم تزور بعض أهلها ، فدخل مزرياً الخيمة وعمد إلى صاعي دقيق ، وصاع من قر ، وصاع من سمن ، فجمعه ثم جعل يأكله وهو يقول :

ولمَا غَدَتْ أُمِّي تَمِيرُ بناتها
لَبَكتْ^(٢) بصاعي حِنْطَةٍ صاع عَجْوَةٍ^(٤)
رَؤُوسَ نِقَادٍ^(٦) قَطَعْتُ يومَ تَجَمعَ
حِمَى أَمْتَانِي مَا تَحْوَزُ وَتَرْفَعُ
أَغْرَتْ عَلَى الْعِكْمٍ^(٣) الْذِي كَانَ يَمْنَعُ
إِلَى صَاعِ سِمَنْ فَوْقَةَ يَتَرَبَّعُ^(٤)
وَدَبَّلَتْ^(٥) أَمْثَالَ الأَشَافِيَّ كَانَهَا
وَقَلَتْ لَبْطِنِي أَبْشِرُ الْيَوْمَ إِنَّهُ

(١) تاريخ بغداد : ٩/١٤

(٢) العِكْمُ : النط تجعله المرأة كالوعاء تدخر فيه متاعها .

(٣) لَبَكتْ : خلبت ، واللبيكة : قر ودقيق يخلط ويصب عليه السمن .

(٤) يَتَرَبَّعُ : يتبع هاهنا ، وهذا هنا لا يستقر له وجه لكرته ، وفي الأصل « يتربع » بالباء الموحدة .

(٥) دَبَّلَتْ الشيءَ : جمعت بعضه على بعضه ، جعلته كتلة .

(٦) نِقَادٍ : جمع نقادة ، وهي الصغيرة من الغنم ، الذكر والأنثى في ذلك سواء .

فَإِنْ كُنْتَ مَصْفُورًا^(١) فَهَذَا دَوَاؤه
وَإِنْ كُنْتَ غَرْثَانًا^(٢) فَذَا يَوْمَ تَشَبَّعُ
فَضْحَكَ الرَّشِيدَ حَتَّى اسْتَلَقَ عَلَى ظَهْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ : كُلُوا بَاسْمَ اللَّهِ ، هَذَا يَوْمٌ
تَشَبَّعُ يَا أَصْمَعِي^(٣) .

وَقَالَ الْأَصْمَعِي : دَخَلْتُ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدَ وَبَيْنَ يَدِيهِ بَدْرَةً - ١٠ آلَافَ
دَرْهَمٍ - فَقَالَ : يَا أَصْمَعِي ، إِنْ حَدَثْتَنِي بِحَدِيثٍ فِي الْعَجْزِ فَأَضْحِكْتَنِي ، وَهَبْتَكَ
هَذِهِ الْبَدْرَةَ .

فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَيْنَا أَنَا فِي صَحَارِيِّ الْأَعْرَابِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْبَرْدِ
وَالرِّيحِ ، وَإِذَا بِأَعْرَابِيْ قَاعِدٌ عَلَى أَجْجَةٍ وَهُوَ غُرْيَانٌ ، قَدْ احْتَمَلَتِ الرِّيحُ كُسَاءَهُ ،
فَأَلْقَتْهُ عَلَى الْأَجْجَةِ ، فَقَلَّتْ لَهُ : يَا أَعْرَابِيْ مَا أَجْلِسْكَ هَاهُنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ؟
فَقَالَ : جَارِيَةٌ وَعِدَتْهَا يَقَالُ لَهَا سَلْمَى أَنَا مُنْتَظِرُهَا . فَقَلَّتْ : وَمَا يَنْعُكَ مِنْ أَخْذِ
كُسَائِكَ؟ فَقَالَ : الْعَجْزُ يَوْقِنِي عَنِ أَخْذِهِ ، فَقَلَّتْ لَهُ : فَهَلْ قَلَّتِ فِي سَلْمَى
شَيْئًا؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَلَّتْ : أَسْمَعْنِي لَهُ أَبُوكَ! فَقَالَ : لَا أَسْمَعُكَ حَتَّى تَأْخُذَ
كُسَائِيْ وَتَلْقِيَهُ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَأَخْذَتْهُ فَأَلْقَيْتَهُ عَلَيْهِ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

لَعْلَّ اللَّهَ أَنْ يَأْتِيَ بِسَلْمَى فَيُبَطِّحَهَا وَيُلْقِيَنِي عَلَيْهَا
وَيَأْتِي بَعْدَ ذَاكَ سَحَابَ مَزْنٍ تَطَهَّرْنَا وَلَا نَسْعَى إِلَيْهَا

فَضْحَكَ الرَّشِيدَ حَتَّى اسْتَلَقَ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَقَالَ : أَعْطُوهُ الْبَدْرَةَ ، فَأَخْذَهَا
الْأَصْمَعِيْ وَانْصَرَفَ^(٤) .

(١) المصفور : من به الصفر ، وهو داء في البطن يصرف منه الوجه .

(٢) غرثان : جائع .

(٣) عيون الأخبار : ٢٠٤/٣ ، والعقد الفريد : ٣٨٥/٣

(٤) عيون الأخبار : ٢٠٠/٣

أنشد العَماني الرَّشيدَ يصف فرباً :

كَانَ أَذْنِيَهُ إِذَا تَشَوَّفَا قَادِمَةُ أَوْ قَلَمًا مَحْرَفَا

ولحن ، ففهم ذلك أكثر من حضر ، فقال الرَّشيد : دع كأن وقل : تخال
« تخال أذنيه » حتَّى يستوي الشعر ، فعجبوا لسرعة تهديه ، لقد كان فهم الرَّشيد
فهم العلماء^(١) .

قال الرَّشيد للأصمعي يوماً : يا أصمعي ، أتعرف للعرب اعتذاراً وندماً ؟
ودع النابغة ، فإنه يحتاج ويعتذر ، فقلت : ما أعرف ذلك إلا لبشر بن أبي حازم
الأستي ، فإنه هجا أوس بن حارثة بن لأم ، فأسره بعد ذلك وأراد قتله ، فقالت
له أمه - وكانت ذات رأي - والله لا حما هجاءه لك إلا مدحه إياك ، فعفا عنه .
فقال بشر^(٢) :

إِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي لَنَادِمْ
وَإِنِّي إِلَى أَوْسَ لِيَقْبَلَ تَوْبِي
وَيَعْرَفَ وَدِيَ مَا حَيَّتْ لِرَاغِبْ
سَاحِرُ بَدْحِي فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقْ

فقال الرَّشيد للأصمعي : إن دولتي لتحسن ببقائك فيها^(٣) .

وروى الأصمعي : « لما خرجنا مع الرَّشيد إلى الرقة قال لي : هل حملت
معك شيئاً من كتبك ؟ قلت : نعم حملت منها ما خف حمله .. ثانية عشر
صندوقاً . فقال : هذا لما خفت ، فلو ثقلت كم كنت حملت ؟ » .

دخل العَماني الرَّاجز على الرَّشيد لينشده وعليه قلنسوة طويلة ، وخفت

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٢ ، والرواية فيه لسعيد بن مسلم .

(٢) تنسب إلى الأعشى ، وهي في ملحقات ديوانه : ٢٣٦

(٣) أمالى المرتضى : ٤٦٢/١

ساج ، فقال له الرشيد : يا عَماني ، إِيّاكَ أَنْ تُنشِدِنِي إِلَّا وَعَلَيْكِ عِيَامَةٌ عَظِيمَةٌ
 الْكَوْر ، وَخَفَانِ دَلْقَمَان^(١) ، فَبَكَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَدِ وَقَدْ تَزَيَّأَ بِزِيَّ الْأَعْرَابِ ، ثُمَّ
 أَنْشَدَهُ وَقَبْلَ يَدِهِ وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ وَاللَّهُ أَنْشَدَتُ مَرْوَانَ وَرَأْيَتُ وَجْهَهُ
 وَقَبَّلَتُ يَدَهُ ، وَأَخْذَتُ جَائِزَتَهُ ، ثُمَّ يَزِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنَ الْوَلِيدِ ، ثُمَّ
 السَّفَاحِ ، ثُمَّ الْمُصْوَرِ ، ثُمَّ الْمَهْدِيِّ ، كُلُّ هُؤُلَاءِ رَأَيْتُ وَجْهَهُمْ ، وَقَبَّلَتُ أَيْدِيهِمْ ،
 وَأَخْذَتُ جَوَازَهُمْ إِلَى كَثِيرٍ مِّنْ أَشْبَاهِ الْخَلْفَاءِ وَكُبارِ الْأَمْرَاءِ وَالسَّادَةِ وَالرُّؤْسَاءِ ،
 وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ فِيهِمْ أَهْبَى مَنْظَرًا ، وَلَا أَحْسَنَ وَجْهًا ، وَلَا أَنْعَمَ كَفَّاً ، وَلَا أَنْدَى
 رَاحَةَ مِنْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَعْظَمَ لَهُ الْجَائِزَةَ عَلَى شِعْرِهِ ، وَأَضْعَفَ لَهُ عَلَى
 كَلَامِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَبَسْطَهُ حَتَّى تَنَى جَمِيعُ مَنْ حَضَرَ ، أَنَّهُ قَامَ ذَلِكَ الْمَقَامَ^(٢) .

ولكلشون العتاي في الرشيد أبيات منها :

إِمامَ لَهُ كَفَّ يَضْمُونَهَا وَعَيْنَ مُحِيطٌ بِالْبَرِّيَّةِ طَرْفُهَا وَأَسْعَ يَقْظَانَأَ بَيْتَ مُنَاجِيَا سَمِيعٌ إِذَا نَادَاهُ مِنْ قُبْرِ كُرْبَةِ	عَصَا الدِّينِ مَنْنُوعٌ مِّنَ الْبَرِّ عُودُهَا سَوَاءٌ عَلَيْهَا قُرْبُهَا وَبَعْدُهَا لَهُ فِي الْحَشَأِ مَسْتُودِعَاتٍ يَكِيدُهَا مَنَادٍ كَفْتَهُ دُعْوَةٌ لَا يَعِدُهَا ^(٣)
---	---

وكان الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضي عبد الوهاب الكوفي في مجلسه ،
 فتذاكرروا الرطب ، فقال أبو يوسف : السكر أطيب من المشان^(٤) ، وقال عبد
 الوهاب : المشان أطيب ، فقال الرشيد : ليحضر الطعام ، ودعا بعدة من
 بنى هاشم كانوا هناك ، فأقبلوا جميعاً على السكر ، وتركوا المشان ، فقال الرشيد :

(١) الدلم : دويبة كالسمور ، وفي العقد الفريد « دلقان » ، وفي البيان والتبيين « دملاقان »
 والدمالق : الحجر الأملس .

(٢) عيون الأخبار : ٦٢/١ و ٦٤

(٣) مروج الذهب : ٢٦٥/٢

(٤) السكر والمشان « بضم الميم أو كسرها حسب مختار الصحاح » وهما نوعان من التمر .

قضوا عليك يا أبا عبد الرحمن وهم لا يعلمون ، فقال أبو عبد الرحمن - عبد الوهاب الكوفي - : إنني لم أر « مشان » قط أرداً من هذا ، فقال أبو يوسف : هكذا هما إذا اجتمعا^(١) .

قال إبراهيم بن المهدى : كنت أنا والرّشيد على ظهر حَرَّاقَة - ضرب من السُّفن فيها مرامي نيران - وهو ي يريد نحو الموصل ، والشطرنج بين أيدينا ، فلما فرغنا قال لي الرّشيد : يا إبراهيم ما أحسن الأسماء عندك ؟ قلت : اسم رسول الله ﷺ ، قال : فما الثّانى بعده ؟ قلت : اسم هارون اسم أمير المؤمنين ، قال : فما اسمجها ؟ قلت : إبراهيم ، فزارني وقال : ويلك !! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرّحمن جلّ وعزّ ، قلت : بشئم هذا الاسم لقي مالقى من غرور . قال : وإبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، قلت : لا جَرَمَ لما سمي بهذا الاسم لم يعش ، قال : فإبراهيم الإمام ، قلت : بحرفه اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة ، وأزيـدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلـع ، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قـتل ، ولم أجـد أحداً سـمى بهـذا الـاسم إـلا رأـيـته مـقتـولاً أو مـضـرـوباً أو مـطـرـودـاً . فـما انقضـى كـلامـي حـتـى سـمعـت مـلـاحـاً عـلـى بـعـض الـحرـاقـات يـهـتف بـأـعـلـى صـوـته شـاتـماً رـجـلاً اـسـمـه إـبـراـهـيم ، فـالـتـفـت إـلـي الرـشـيد ، فـقـلـت : يا أمـيرـ المؤـمنـينـ أـصـدـقـتـ قـولي إـنـ أـشـامـ الـأـسـماءـ إـبـراـهـيمـ ؟ ! فـضـحـكـ الرـشـيدـ كـثـيرـاً .

ودخل ابن السمّاك على الرّشيد يوماً وبين يديه حمامة تلتقط حبأ ، فقال له : صفها وأوجز ، فقال : كأنّا المنظر من ياقوتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عققيتين ، وأنشدونا لبعضهم :

(١) مروج الذهب : ٣٧٥/٣

خـوكـ من يـاـقـوـتـيـنـ	اظـرـةـ تـراـهـاـ نـاـ
ثـقـيـنـ كـالـلـؤـلـؤـتـيـنـ	تـرـجـعـ الـأـنـفـاسـ مـنـ
تـيـنـ لـهـاـقـادـمـتـيـنـ	وـتـرـىـ مـشـلـ الـبـسـ
غـيـنـ مـنـ عـرـعـرـتـيـنـ	وـهـاـلـحـيـانـ كـالـصـدـ
سـرـاـوـانـ مـشـلـ الـوـرـدـتـيـنـ	وـهـاـسـاقـانـ حـمـ
حـيـهـاـلـهـاـبـرـنـوـسـتـيـنـ	نسـجـتـ فـوـقـ جـنـ
وـنـبـنـانـ الـنـكـبـيـنـ	وـهـيـ طـاـوـوـسـيـةـ الـلـ
لـأـيـكـ صـافـيـ الـكـتـفـيـنـ	تـحـتـ ظـلـلـ مـنـ ظـلـلـ اـ
مـنـ تـبـارـيـحـ وـبـيـنـ	فـقـدـتـ إـلـفـأـ فـاحـتـ
دـمـعـ جـمـودـ الـمـقـتـيـنـ	فـهـيـ تـبـكـيـ بـلـاـ
هـاـكـاـ تـصـبـغـ عـيـنـيـ ^(١)	وـهـيـ لـاتـصـبـغـ عـيـنـ

ودخل معن بن زائدة على الرشيد .. فمشى فقارب الخطو ، فقال له : كبرت والله يا معن ؟ فقال معن : في طاعتكم يا أمير المؤمنين ، قال الرشيد : وإن فيك على ذلك لبقية ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، فرضي عنه وولاه .

وقال الرّشيد لمن بن زائدة يوماً : إنّي قد أعددتك لأمرٍ كبيرٍ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ الله قد أعدَ لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً ميسوطة بطاعتكم ، وسيفاً مشحوداً على عدوكم ، فإن شئت فقل - أي قل الأمر الذي أعددتني إليه .

وقال الكسائي : دخلت على الرّشيد ، فلما قضيت حقَّ التّسلِيم والدُّعاء ، وثبَّت لِلقيام ، فقال : أقعد ، فلم أزل عنده حتَّى خَفَّ عامَّة من كان في مجلسه ،

(١) مروج الذهب : ٣٥٩/٣

ولم يبق إلا خاصته ، فقال لي : يا علي ، ألا تُحب أن ترى مَحْمَداً وعبد الله^(١) ؟
 قلت : ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرّني بعاينته نعمة الله على
 أمير المؤمنين فيها ، فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبل كوكبي أفق يزيّنها
 هدوء ووقار ، وقد غصاً أبصارهما ، وقاربَا خطوهما حتى وقفا على باب
 المجلس ، فسلماً على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرها بالدُّنُون منه
 فدنوا فصيَّرَ مَحْمَداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرني أن أستقرئهما وأسألهما ،
 فعلت ، فما سألتها عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسرّ بذلك
 الرَّشِيد حتى تبيّنته فيه ، ثم قال لي : يا علي ، كيف ترى مذهبها وجواهها ؟
 قلت : يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر :

أرى قَمَرِي مَجْدِي وفرعي خلافة يزِينُهَا عِرْقٌ كرِيمٌ ومحْمَدٌ^(٢)

يا أمير المؤمنين هما فرع زاك أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت في الثرى
 عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغرا ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ،
 يحكمان بحکمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ،
 فامتع الله أمير المؤمنين بها . وأنس جميع الأمة بيقائه وبقائه . ثم قلت لها : هل
 ترويان من الشّعر شيئاً ؟ فقالا : نعم ، ثم أنشداني محمد :

وإِنِّي لَعَفْتُ الْفَقْرَ مُشْتَرِكَ الْغَنِيِّ وَتَارِكَ شَكْلِ لَا يَوَافِقُهُ شَكْلِيِّ
 وَأَجْعَلَ مَالِيِّ دُونَ عِرْضِيِّ جَنَّةً لِنَفْسِيِّ، وَمَفْضَالَ بَهَا كَانَ مِنْ فَضْلِ
 ثُمَّ أَنْشَدَ عَبْدَ اللَّهِ :

بَكْرَتْ تَلْسُومُكَ مَطْلَعَ الْفَجْرِ
 وَلَقَدْ تَلَوْمَ بَغْيَ مَاتَدْرِيِّ
 يَعْطِي إِذَا مَا شَاءَ مِنْ يُسْرِيِّ
 مَلَكُ الْأَمْوَارِ عَلَيْهِ مَقْتَدِرٌ

(١) محمد «الأمين» ، وعبد الله «المؤمن» .

(٢) المحتد : الأصل ، [اللسان : حتد] .

ولرُبَّ مغْبِطٍ بِرَزْئَهِ ومَجْعَ بِنْوَائِبِ السَّدْهِ
 وَتَرِي قَنَاتِي حِينَ يَغْمِدُهَا غَصَّ الثَّقَافَ بِطِيقَةِ الْكَسْرِ
 فَمَا رَأَيْتَ أَحَدًا مِنْ أَوْلَادِ الْخَلْفَاءِ وَأَغْصَانَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمَبَارَكَةِ أَذْرَبَ^(١) أَسْنَا
 وَلَا أَحْسَنَ أَلْفَاظًا وَلَا أَشَدَّ اقْتِدَارًا عَلَى تَأْدِيَةِ مَا حَفْظَاهُ مِنْهَا ، وَدَعَوْتُ لَهَا دُعَاءً
 كَثِيرًا ، وَأَمَّنَ الرَّشِيدَ عَلَى دُعَائِي ، ثُمَّ ضَفَّهَا إِلَيْهِ ، وَجَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ يَبْسُطْهَا
 حَتَّى رَأَيْتَ الدَّمْوعَ تَنْهَدِرُ عَلَى صَدْرِهِ .

. وَذَكَرَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ قَالَ : صَارَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَصْعُبَ بْنُ ثَابْتِ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ فَقَالَ : إِنَّ مُوسَى بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ الْحَسَنِ بْنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَدْ
 أَرَادَنِي عَلَى الْبَيْعَةِ لِهِ ، فَجَمَعَ الرَّشِيدَ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ الزُّبَيرِيُّ لِمُوسَى : سَعَيْتَ عَلَيْنَا
 وَأَرَدْتُمْ نَقْضَ دُولَتِنَا ، فَالْتَّفَتَ إِلَيْهِ مُوسَى فَقَالَ : وَمَنْ أَنْتُمْ ؟ فَغَلَبَ عَلَى الرَّشِيدِ
 الضَّحْكُ حَتَّى رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّقْفِ حَتَّى لَا يَظْهُرَ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ مُوسَى : يَا
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا الَّذِي تَرَى الْمُشْنَعَ عَلَيْهِ خَرَجَ وَاللَّهُ مَعَ أَخِي مُحَمَّدٍ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَى جَدِّ النَّصَارَى ، وَهُوَ الْقَائِلُ مِنْ
 أَبِيَاتِ :

قَوْمُوا بِبَيْعَتِكُمْ تَنْهَضُ بِطَاعَتِنَا إِنَّ الْخَلَافَةَ فِيمِ يَا بْنِ حَسَنِ
 وَلَيْسَ سَعَايَتِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَبَّاً لَكَ ، وَلَا مَرَاعَا لِدُولَتِكَ ، وَلَكِنْ بَغْضَا
 لَنَا جَمِيعًا أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَلَوْ وَجَدْ مَنْ يَنْتَصِرُ بِهِ عَلَيْنَا جَمِيعًا لِكَانَ مِنْهُ ، وَقَدْ قَالَ
 بَاطِلًا ، وَأَنَا مُسْتَحْلِفُهُ ، فَإِنْ حَلَفَ أَنِّي قَلْتُ ذَلِكَ فَدَمِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَلَالٌ .
 فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَحَلَفُ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَرَادَهُ مُوسَى عَلَى الْيَمِينِ تَلَكَّ وَامْتَنَعَ ،
 فَقَالَ لِهِ الْفَضْلُ : لَمْ تَتَمَنَّ وَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّفَا أَنَّهُ قَالَ لَكَ مَا ذَكَرْتَهُ ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ :
 فَأَنَا أَحَلَفُ لَهُ ، قَالَ مُوسَى : قَلْ تَقَلَّدْتُ الْحَوْلَ وَالْقُوَّةَ دُونَ حَوْلَ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى

(١) ذَرَبَ الرَّجُلُ إِذَا قَصَحَ لِسَانَهُ بَعْدَ خَصِيرَهُ ، وَالذَّرِبُ : الْحَادُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، [اللَّسَانُ : ذَرَبَ] .

حولي وقوتي إن لم يكن ما حكите عنِّي حقاً ، فحلف له ، فقال موسى : الله أكبر ، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده عليٌّ عن رسول الله عليه أَللَّهُ أَعُوْذُ بِهِ أَنَّهُ قَالَ : « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاثة » والله ما كذبت ولا كذبت ، وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفي قبضتك ، فتقدمن بالتوكيل عليٍّ ، فإن مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبد الله بن مصعب حادث فدمي لأمير المؤمنين حلال ، فقال الرشيد للفضل : خذ بيد موسى فليكن عندك حتى أنظر في أمره .

قال الفضل : فوالله ما صلحت العصر من ذلك اليوم حتى سمعت الصراخ من دار عبد الله بن مصعب ، فأمرت من يتعرف خبره ، فعرفت أنه قد أصابه الجذام ، وأنه قد تورم وأسود ، فصرت إليه ، فوالله ما كدت أعرفه ... فصرت إلى الرشيد فعرفته خبره ، فما انقضى كلامي حتى أتى خبر وفاته ...

فأحضر الرشيد موسى بن عبد الله ، وقال له :

لم عدلت عن اليمين المتعارفة بين الناس ؟ قال : لأننا رؤينا عن جدنا رضي الله عنه عن النبي عليه أَللَّهُ أَعُوْذُ بِهِ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ بِيْمِينَ مَجَّدَ اللَّهِ فِيهَا اسْتَحْيَا اللَّهَ مِنْ تَعْجِيلِ عَقْوَبَتِهِ ، وَمَا مَنْ أَحَدْ حَلَفَ بِيْمِينَ كَاذِبَةَ نَازَعَ فِيهَا حَوْلَهُ وَقُوَّتِهِ إِلَّا عَجَّلَ اللَّهُ لَهُ الْعَقْوَبَةَ قَبْلَ ثَلَاثَ »^(١) .

فأمر الرشيد بخليله وأن يعطى ألف دينار .

وكان جعفر بن سليمان أحضر على مائدةٍ بالبصرة يوم زارة الرشيد ألبان الظباء وزبادها ^(٢) ولبادها ، فاستطاب الرشيد جميع طعومها ، فسأل عن

(١) مروج الذهب : ٣٥٣/٣

(٢) أراد السلاء : السمن ، والجمع أسلأة .

ذلك ، وغمزَ جعفرٌ بعضَ الغلمان ، فأطلقَ عن الظباءِ ومعها خشافانها^(١) ، وعليها شُملها^(٢) ، حتى مرت في عرصة^(٣) تجاه عين الرّشيد ، فلما رأها على تلك الحال وهي مقرّطة^(٤) مخضبة ، استخففَ الفرج والتعجب ، حتى قال : ما هذه الألبان ؟ وما هذه السُّمنان واللّبَا والرّائب والزُّبد الذي بين أيدينا ؟ ! قال : منْ حلبِ هذه الظباء ، أُلْقِت وهي خشافان فتلاقحت وتلاحت^(٥) .

كان الرّشيد يقول : منْ أحبّ ما مادِحْتُ به إلّي :

أبو أمين ، وسأمون ، ومؤتن أكرم به والدًا برأً وما ولدا
وقال الأصمي : حضرت أنا وأبا عبيدة معمّر بن المشنّى عند الفضل بن الرّبيع - وقد روی من طريق أخرى أنَّ ذلك كان عند الرّشيد - فقال لي : كم كتابك في الخيال ؟ فقلت : جلد واحد ، فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال : خمسون جلدة .

فأمر ياحضار الكتابين وأحضر فرساً ، وقال لأبي عبيدة اقرأ كتابك حرفاً حرفاً وضع يدك في موضع موضع من الفرس ، فقال : لست بيطاراً ، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب ، فقال لي : قم يا أصمي وافعل ذلك ، فقمت وأمسكت ناصيته ، وشرعت أذكّر عضواً عضواً ، وأضع يدي عليه وأنشِدْ ما قالـت العرب فيه ، إلى أن فرغت منه ، فقال : خذه ، فأخذته ، وكنت إذا أردت أن أغrieve أبا عبيدة ركبته إليه .

(١) الخشافان : أراد به جمع خشف ، وهو ولد الظباء ، والمعروف في هذا الجمـع (خشافـة) كثيرة . ولقد استعمل المياحيـط للخشافـان أكثر من مرـة في كتابـ الحـيـوان .

(٢) الشـمل : جـعـشـالـ ، كـكتـابـ ، وـهوـشـيءـ كـخـلـةـ يـغـطـىـ بـهـ ضـرعـ الشـاءـ إـذـ ثـقلـتـ .

(٣) العـرـصـةـ : كلـ بـقـعـةـ بـيـنـ الدـورـ وـاسـعـةـ لـيـسـ فـيـهاـ بـنـاءـ ، [الـلـسانـ : عـرـصـ] . فـهيـ السـاحـةـ الـواسـعـةـ إذـنـ .

(٤) مـقرـطـةـ : ذاتـ قـرـطـ .

(٥) كتابـ الحـيـوانـ : ١٨٧/٧

وجاء في الرواية التي قالت إن ذلك كان عند الرشيد ، قال الرشيد لأبي عبيدة : ماتقول فيما قال ؟ قال : أصاب في بعض ، وأخطأ في بعض ، فالذى أصاب فيه مني تعلمه ، والذى أخطأ فيه ما أدرى من أين أتى به^(١) .

وقال الأصمعي أيضاً :

ذكرت يوماً للرشيد نَهَمْ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، وقلت : إنَّه كأن يجلس ويُحضر بين يديه الخراف المشوية ، وهي كَاخرجت من تنانيرها ، فيريدأخذ كلاها فتنعه الحرارة ، فيجعل يده على طرف جَبَّته ويدخلها في جوف الخروف فياخذ كلاه ، فقال لي : قاتلك الله ، ما أعلمك بأخبارهم ! اعلم أنَّه عرضت على ذخائر بني أمية ، فنظرت إلى ثياب مذهبة ثانية ، وأكمامها ودكة بالدهن^(٣) ، فلم أدرِ ماذا ذلك حتى حدثني الحديث ، ثمَّ قال : على بثياب سليمان ، فأتَيَ بها ، فنظر إلى تلك الآثار فيها ظاهرة فكساني منها حلة . وكان الأصمعي ربياً خرج فيها أحياناً فيقول : هذه جَبَّة سليمان التي كسانها الرشيد^(٤) .

☆ ☆ ☆

أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز ، الأستدي بالولاء ، الكوفي المعروف بالكسائي ، أحد القراء السبعة ، كان إماماً في النحو واللغة والقراءات ، وكان يؤدب الأمين بن الرشيد ، ويعلّمه الأدب ، ولم يكن له زوجة ولا جارية ، فكتب إلى الرشيد يشكو العزبة في هذه الأبيات :

قل لل الخليفة ماتقول لن أمسى إليك بحرمة يَذْلِي

(١) وفيات الأعيان ١٧٢/٣

(٢) سليمان بن عبد الملك : [٥٤ - ٩٩ هـ = ٧١٧ - ٧٤ م] ، الخليفة الأموي ، « كان طويلاً جيلاً ، أبيض ، كبير الوجه مقرن الحاجبين ، فصيحاً بليغاً ، متوقفاً عن الدماء ، معجبًا بنفسه ، أكولاً حداً » ، الأعلام ١٣٠/٣ ، عن الحسين ٢١٤/٢ و ٢١٥ .

(٣) الودك : الدسم ، وقيل : دَسَم اللحم ، [اللسان : ودك] .

(٤) وفيات الأعيان : ١٧٤/٣

عَبْدِي يَدِي وَمطْبِقِي رَجْلِي
 مِنْ نُومِي وَقِيَامَةُ قَبْلِي
 مَوْفُورَةٌ مِنِي بِلَا رَجْلٍ
 قَدَامَ سُرْجِي رَاكِبٌ مُثْلِي
 عَنِّي وَأَهْدِي الْغَمْدُ لِلنَّصْلِ
 مَا زَالَتْ مَذْ صَارَ الْأَمِينُ مَعِي
 وَعَلَى فَرَاشَيِّي مَنْ يَنْبَهِنِي
 أَسْعَى بِرَجْلِي مِنْهُ ثَالِثَةٌ
 وَإِذَا رَكَبْتُ أَكُونُ مُرْتَدِفًا
 فَامْنَنَ عَلَيَّ بِمَا يَسْكُنُهُ
 فَأَمْرَ لِهِ الرَّشِيدُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرْهَمٍ ، وَجَارِيَةٌ حَسْنَاءٌ بِجَمِيعِ آلتَاهَا ، وَخَادِمٌ
 وَبِرْذُونَ بِجَمِيعِ آلتَهِ .

واجتمع يوماً بِمُحَمَّدِ بْنِ الْمُسْنَ الْفَقِيهِ الْخَنْفِيِّ فِي مَجْلِسِ الرَّشِيدِ ، فَقَالَ
 الْكَسَائِيُّ : مَنْ تَبَعَّرَ فِي عِلْمٍ تَهَدَّى إِلَى جَمِيعِ الْعِلُومِ ، فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : مَا تَقُولُ فِيمَنْ
 سَهَا فِي سُجُودِ السَّهُوِّ ، هَلْ يَسْجُدُ مَرَّةً أُخْرَى؟ فَقَالَ الْكَسَائِيُّ : لَا ، قَالَ :
 لِمَذَا؟ قَالَ : لِأَنَّ النُّحَاةَ تَقُولُ : التَّصْغِيرُ لَا يَصْغِرُ .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ : فَمَا تَقُولُ فِي تَعْلِيقِ الطَّلاقِ بِالْمُلْكِ؟ قَالَ : لَا يَصْحُ ، قَالَ :
 لِمَّا؟ قَالَ : لِأَنَّ السَّيْلَ لَا يَسْبِقُ الْمَطَرَ^(١) .

وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ لِلْكَسَائِيِّ وَهَا عِنْدَ الرَّشِيدِ : مَا مَعْنَى قَوْلِ الرَّاعِي^(٢) :

قُتِلُوا ابْنَ عَفَانَ الْخَلِيفَةَ مُحَرْمًا وَدَعَا فَلَمْ أَرْ مُثْلَهُ مُخْنَذُوا

قَالَ الْكَسَائِيُّ : كَانَ مُحَرْمًا بِالْحِجَّةِ ، قَالَ الأَصْمَعِيُّ : مَا أَرَادَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ
 بِقَوْلِهِ^(٣) :

قُتِلُوا كَسْرَى بِلِيلِ مُحَرْمًا فَتَوَلَّى لَمْ يَمْتَسِعْ بِكَفْنٍ

(١) وفيات الأعيان : ٢٩٥/٣

(٢) جهرة أشعار العرب : ٣٣٧ ، طبع صادر .

(٣) ديوانه : ١٧٨

هل كان محرماً بالحجّ؟ وأي إحرام لكسرى؟

فقال الرّشيد للكسائي : إذا جاء الشّعر فإياك والأصمعي .

قال الأصمعي : قوله « محرماً » في حرمة الإسلام ، ومن ثم قتل مسلماً محرماً ، أي لم يحل في نفسه شيئاً يوجب القتل ، وقوله « محرماً » في كسرى ، يعني حرمة العهد ، الذي كان في عنق أصحابه^(١) .



(١) وفيات الأعيان : ١٧١/٣

عطاء الرشيد

كان الرشيد يقتفي أخلاق المنصور ويعمل
بها ، إلا في العطايا والجوائز ، فإنه كان أ NSF
الناس عطية ابتداء وسؤلاً^(١) .

قيل لشبيب بن شيبة عند باب الرشيد : كيف رأيت الناس ؟ قال :رأيت
الداخل راجياً ، والخارج راضياً^(٢) .

كان يحيى يسأر الرشيد يوماً ، فوقف له رجل فقال : يا أمير المؤمنين ،
عطبت دابتي ، فقال الرشيد : يعطى خمس مئة درهم ، فغمزه يحيى ، فلما نزلوا
قال له الرشيد : يا أبتي أومأت إلي شيء ولم أعرفه ؟ فقال : مثلك لا يجري هذا
القدر على لسانه ، إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، عشرة آلاف ألف ، فقال :
إذا سئلت مثل هذا فكيف أقول ؟ فقال : تقول : يشتري له دابة^(٣) .

دخل الأصمي وابن أبي حفص الشطرينجي على هارون الرشيد ، فخرج
عليها وهو كالمتغير النّفس ، فقال : يا أصمي ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ،
قال : فأيّما قال بيّنا وأصاب به المعنى الذي في نفسي فله عشرة آلاف درهم ، قال
ابن أبي حفص : قد حضرني بيّن يا أمير المؤمنين ، قال : هاته ، فأنشا يقول :

مجلس يألف السرور إليه لحب ريحانـه ذكراك

قال : أحسنت والله ، يا فضل أعطه عشرة آلاف درهم ، ثم قال ابن
أبي حفص : قد حضرني بيّن يا أمير المؤمنين ، قال : هاته ، فأنشا يقول :

(١) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠ ، تاريخ الخلقاء : ٢١٥

(٢) العقد الفريد : ٢٦٧/٢

(٣) وفيات الأعيان : ٢٢٧/٦

كُلَّمَا دَارَتِ الزُّجَاجَةِ زَادَتْ سَهْنِيْنَا وَلَوْعَةَ فَبَاكِي

قال : أحسنت والله ، يا فضل أعطه عشرة آلاف درهم ، قال الأصمبي :
فنزل بي في ذلك اليوم مالم ينزل قط مثله ، أن ابن أبي حفص يرجع بعشرين
ألف درهم ، وبفخر ذلك المجلس ، وأرجع صرفاً منها جميماً !! ثم حضرني بيت ،
فقلت : يا أمير المؤمنين قد حضرني ثالث ، فقال : هاته ، فأنشأت أقول :

لَمْ يَنْلَكْ الْمَنِيْ بِأَنْ تَحْضُرَنِي وَتَجَافَتْ أَمْنِيْتِي عَنْ سَوْاَكِ

قال : أحسنت والله ، يا فضل أعطه عشرين ألف درهم ، ثم قال هارون :
قد حضرني الرابع ، فقلنا : إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنا فعل ، فأنشأ يقول :

فَقَنِيْتُ أَنْ يَغْشِيَنِي اللَّهُ هُنَاسًا لَعْلَّ عَيْنِي تَرَاكَ

قال : فقلنا يا أمير المؤمنين أنت والله أشعر منا ، فجوائزنا لأمير المؤمنين ،
قال : جوائزك لكما ، وانصرفاً^(١).

دخل إسحاق بن إبراهيم الموصلي على أمير المؤمنين الرشيد يوماً ، فقال :
أنشدني من شعرك ، فأنشد :

فَذَلِكَ شَيْءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلٌ
بِخِيلَالِهِ فِي الْعَالَمَيْنِ خَلِيلٌ
إِذَا نَالَ خَيْرًا أَنْ يَكُونَ يَنِيلٌ
وَمَالِي - كَمَا قَدْ تَعْلَمَنِ - قَلِيلٌ
وَيَحْقِرُ يَوْمًا أَنْ يَقُولَ بَخِيلٌ
وَرَأَيَّ أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيلٌ؟

وَأَمْرَةً بِالْبَخْلِ قَلَتْ لَهَا أَقْصَرِي
أَرَى النَّاسَ خَلَانَ الْجَوَادِ وَلَا أَرَى
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَقْرِ - لَوْ عَلِمْتِهِ -
عَطَائِي عَطَاءَ الْمُكْثِرِينَ تَكْرُمًا
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَخْلَ يَزْرِي بِأَهْلِهِ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقَرَأَوْ أَحْرَمُ الْغَنِيَّ

(١) تاريخ بغداد : ١٠/١٤

قال : لا ، كيف إن شاء الله ، يا فضل أعطه مئة ألف درهم ، الله در أبيات تأتينا بها ، ما أحسن فصوتها ، وأثبت أصوتها .

فقال إسحاق الموصلي : يا أمير المؤمنين : كلامك أجود من شعرى ، قال : أحسنت ، يا فضل أعطه مئة ألف أخرى^(١) .

وقف رجل من بني أمية للرشيد على الطريق وبيده كتاب كالقصة ، فإذا فيه أربعة أبيات ، وهي :

قول ذي لب وصدق وحسب بكُم الفضل على كلّ العرب وهما بعد لام ولاب بعد شمس عم عبد المطلب	يا أمين الله، إني قائل لكم الفضل علينا، ولنا عبد شمس كان يتلو هاشما فصيل الأرحام منا، إنا
---	--

فاستحسن ذلك الرشيد ، فأمر له بكل بيت بالف دينار ، وقال : لو زدتنا لزدناك .

وقدم هارون الرشيد الكوفة ، فكتب قوماً من القراء ، فأمر لكل واحدٍ منهم بألفي درهم ، فكان داود الطائي ممن كتب فيهم ودعى باسمه أين داود الطائي ؟ فقالوا : داود يجibik ؟ أرسلوا إليه ، قال ابن السمّاك وحمّاد بن أبي حنيفة : نحن نذهب إليه ، قال ابن السمّاك لحمد في الطريق : إذا نحن دخلنا عليه فانشرها بين يديه ، فإن للعين حظها ، فقال حمّاد : رجل ليس عنده شيء يؤمر له بألفي درهم يردها !! فلما دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال : سوءة ، إنما يفعل هذا بالصبيان ، وأبى أن يقبلها^(٢)

(١) تاريخ بغداد ١١/١٤

(٢) وفيات الأعيان : ٢٦١/٢

قال الأصمعي : فإني عند الرشيد يوماً وعنه عيسى بن جعفر ، فأقبل على مسror الكبير ، فقال له : يا مسror كم في بيت مال السرور ؟ قال : ليس فيه شيء ، فقال عيسى : هذا بيت الحزن . قال : فاغتم لذلك الرشيد ، وأقبل على عيسى فقال : والله لتعطين الأصمعي سلفاً على بيت مال السرور ألف دينار ، فاغتم عيسى وانكسر ، قال : فقلت في نفسي جاء موضوع البيتين ، فأنشدت الرشيد :

إذا شئت أن تلقى أخاك معبساً
وَجَدَاهُ فِي الْمَاضِينَ، كَعْبَ، وَحَاتَمَ
فَكَشَّفَهُ عَمَا فِي يَدِيهِ فَإِنَّا
تَكَشَّفَ أَخْبَارَ الرِّجَالِ الدَّرَاهِمُ
قال : فتجلى عن الرشيد ، وقال لسرور : أعطه على بيت مال السرور
ألفي دينار ، وما كان البيتان يساويان عندي درهفين^(١) .

قدم الرشيد الرقة في شهر رمضان سنة ١٩٠ هـ ، بعد أن فتح هرقلة^(٢) ،
فلما عيد جلس ، فدخل عليه المهنئون ، وكان من بينهم شعراء كث ، وفيهم أشجع
السلمي ، فبدر فأنشد :

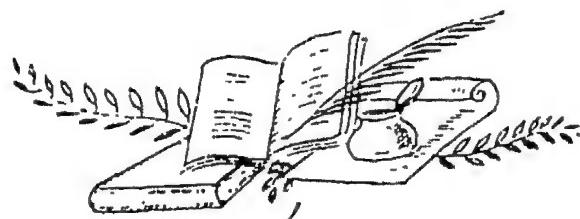
<p>تُضي لها بك أَيَّامٍ وَتُمْضيها يُطوي بك الدَّهَرُ أَيَّاماً وَتُطويها إِلَيْكَ بِالنَّصْرِ مَعْقُوداً نَوَاصِيَها وَنَاصِرُ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ يَرْمِيَها بنَصْرٍ مِنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِثْلَ هَارُونَ رَاعِيهِ وَرَاعِيهَا</p>	<p>لَا زلت تُنْشِرُ أَعْيَاداً وَتُطْوِيهَا وَلَا تَقْضِيَتْ بِكَ الدُّنْيَا وَلَا بِرِحْتَ لِيَهِنِكَ الْفَتْحُ وَالْأَيَّامُ مَقْبَلَةٌ أَمْسَتْ هِرْقَلَةً تَهُوي مِنْ جَوَانِبِهَا مَلَكَتْهَا وَقَتَلَتْ النَّاكِثِينَ بِهَا مَارُوعِيَ الدِّينُ وَالدُّنْيَا عَلَى قَدْمِهَا</p>
--	--

(١) تاريخ بغداد : ٩/١٤

(٢) سير الشرح وافياً في نهاية بحث « جهاد الرشيد » .

فأمر له بعشرة آلاف دينار وقال : لا ينشد في أحد بعده بشيء ، فقال
أشجع : والله لامره ألا ينشد أحد من بعدي أحب إليّ من صلاته^(١) .

ومع هذا العطاء السخي .. فلقد ترك الرشيد في بيت المال ميزانية ضخمة
كبيرة غنية ؛ لقد ترك الرشيد بعد وفاته في بيت المال ٩٠٠,٠٠٠ دينار^(٢) !!
« على الرغم من أبهة الملك ، والهبات التي لم يسبق لها مثيل »^(٣) .



(١) معجم البلدان : ٣٩٨/٥

(٢) الكامل في التاريخ : ١٣٠/٥

(٣) قصة الحضارة : ٩٢/١٣

المجتمع في عصر الرشيد

كانت الرفاهية تعم الدولة كلها ، وكذلك
الطمأنينة ، لأنّه تتبع أمور الرعية ،
وما تعجل برارقة دم مطلقاً .

قال الفضل بن الربيع : جلس الرشيد يوماً للمظالم ، فجعلت أتصفح
الناس ، وأسمع كلامهم ، فرميـت بطرفـي ، فرأـيت في آخرـهم شيخاً حسـنـ المـهـيـةـ
والوجهـ ، مـارـأـيـتـ أـحـسـنـ مـنـهـ ، فـوـقـفـ حتـىـ تـقـوـضـ المـجـلـسـ^(١) ، ثـمـ قـالـ : يـاـ أـمـيرـ
المـؤـمـنـيـنـ ، رـقـعـيـ ! فـأـمـرـ بـأـخـذـهـ ، فـقـالـ : إـنـ رـأـيـ أـمـيرـ المـؤـمـنـيـنـ أـنـ يـأـذـنـ لـيـ
بـقـرـاءـهــ ، فـأـنـاـ أـحـسـنـ تـبـيـراـ لـخـطـيـ منـ غـيرـيـ ، فـقـالـ الرـشـيدـ لـهـ : أـقـرـأـ ، فـقـالـ :
شـيـخـ ضـعـيفـ ، وـمـقـامـ صـعـبـ ، وـلـآـمـنـ الـاضـطـرـابـ ، فـإـنـ رـأـيـ أـمـيرـ المـؤـمـنـيـنـ أـنـ
يـصـلـ عـنـ اـيـاتـهـ بـأـمـرـيـ فـيـ الإـذـنـ بـالـجـلوـسـ فـعـلـ ، فـقـالـ : اـجـلـسـ . فـجـلـسـ وـأـنـشـأـ
يـقـولـ :

يـاـ خـيـرـ مـنـ وـخـدـتـ بـأـرـحـلـهـ
نـجـبـ الرـكـابـ بـهـمـتـهـ جـلـسـ^(٢)
طـيـ التـجـارـ عـمـائـ الـبـرـ^(٣)
سـجـدـتـ لـوـجـهـكـ طـلـعـةـ الشـمـسـ
خـيـرـ الـبـرـيـيـةـ أـنـ كـلـمـ

(١) « قـوـضـ » الـبـنـاءـ تـقـويـضاـ ، نـقـضـهـ مـنـ غـيرـ هـدـمـ ، وـ « تـقـوـضـ » الـحـلـقـ وـالـصـفـوـفـ اـنـتـفـضـتـ
وـقـرـقـتـ ، مـخـتـارـ الصـحـاحـ : ٤٧٨

(٢) وـخـدـتـ : ضـربـ مـنـ السـيـرـ السـرـيعـ ، وـلـهـمـهـ : الصـحـراءـ ، وـجـلـسـ : غـلـيـظـ ، يـرـيدـ أـنـ السـيـرـ فـيـهـ
يـشـقـ عـلـىـ سـالـكـيـهـ .

(٣) طـوـيـ : تـقـطـعـ ، وـالـسـبـاسـبـ : جـمـعـ سـبـبـ ، وـهـيـ الـأـرـضـ الـمـسـوـيـةـ الـبـعـيـدةـ ، وـالـبـرـ
(ـبـالـكـسـ) القـطـنـ .

عف السريرة طاهر النفس
قسي وتصبح فوق ماتمسي
تزاد جدتها مع اللبس
أهل العفاف ومنتهي القدس
ولدى المياج مصاعب شمس^(١)
قد كان شردي ومن لبس^(٢)
يممت نحوك رحلة العنّس
حتى أغيّب في ثرى رمسي^(٣)
ليلاً يوج كحالك النّقس
كان التّوكل عنده ترسى
أصب و إلى نفر من الإنس
يقتلن بالتطويل والحبس^(٤)
صفراء مثل مجاجة الورس^(٥)
نظم كرق صحائف الفرس^(٦)
ما أن أضعت إقامة الخمس^(٧)

الله ما هارون من ملك
وكذاك لن تنفك خيرهم
نمّت عليه ربّه نعم
من عترة طابت أرومته
مته للين على أسررّهم
إني بجأت إليك من فرع
لما استخرت الله مجتهداً
واخترت حملك لا أجدا وزه
كم قد سريت إليك مدرعاً
إن راعني من هاجس فرع
ماذاك إلا أنني رجل
بيض أوانس لا قرون لها
وأجاذب الفتى ان بينهم
لماء في حفاتها حبب
والله يعلم في بنية

(١) مصاعب : جمع مصعب ، وهو من الإبل الذي تصعب مقاومته ، وشمس : جمع أشمس ، وهو الآبي النافر الممتنع .

(٢) العنقر : الناقة الصلبة .

(٢) النقس « بالكس » : (١٤)

Digitized by srujanika@gmail.com

(٢) الـ زـيـنـةـ تـنـبـهـ

(٦) أَحَبُّ بِالْجَسْعِ، سَدَّادُ الْمُسَسَّانِ.

(٦) الرقم : الكتابة ، قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ هـ ، وقولهم : هو يرق الماء أي بلغ من حدهه بالأمور أن يرق حيث لا يثبت الرقم . [مختار الصحاح : ٢١٥] .

(٧) المنس : أراد الصلوات المنس المفروضة .

قال الرّشيد : ومن تكون ؟

قال : علي بن الخليل ، الذّي يقال إِنَّه زنديق .

فقال الرّشيد : أنت آمن ، وأمر لِه بخمسة آلاف درهم^(١) . لأنَّه نفى عن نفسه الزُّندقة وأقرَّ بصلاته المكتوبة .

وما يذكر أنَّ الرّشيد لما ولَيَ عام ١٧٠ هـ ، آمن مَن كان هاربًا أو مستخفياً ، غير نفر من الزُّنادقة منهم : يونس بن فروة ، ويزيد بن الفيض .

☆ ☆ ☆

وفي زَمْن الرّشيد استقلَ إدريس بن عبد الله بإمارة بلاد تلمسان ، تحت راية الخلافة العُباسية .

كما قامَت فتنة بين النَّزارية واليُمنية في الشَّام ، أطْفَأَها جعفر البرمكي سنة ١٧٩ هـ^(٢) .

وخرج المُخَرَّز في ثلَثة أرمينية ، فقضى على تردهم واعتداهُم على حدود المسلمين حازم بن خزيمة ، ويزيد بن مزيد ، عام ١٨٦ هـ^(٣) .

وفي سواد العراق قام ثروان بن يوسف ، وهزمَه طوق بن مالك سنة ١٩١ هـ^(٤) .

وفي الشَّام قام أبو النداء ، فاستتابه يحيى بن معاذ سنة ١٩١ هـ^(٥) .

وخرجت الْخُرْمِيَّة ببلاد أذربيجان ، فوجَّهَ إِلَيْهم الرّشيد عبد الله بن

(١) زهرة الآداب : ٩١٠

(٢) البداية والنهاية : ١٧٣/١٠ ، والنجوم الزاهرة : ٦٧/٢

(٣) البداية والنهاية : ١٨٣/١٠ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٨ ، وتاريخ ابن الوردي : ٤٢٨/١٠

(٤) البداية والنهاية : ٢٠٦/١٠

(٥) المرجع السابق .

مالك بن الهيثم الخزامي سنة ١٩٢ هـ ، وكان قد غزاهم من قبل خزيمة بن حازم ، فأسر منهم الكثير^(١) ، وفي السنة نفسها تحرك ثروان الحروري أيضاً .

وفي الشرق ، ولي علي بن عيسى بن ماهان في خراسان ، ولما ظهرت خيانته ، وسوء سياساته لأهل ولايته ، خلفه هرثمة بن أعين ، وهو قائد شجاع ، محنك حكيم ، ولما عزل الرشيد علي بن عيسى ، أرسل له كتاباً مع هرثمة فيه توبیخ وتقریب لظلمه الرعیة ، ومخالفته أمره في حسن السیرة^(٢) ، لأنّه استصفى لنفسه أموالاً كبيرة ، وكتب إليه بخطِّ يده :

بسم الله الرحمن الرحيم ، يا بن الزَّانية ، رفعتَ من قدرك ، ونَوَّهْتَ
باسمك ، وأوطأت سادة العرب عَقِبَك ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خولكَ
وأتباعك ؛ فكان جزائي أن خالفت عهدي ، ونبذت وراء ظهرك أمري ، حتَّى
عيشت في الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك ،
ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك ، وقد ولَّيت هرثمة بن أعين مولايَ ثغر
خراسان ، وأمرته أن يشدَّ وطأته عليكَ وعلى ولدك وكُتابك وعَمالك ،
ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ، ولا حقاً مسلماً ولا معاهاً إلا أخذكم به ، حتَّى
تردَّد إلى أهله ، فإن أبىَت ذلك وأباه ولدك وعَمالك فله أن يبسط عليكم
العذاب ، ويصبُّ عليكم السُّيَاط ، ويحلُّ بكم ما يحلُّ بمن نكثَ وغيرَه ، وبدلُّ
والخالف ، وظلم وتعدى وغشم ، انتقاماً لله عَزَّ وجَلَّ بادئاً ، وخلفيته ثانياً ،
وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للّتي لا شَوَّى لها^(٣) ، واخرج مما
يلزمك طائعاً أو مكرهاً .

(١) النجوم الظاهرة : ١٣٩٢ ، والأخبار الطوال : ٢٩١ . وألخَرميَّة : طائفة تُنسب إلى بابك الخَرمي وتدین بما تدين الباطنية أولاد الجوس الذين أتوا آيات القرآن ، وسنن النبي الكريم ، على موافقة أهواههم .

(٢) لا بقاء لها ، [اللسان : شوا] .

(٣) الطَّبرِي : ٣٢٦/٨

وكتب الرشيد إلى هرثة عهداً بخطه هذا نصه :

« هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثة بن أعين حين ولاه ثغراً خراسان وأعماله وخارجته ، أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأله عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله . أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ، وأمره أن يستوثق من الفاسق علي بن عيسى وولده وعماته وكتابه ، وأن يشد عليهم وطأته ، ويحل لهم سطوطه ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين ، وفيء المسلمين ، فإذا استنطاف ما عندهم وقبلهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يرددوه إليهم ، فإن ثبت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين ، وحقوق المسلمين ، فدافعوا عنها واجدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته ، حتى يبلغ لهم الحال التي إن تخطتها بأدنى أدب ، تلفت أنفسهم ، وبطلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق ، أشخاصهم كأشخاص العصاة من خشونة الوطاء ، وخشونة المطعم والمشرب وغلط الملبس ، مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله ، فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك ، فإني آثرت الله وديني على هواي وإرادتي ، فكذلك فليكن عملك ، وعليه فليكن أمرك ، ودبر في عمال الكور الذين تم بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يربّهم ، وظن يرعبهم ، وابسط من آمال أهل ذلك الشّعر ، ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ، ومن ولاك الله أمره إن شاء الله ، هذا عهدي وكتابي بخطي ، وأنا أشهد الله ولمائكته وحملة عرشه ، وسكن سمواته ، وكفى بالله شهيداً .

وكتب إليه أمير المؤمنين بخط يده ، ولم يحضره إلا الله ولمائكته »^(١) .

(١) كتاب الرشيد إلى هرثة في الطبرى : ٣٣٢/٨ ، ونرى فيه : إنصاف العامة والخاصة ، والأخذ لهم بحقوقهم ، وتغري أقصى مواضع الحق للسلم وغير المسلم .

ولما حمل هرثة علياً إلى الرّشيد ، كتب إليه كتاباً يخبره ما صنع ، ونسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمّا بعد ، فإن الله عزّ وجلّ لم يزل يبلي أمير المؤمنين في كلٌّ ماقلده من خلافته ، واسترعاه من أمور عباده وبلاه أجمل البلاء وأكمله ، ويعرفه في كلٌّ ماحضره ونأى عنه من خاصٌّ أموره وعامّها ، ولطيفها وجليلها أتم الكفاية وأحسن الولاية ، ويعطيه في ذلك كله أفضل الأمانية ، ويبلغه فيه أقصى غاية الهمة ، امتناناً منه عليه ، وحفظاً لما جعل إليه ، مما تكفل بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته . فيستمّ^(١) الله أحسن ماعوده وعوّدنا من الكفاية في كل ما يؤدينا إليه ، ونسأله توفيقنا لما تقضي به المفترض من حقه في الوقوف عند أمره ، والاقتدار على رأيه .

ولم أزل - أعز الله أمير المؤمنين - مذ فصلت عن معسكم أمير المؤمنين ممتلاً ما أمرني به فيما أنهضني له ، لا أجاوز ذلك ولا أتعدها إلى غيره ، ولا أتعرف اليُمن والبركة إلا في امثاله ، إلى أن حللتُ أوائل خراسان ، صائناً للأمر الذي أمرني أمير المؤمنين بصيانته وستره ، لا أفضي ذلك إلى خاصي ولا إلى عاميّ ، ودبرتُ في مكتبة أهل الشاش وفرغانة وخزلم^(٢) عن الخائن ، وقطع طمعه وطماع من قبله عنها ، ومكتبة من بيُلُغُ ما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين وفسّرت له ، فلما نزلت نيسابور عملت في أمر الكور التي اجترت عليها بتولية من وليت عليها ، قبل مجاوري إياها ، كجرجان ونيسابور ونسا وسرخس ، ولم آل الاحتياط في ذلك ، واختيار الكفافة وأهل الأمانة والصحة من ثقات أصحابي ، وتقدمت إليهم في ستر الأمر وكتابه ، وأخذت عليهم بذلك أيمان البيعة ، ودفعت إلى كلٌّ رجل منهم عهده بولايته ، وأمرتهم بالمسير إلى كور أعمالهم على أخفى الحالات وأسّرها ، والتّشبّه بالمجتازين في ورودهم الكور ومقامهم بها إلى الوقت الذي

(١) استمّ النعمة : سأل إقامها ، والمستمّ الذي يطلب التّمة [اللسان : تم] .

(٢) خزلم عن الخائن : أي إبعادها عنه .

سَمِّيَتْ لَهُمْ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدَرْتُ فِيهِ دَخْوَلِي إِلَى مَرْوَ ، وَالتَّقَائِي وَعَلِيُّ بْنُ عِيسَى ، وَعَمِلْتُ فِي اسْتِكْفَائِي إِسْمَاعِيلَ بْنَ حَفْصَ بْنَ مَصْعَبٍ أَمْرَ جَرْجَانَ بِمَا كُنْتُ كَتَبْتُ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَنَفَذَ أَوْلَئِكَ الْعَهَالُ لِأَمْرِي ، وَقَامَ كُلُّ رَجُلٍ مِّنْهُمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي وَقَّتَ لَهُ بِضْبَطِ عَمْلِهِ وَإِحْكَامِ نَاحِيَتِهِ ، وَكَفَى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤْنَةَ فِي ذَلِكَ بِلَطِيفٍ صَنْعَهُ .

وَلَا صَرَّتْ مِنْ مَدِينَةِ مَرْوَ عَلَى مَنْزِلٍ ، اخْتَرْتُ عِدَّةً مِّنْ ثَقَاتِ أَصْحَابِيِّ وَكَتَبَتْ بِتَسْمِيَةِ وَلَدِ عَلِيٍّ بْنِ عِيسَى وَكَتَابِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَغَيْرِهِمْ رِقَاعًا ، وَدَفَعْتُ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنْهُمْ رُقْعَةً بِاسْمِ مَنْ وَكَلَّتْهُ بِحَفْظِهِ فِي دَخْوَلِي ، وَلَمْ آمِنْ لَوْقَصَرْتُ فِي ذَلِكَ وَأَخْرَتْهُ أَنْ يَصِيرُوا عَنْدَ ظَهُورِ الْخَبَرِ وَاتِّشَارِهِ إِلَى التَّغْيِيبِ وَالْاِنْتِشَارِ ، فَعَمِلُوا بِذَلِكَ ، وَرَحَلْتُ عَنْ مَوْضِعيِّ إِلَى مَدِينَةِ مَرْوَ ، فَلَمَّا صَرَّتْ مِنْهَا عَلَى مِيلَيْنِ تَلَقَّانِي عَلِيُّ بْنُ عِيسَى فِي وَلَدِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَقَوْادِهِ ، فَلَقِيَتْهُ بِأَحْسَنِ لِقَاءِ ، وَأَنْسَتْهُ ، وَبَلَغَتْ مِنْ تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَالْتَّاقَسِ النُّزُولِ إِلَيْهِ أَوْلَ مَا بَصَرْتُ بِهِ مَا زَادَ بِهِ أَنْسًا وَثَقَةً ، إِلَى مَا كَانَ رَكِنْ إِلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، مَا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْ كَتْبِي ، فَإِنَّهَا لَمْ تَنْقُطْعْ عَنْهُ بِالْتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ مِنِّي لَهُ وَالْتَّاقَسِ ، إِلَّا لِقَاءُ سُوءِ الظَّنِّ عَنْهُ ، لَئِلَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ قَلْبُهُ أَمْرٌ يَنْقُضُ بِهِ مَا دَبَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِهِ ، وَأُمْرِنِي بِهِ فِي ذَلِكَ ، وَكَانَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِكَفَائِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرُ فِيهِ إِلَى أَنْ ضَمَّنَ وَإِيَاهُ مَجْلِسَهُ ، وَصَرَّتْ إِلَى الْأَكْلِ مَعَهُ ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنْ ذَلِكَ بَدَأْنِي يَسْأَلُنِي الْمَصِيرُ إِلَى مَنْزِلِ كَانَ ارْتَادَهُ لِي ، فَأَعْلَمْتُهُ مَا مَعِيَ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ تَأْخِيرَ الْمَنَاظِرَةِ فِيهَا ، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِ رِجَاءَ الْخَادِمِ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْلَغَهُ رسَالَتَهُ ، فَعْلَمَ عَنْدَ ذَلِكَ أَنْ قَدْ حَلَّ بِهِ الْأَمْرُ الَّذِي جَنَاهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَسَبَتْهُ يَدَاهُ ، مِنْ سُخْطَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَغْيِيرِ رَأْيِهِ بِخَلَافِهِ أَمْرُهُ وَتَعْدِيَهُ سِيرَتِهِ .

ثُمَّ صَرَّتْ إِلَى التَّوْكِيلِ بِهِ ، وَمَضَيَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ ، فَبَسَطَتْ آمَالَ النَّاسِ مِنْ حَضْرٍ ، وَافْتَتَحَتِ الْقَوْلُ بِمَا حَمَلْنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِمْ وَأَعْلَمْتُهُمْ إِعْظَامَ

أمير المؤمنين مأته ، ووضح عنده من سوء سيرة علي ، وما أمرني به فيه وفي عماله وأعوانه ، وإنني بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم ، وأمرت بقراءة عهدي عليهم ، وأعلمتهم أن ذلك مثالى وإمامي ، وأنني به أقتدى ، وعليه أحتدى ، فتى زلت عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمت نفسي ، وأحللت بها ما يحلّ بن خالف رأى أمير المؤمنين وأمره ، فأظهروا السرور بذلك والاستبشار ، وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم ، وكثروا دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء .

ثم انكفت إلى المجلس الذي كان علي بن عيسى فيه ، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتابه وعماله ، والاستياد منهم جمياً ، وأمرتهم بالخروج إلى من الأموال التي احتجنواها من أموال أمير المؤمنين وفيه المسلمين ، وإعفائي بذلك من الإقدام عليهم بالمكره والضرب ، ونادي في أصحاب ودائعيهم بإخراج ما كان عندهم ، فحملوا إلى إلى أن كتبت إلى أمير المؤمنين صدراً صالحًا من الورق والعين^(١) ، وأرجو أن يعين الله على استيفاء ما قبلهم ، واستنطاف ما وراء ظهورهم ، ويسهّل الله من ذلك أفضل مالم ينزل يعوده أمير المؤمنين من الصنع في مثله من الأمور التي يعني بها إن شاء الله تعالى .

ولم أدع عند قدومي مرو التقدم في توجيه الرسل وإنفاذ الكتب البالغة في الإعذار والإندار ، والتبيير والإرشاد ، إلى رافع^(٢) ومن قبله من أهل سرقة ، وإلى من يبلغ ، على حسن ظني بهم في الإجابة ، ولزوم الطاعة والاستقامة ، ومهمها تصرف به رسلي إلى يا أمير المؤمنين من أخبار القوم في إجابتهم وامتناعهم ، أعمل على حسبي من أمرهم ، وأكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حقه وصدقه ،

(١) الورق : الدرهم المضروبة ، والعين الدينار .

(٢) هو رافع بن ليث بن نصر بن سيار .

وأرجو أن يعرف الله أمير المؤمنين في ذلك من جميل صنعه ولطيف كفایته ، مالم
نزل عادته جاريةً به عنده ، بمنه وطوله وقوته والسلام^(١) .

فأجابه الرشيد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابتك بقدومك
مَرْوِي في اليوم الّذِي سَمِّيَتْ ، وعلى الحال الّذِي وصفت وما فَسَرْتْ ، وما كنت
قدَّمتْ من الحيل قبل ورودك إِيَاهَا ، وعملتْ به في أمر الْكُور الّذِي سَمِّيَتْ ،
وتولية مَنْ وَلَيْتَ قبل نفوذك عنها ، ولطفتْ له من الأمر الّذِي استجتمع لك به
ما أردتْ من أمر الخائن علي بن عيسى وولده وأهل بيته ، ومن صار في يدك من
عَمَّالِه وأصحابِ أَعْمَالِه واحتدائِك في ذلك كُلُّه ما كان أمير المؤمنين مثلَ لك
ووقفَك عليه ، وفهمَ أمير المؤمنين كُلُّ ما كتبتَ به ، وحمدَ الله على ذلك كثيراً ،
وعلى تسديده إِيَاكَ وما أعانك به من توفيقه ، حتَّى بلغتَ إِرادةَ أمير المؤمنين
وادركتَ طلبَتَه ، وأحسنتَ ما كان يُحِبُّ بك وعلى يديك إِحْكَامَه ، مما كان اشتَدَّ
به اعتناؤه ، ولجَّ به اهتمامه ، وجرازَكَ الْخَيْرُ عَلَى نصيحتِك وكفایتك ، فلا أعدم
الله أمير المؤمنين أحسنَ ما عُرِفَه منك في كُلِّ مَا أَهَابَ بك إِلَيْهِ ، واعتمدَ بك عليه .

وأمير المؤمنين يأمرك أن تزداد جدًا واجتهاداً فيما أمرك به من تتبع أموال
الخائن علي بن عيسى وولده وكتابه وعماله ووكلائه ووجهابذته ، والنَّظر فيما
اختانوا به أمير المؤمنين في أمواله ، وظلموا به الرعية في أموالهم ، وتتبع ذلك
واستخراجه من مظاذهن مواضعه ، الّتي صارت إِلَيْهِ ، ومن أيدي أصحاب الودائع
الّتي استودعها إِيَاهُم ، واستعمال اللّيْن والشدة في ذلك كُلُّه ، حتَّى تصير إلى
استنطاف ما وراء ظهورهم ، ولا تبقي من نفسك في ذلك بقية ، وفي إنصاف
النَّاسِ منهم في حقوقهم ومظلومهم ، حتَّى لا تبقي لتهم ملظالم إلاّ

(١) الطبرى : ٢٣٥/٨

استقضت ذلك له ، وحملته وإياهم على الحق والعدل فيها ، فإذا بلغت أقصى غاية الإحکام والبالغة في ذلك ، فأشخص الخائن وولده وأهل بيته وكتابه وعماله إلى أمير المؤمنين في وثاق ، وعلى الحال التي استحقوها من التغيير والتکيل بما كسبت أيديهم ، وما الله بظلام للعبيد .

ثم اعمل بما أمرك به أمير المؤمنين من الشخص إلى سمرقند ، ومحاولة ما قبل خامل ، ومن كان على رأيه من أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كور ما وراء النهر وطخارستان بالدعاء إلى الفيضة والمراجعة ، وبسط أمانات أمير المؤمنين التي حملّتها إليهم ، فإن قبلوا وأنابوا ورجعوا ما هو أملك بهم ، وفرقوا جوعهم ، فهو ما يحب أمير المؤمنين أن يعاملهم به من العفو عنهم والإقامة لهم ؛ إذ كانوا رعيته ، وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم إذ أجاهم إلى طلبهم ، وأمن رؤتهم ، وكفاهم ولاية من كرهوا ولایته ، وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلماتهم ، وإن خالفوا ماضنَّ أمير المؤمنين ، فحاكمهم إلى الله إذ طغوا وبغوا ، وكرهوا العافية ورددوها ، فإنَّ أمير المؤمنين قد قضى ماعليه ، فغير ونكّل ، وعزل واستبدل ، وعفا عنْ أحدٍ ، وصفح عنْ اجترم ، وهو يشهد الله عليهم بعد ذلك في خلاف إن آثروه ، وعنود^(۱) إن أظهروه ، وكفى بالله شهيداً ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم ، عليه يتوكلاه وإليه ينيب والسلام^(۲) .

إنها كتب تنطق بالإيان ، والالتزام الكامل بالإسلام ، مع تطبيق علی لشرع الله عز وجل في كل الأعمال في دولة الرشید .

وظهر من الخوارج أيام الرشید ، الوليد بن طريف الشّارِي الشّيّباني في نواحي نصيبين^(۳) ، سنة ۱۷۸ هـ / ، قضى عليه يزيد بن مزيد الشّيّباني ، وهو

(۱) عند عن الطريق عنوداً ، أي مال .

(۲) الطبری : ۲۳۷/۸ و ۲۳۷

(۳) نصيبين : مدينة عاصرة شمال الجزيرة ، بينها وبين القامشلي حالياً مئات الأمتار فقط .

ابن أخي معن بن زائدة ، فقضى عليه سنة ١٧٩ هـ / ، وقد رثته أخته الفارعة الشِّيَّانِيَّة بِأَيَّاتٍ مِّنْهَا :

فِي اشجَرِ الْخَابُورِ مَالِكُ مُورَقاً
فَتَّى لَا يُحِبُ الْزَّرَادَ إِلَّا مِنْ تَقِيٍّ
فِيَانِ يِيكَ أَوْدَاهِ يِيزِيدَ بْنَ مُزِيدَ
عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ وَقَاعِاً بِكُلِ شَرِيفٍ
كَانَكَ لَمْ تَجْزُعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَا وَسِيَوفٍ
فَرْبَ زَحْوَفَ لِفَهَا بِزَحْوَفٍ
أَرَى الْمَوْتَ وَقَاعِاً بِكُلِ شَرِيفٍ^(١)

☆ ☆ ☆

وَظَهَرَ فِي الْمُوْصَلِ عَام ١٨٠ هـ / الْعَطَافُ بْنُ سَفِيَّانَ الْأَزْدِي ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ الرَّشِيدُ ، فَانسَحَبَ الْعَطَافُ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ إِلَى أَرْمِينِيَّةَ .

وَلَا وَصَلَ الرَّشِيدُ الْمُوْصَلَ ، هُمْ أَنْ يَيْطَشُ بِأَهْلِهَا الْمَوَالِينَ لِلْعَطَافِ ، وَلَكِنَّ العَبَّاسَ بْنَ الْفَضْلِ ، وَكَانَ فَقِيهَا مُحَدِّثًا خَرَجَ إِلَى الرَّشِيدِ مَعَ مُوسَى بْنَ الْمَاهَاجِرِ ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّوْرِيِّ وَمُحَدِّثًا فَقِيهَا أَيْضًا ، وَخَرَجَ أَيْضًا سَعْدُ الْفَقِيهِ ، وَعَتِيقُ الْفَقِيهِ وَغَيْرُهُم .. فَتَوَسَّطُوا فِي الْأَمْرِ مَعَ أَبِي يَوْسَفِ الْقَاضِيِّ ، فَأَشَارُ عَلَيْهِمْ إِذَا جَنَّ الْلَّيْلَ أَنْ يَصْعُدَ النَّاسُ عَلَى سَطْوَحِهِمْ ، وَيَجْهَرُوا بِالْأَذَانِ لِعَشَاءِ الْآخِرَةِ ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَسَمِعَ هَارُونَ الرَّشِيدَ كَثْرَةَ الْأَذَانِ وَالضَّجَّةِ ، فَقَالَ لِأَبِي يَوْسَفَ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : أَذَانٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : وَيَحْكُ ، هُؤُلَاءِ مُؤْذِنُونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الْقَوْمُ مُسْلِمُونَ ، وَفِيهِمْ أَهْلُ الصَّالِحِ وَقُرَاءُ الْقُرْآنِ^(٢) ، وَأَهْلُ عِلْمٍ وَفَقْهٍ .

(١) راجع الأبيات كاملة في « تاريخ الشعوب الإسلامية » .

(٢) لاحظ أنَّ الرَّشِيدَ أَقْسَمَ عَلَى الْبَطْشِ هُمْ عِنْدَمَا عَلِمُوا أَنَّهُمْ مَارِقُونَ ، وَلَا تَأْكُدُ مِنْ صَلَاحِهِمْ وَعَالَمُهُمْ وَفَقْهِهِمْ تَرْكِهِمْ وَشَأْنِهِمْ ، فَلَمْ يَهْدِرْ دَمَ مُسْلِمٍ أَوْ غَيْرَ مُسْلِمٍ إِلَّا بِحَقٍّ وَتَحْقِيقٍ وَإِدَانَةٍ .

فاكفى الرّشيد بهدم سور المدينة ، ونادى مناديه : من هدم ما يليله من السُّور فهو آمن ، فهدم الناس سورهم بأيديهم .

ونادى المنادي : أمنَ الأسود والأبيض إلَّا العطاف بن سفيان ، وعبد العزيز بن معاوية ، والمعاف بن شريح ، وبيروييه الرّحبي ، ويعلى الثّقفي .

ولما أُلقي القبض على « المعاف » ، قال له الرّشيد : أنت المعاف ؟ قال : إنك المعاف يا أمير المؤمنين ، وأنا المبتلى بذنبي ، قال : هاتِ بيروييه ومنتصر ، قال : ما أقدر عليهما ، قال الرّشيد : برئت من المهدى ومن قرابتي لرسول الله عليهما السلام إن لم أقتلك . قال : يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ وفي رقبتي وصايا وأطفال ، فتهلني حتى أخرج الوصايا الّتى في عنقي وأوصي ، قال الرّشيد : أمهلتك إلى اللّيل .

قال المعاف : فوجّهت إلى اليانية - وسطاء وشعفاء لدى الخليفة - الذين معه ، الحسن بن قحطبة ، وعبد الله بن مالك الخزاعي ، ومحزنة بن مالك الخزاعي وغيرهم .. فركبوا إليه فاستوهبوني منه ، قال : فلا بد من حبسه سنة ، فخيروني أين أحبس ، فاخترت الحبس بالموصل وأن أطلق بعد سنة بغير استئجار ، فأمر بذلك .

وحدث عبد الله بن كردويه عن محمد بن يزيد بن علبك قال : « إنا كنا مع المعاف وهو يخاطب الرّشيد ونحن نرعد من كلامه »^(١) .

☆ ☆ ☆

(١) تاريخ الموصل : ٢٨٠ ، الأخبار الطوال : ٣٩٠ ، تاريخ ابن الوردي : ٢٨٠/١

ولاة الرّشيد وقضائهما

تخيّر الرّشيد ولاته وقضائه ،
وتتبّع أخبارهم !

إنّ ولع الرّشيد بالعلم لم يلّه عن مهام الملك ، فقد كان يشتراكاً فعلياً
في تصريف شؤون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه^(١) .

ولي هارون الرّشيد موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن
عبد الله بن العباس ، «الأمير أبا عيسى العباس الماشمي» إمرة مصر على
الصلاوة ، بعد عزل علي بن سليمان عنها ، ومن صفات هذا الأمير : كان عاقلاً
جواداً ممدحاً ، ولي الحرمين لأبي جعفر المنصور والمهدى مدة طويلة ، ثم ولي
اليمن للمهدى أيضاً ، ثم ولي مصر هارون الرّشيد^(٢) ، وكان فيه رفق بالرّعية
وتواضع .

جلس يوماً بميدان مصر ، فأطّال النّظر في النّيل ونواحيه ، فقيل له :
ما يرى الأمير ؟ فقال : أرى ميدان رهان وجنان خل ، وبستان شجر ، ومنازل
سكنى ، ودور خيل ، وجّان أموات ، ونهرأ عجاجاً ، وأرض زرع ، ومرعى
ماشية ، ومرتع خيل ، ومصايد بحر ، وقانص وحش ، وملاجّ سفينة ، وحدادى
إبل ، ومفارزة رمل ، وسهلاً وجبلًا في أقل من ميل في ميل .

(١) قصة الحضارة : ٩٢/١٣ :

(٢) ولقد هُم الرّشيد بوصول البحرين الأحمر (القلزم) بالتوسط - عن طريق النّيل - ولكن لم يجد
تشجيعاً من وزيره الذي قال : عندما تهدد سفن الروم مكة والمدينة ، [سيرة أعلام النّبلاء] :

. [٢٨٩/٩]

قيل له : « لَهُ دَرْهَمٌ فِيهَا وَصْفٌ مِنْ كَلَامٍ كَثُرٍ مَعَانِيهِ ، وَقُلْ لَفْظُهُ »^(١) .

ولما ولِي مسلمة بن يحيى على مصر ، لم نطل مدة ، لما حَدَثَ فِي ولايته من أمور وفتن ، فعزله الرشيد^(٢) . وولِي محمد بن زهير ، ثم عزله بعد خمسة أشهر تنقص أياماً ، وأحضره إليه ، فزجره وأنبه وعيّن من بعده داود بن يزيد^(٣) للصلوة ، وقدم معه إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي على الخراج ، فأمن الناس ، وسكن الحال .

وإبراهيم بن صالح هذا وصف في كتب التأريخ بما يلي : « وكان خيراً ديناً ممدحاً »^(٤) .

وفد عليه عباد بن عباد الخواص مرة ، فقال له إبراهيم : عظني ، فقال عباد : إن أعمال الأحياء تُعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ماذا يعرض على رسول الله عليه السلام من عملك ، فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه على لحيته ، رحمة الله تعالى^(٥) .

وموسى بن عيسى ، عاد إلى ولاية مصر بعد إبراهيم بن صالح أيضاً ، وكما يروي التأريخ : « أخذ في إصلاح أمور مصر ، وأصلاح بين قيس وبين » سنة ١٧٩ هـ^(٦) .

لما كان الفضل بن يحيى والياً على خراسان ، كتب صاحب البريد^(٧) إلى

(١) النجوم الزاهرة : ٦٧/٢

(٢) قدم مصر في رمضان ١٧٢ هـ ، وعزل في شعبان ١٧٣ هـ .

(٣) في ١٤ المحرم ١٧٤ هـ .

(٤) النجوم الزاهرة : ٨٣/٢ و ٨٤

(٥) النجوم الزاهرة : ٨٤/٢

(٦) النجوم الزاهرة : ٩٨/٢

(٧) صاحب الخبر ، أو صاحب البريد : قلم الاستخبارات ، عين الخليفة .

الرَّشِيدُ كِتَابًا يَذَكُرُ فِيهِ : أَنَّ الْفَضْلَ تَشَاغِلَ بِالصَّيْدِ وَاللَّذَاتِ عَنِ النَّظَرِ فِي أُمُورِ الرَّعِيَّةِ ، فَلَمَا قَرَأَهُ الرَّشِيدُ رَمَى بِهِ لِيَحِيَّ ، وَقَالَ لَهُ : يَا أَبَتِ اقْرَأْ هَذَا الْكِتَابَ ، وَاكْتُبْ إِلَى الْفَضْلِ كِتَابًا يَرْدِعُهُ عَنِ مُثْلِ هَذَا ، فَمَدَّ يَحِيَّ يَدَهُ إِلَى دَوَّاهُ الرَّشِيدِ ، وَكَتَبْ إِلَى ابْنِهِ عَلَى ظَهَرِ الْكِتَابِ الَّذِي وَرَدَ مِنْ صَاحِبِ الْبَرِيدِ :

« حَفْظُكَ اللَّهُ يَا بْنِي وَأَمْتَعْ بِكَ ، قَدْ انتَهَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ التَّشَاغِلِ وَمَدَّاْمَةِ الْلَّذَاتِ ، عَنِ النَّظَرِ فِي أُمُورِ الرَّعِيَّةِ مَا أَنْكَرْتَهُ ، فَعَاوِدْ مَا هُوَ أَزِينٌ بِكَ ، فَإِنَّهُ مَنْ عَادَ إِلَى مَا يَزِينُهُ أَوْ يَشِينُهُ لَمْ يَعْرِفْهُ أَهْلَ دَهْرِهِ إِلَّا بِهِ ، وَالسَّلَامُ » ، وَكَتَبْ تَحْتَهُ هَذِهِ الْأَيَّاتِ :

وَاصْبِرْ عَلَى فَقْدِ لِقَاءِ الْجَبِيبِ
وَغَابَ فِيهِ عَنْكَ وَجْهُ الرَّقِيبِ^(١)
فَإِنَّمَا الْلَّيلُ نَهَارُ الْأَرْبِيبِ
يُسْتَقْبِلُ الْلَّيلُ بِأَمْرٍ عَجِيبِ
فَبَاتَ فِي هُوَ وَعِيشٌ خَصِيبٌ
يَسْعَى بِهَا كُلُّ عَدُوٌّ مَرِيبٌ^(٢)

إِنْصَبْ نَهَارًا فِي طِلَابِ الْعَلَا
حَتَّى إِذَا الْلَّيلُ بَدَا مَقْبِلًا
فَبَادِرِ الْلَّيلُ^(٢) بِمَا تَشَهِي
كَمْ مِنْ فَتَنَّ تَحْسِبُهُ نَاسِكًا
أَلْقَى عَلَيْهِ الْلَّيلُ أَسْتَارَهُ
وَلَذَةُ الْأَخْمَقِ مَكْشُوفَةٌ

وَمِنْ وَلَةِ الرَّشِيدِ :

عَلَى السُّنْدِ ، سَالِمُ الْيُونَسِيُّ ، وَذَكَرَ الْيَعْقُوبِيُّ : « فَأَحْسَنَ السَّيْرَةَ »^(٤) ، ثُمَّ إِسْحَاقُ بْنُ سَلِيمَانَ بْنُ عَلِيِّ الْهَاشَمِيِّ « وَكَانَ عَفِيفًا »^(٥) ، وَفِي وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ : ٣٠٥/٢ : وَوَلِيَ السُّنْدَ أَيْضًا أَبُو حَاتَمَ رَوْحَ بْنَ حَاتَمَ الْأَزْدِيُّ ، مِنَ الْكَرْمَاءِ الْأَجَوَادِ ، وَأَخْوَهُ يَزِيدُ وَالْيَاً عَلَى إِفْرِيقِيَّةِ - أَيْ تُونِسِ حَالِيًّا - وَلَا تَوَفَّ يَزِيدُ يَوْمَ

(١) فِي وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ ٢٨/٤ : « وَاسْتَرَتْ فِيهِ وَجْهُ الْعِيُوبِ » .

(٢) فِي وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ ٢٨/٤ : فَكَابَدَ الْلَّيلَ .

(٢) فِي وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ ٢٨/٤ : ... عَدُوٌّ رَقِيبٌ .

(٤) وَ(٥) تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ : ٤٠٩/٢

الثلاثاء ١٨ رمضان سنة ١٧٠ هـ بعدينة القيروان ، قال أهل إفريقيا : ما أبعد ما يكون بين قبْرِيُّ هذين الأخوين ، فإنَّ أخاه بالسند وهذا هاهنا ، فاتفق أن الرشيد عزل روحًا عن السند وسيره إلى موضع أخيه يزيد ، فدخل إلى إفريقيا أولَ رجب سنة ١٧١ هـ ، ولم يزل واليًا عليها إلى أن توفي بها سنة ١٧٤ هـ ، ودفن في قبر أخيه يزيد ، فعجب الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد .

وعلى اليدين : العباس بن سعيد ، فضح منه الناس ، فصرفه الرشيد ، وعيَّن بدلاً منه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإمام ، ثم صرفه ، وعيَّن عبد الله بن مصعب ، ثم صرفه وعيَّن أحمد بن إسماعيل بن علي ، ثم صرفه وولي حماد البربرى ، ثم عبد الله بن مالك « فلم يزل في البلد محمود السيرة ، جميل المذهب حتى توفي هارون »^(١) .

لقد بدَّل الرشيد واليَا بآخر مرات ومرات ، حتَّى أوصل إلى اليدين من هو محمود السيرة ، جميل العشر .. وهذه من سُنَّة الرشيد في كل الأمصار . لقد تخَّير ولاته ، وجباته ، وقضاته .. ليأْمن الناس ، وليعيشوا في عدل ورخاء . ولم يكن منقطعاً عن أخبارهم ، لقد كان يحاسبهم ، والشكوى الصَّحيحة من أي فرد من أفراد الأُمَّة ، على والي البلد ، تقتضي العزل .

وعلى أرمينية : كان والي الرشيد خزيمة بن حازم التميمي فضبطها وصلحت البلاد ، وأعطي أهلها الطَّاعة ، ثم ولي يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني « فضبط البلد أشد ضبط »^(٢) .

ولما انتفضت أرمينية ، قال الرشيد « ما أرى لها إلاَّ الحرثي »^(٣) ، فاستقامت له لحزمه ، وجمع الرشيد ليزيد بن مزيد في فترة أرمينية وأذربيجان ، « فلما قدم تلاءمت الناس وأصلاح البلد »^(٤) .

(١) و(٢) تاريخ اليعقوبي : ٤٢٦/٢

(٣) و(٤) تاريخ اليعقوبي : ٤٢٨/٢

ولما حجَّ الرَّشِيد سنة ست وثمانين ومئة ، دخل مكَّةً وعديله يحيى بن خالد ، فانبرى إلَيْهِ العُمرِي فقال : يا أمير المؤمنين ! قف حتَّى أكملَك ! فقال : أرسلوا زمام النَّافَة ، فأرسلوه فوقفت فكَلَّنا أوتَدْتَ^(١) ، فقال : أقول ؟ قال الرَّشِيد : قُلْ ، فقال : اعزِّل عَنِّي إِسْمَاعِيلَ بْنَ الْقَاسِم ، قال الرَّشِيد : وَلِمَ ؟ قال : لأنَّه يقبل الرَّشْوَة ، ويُطْبِل النَّشْوَة ، ويضرب بالقصوة ، قال الرَّشِيد : قد عزلناه عنك . ثم التفتَ إلَيْهِ يحيى فقال : أَعْنَدُكَ مثْلَ هَذِهِ الْبَدْهِيَّة ؟ فقال يحيى : إِنَّه ليجبُ أَنْ يُحْسِنَ إلَيْهِ ، فقال الرَّشِيد : إِذَا عزلناه عنَّهُ مِنْ يُرِيدُ عزْلَهُ فقد كافأناه^(٢) .

وكان على دمشق الحسن بن عمران ، قال له الرَّشِيد بعد أن أحضره يرسف في قيوده : وليتك دمشق وهي جنة مونقة ، تخيطُهَا غَدَرُ الْلَّاجِين^(٣) ، فتكيف على رياض كالزَّرَابِي ، وكانت بيوت أموال فما برح التعدي ، حتَّى تركتها أجراة من الصَّخْر ، وأوحش من القفر !

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما قصدت لغير التَّوفيق من جهته ، ولكنني وليت أقواماً ثقلَ على أعناقهم الحق ، فتفرغوا في ميدان التعدي ، ورأوا أن المراومة بترك العمارَة أَوْقَع بِاضْرَارِ السُّلْطَان ، وأنوْه بالشنعة فلا جَرَمَ أَنْ موجَدَةَ أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظ الأوفر من مساعي^(٤) !

وهذا مثال أيضاً لمحاسبة الرَّشِيد لولاته ، ومعاقبة المساء منهم . وهذا مثال آخر :

(١) أوتَدَ الْوَتَدَ : ثبَتَه .

(٢) زهرة الآداب وثرة الألباب : ٩٩٠ .

(٣) زهرة الآداب وثرة الألباب : ٧١٩ ، والغَدَر : جمع غَدَر ، واللَّاجِين : الفضة .

(٤) قالوا : وهذا أَجْزَلُ كلامَ سَعْيِ الْخَائِف ، وهذا ما كنا نسمعه عن الحكاء : « أَفْضَلُ الْأَشْيَاء بَدْهِيَّة أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَقَامِ خَوْفٍ ». .

سخط الرّشيد على عبد الملك بن صالح - وكان والياً على الموصل - فدخل عليه فقال : أَكْفَرَ بِالنُّعْمَةِ ، وَجَحْدَ الْخَرِيدَ الْمِنَّةِ ؟ قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ بُؤْتَ إِذَا بِالنَّدْمِ ، وَتَعَرَّضْتَ لِاستِجلَابِ النَّقْمِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِغَيْرِ حَاسِدٍ نَافِسِيَ فِيكَ مُوَدَّةَ الْقِرَابَةِ ، وَتَقْدِيمَ الْوَلَايَةِ ، إِنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أُمَّتِهِ ، وَأَمِينَهُ عَلَى عَتْرَتِهِ ، لَكَ عَلَيْهَا فِرْضُ الطَّاعَةِ ، وَأَدَاءُ النَّصِيحَةِ ، وَهَا عَلَيْكَ الْعَدْلُ فِي حُكْمِهَا ، وَالغَفْرَاءُ لِذُنُوبِهَا ، فَقَالَ لِهِ الرّشيدُ : أَتَنْصَعُ لِي مِنْ لِسَانِكَ ، وَتَرْفَعُ لِي مِنْ جَنَاحِكَ ؟ هَذَا كِتَابٌ « أُمَّامَةً » بِخَبْرِ فَعْلِكَ ، وَفَسَادِ نَبِيِّكَ فَاسِعٌ كَلَامَهُ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُلْكَ : أَعْطَاكَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، وَلَعِلَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَعْضُهُنِي^(١) ، وَلَا يَبْهَتْنِي^(٢) بِمَا لَمْ يَعْرِفْهُ مِنِّي ، فَأَحْضَرَ أُمَّامَةً ، فَقَالَ لِهِ الرّشيدُ : تَكَلَّمْ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا خَائِفٍ . فَقَالَ : أَقُولُ إِنَّهُ قَدْ عَزَمَ عَلَى الْغَدَرِ بِكَ وَالْخَلَافَ عَلَيْكَ .

قال عبد الملك : كيف لا تكذب عليًّ من خلفي وأنت تبهتني في وجهي .

قال الرشيد : وهذا ابنك عبد الرحمن أخبرني بغدرك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل عليك من هذين ، فبم تدفعهما عنك ؟ فأجاب عبد الملك : فإنَّ عبد الرحمن هو بين مأمور أو عاق مجنون ، فإنَّ كان مأموراً فمعذرة ، وإنْ كان عاقاً ففاجر كفور ، أخبر الله بعداوته ، وحذر منها ، حيث يقول تبارك اسمه : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَادِكُمْ عَدُوًا لَكُمْ فَاخْذُرُوهُمْ﴾ ، [التغابن : ١٤/٦٤] ، فنهض الرشيد وهو يقول : أما أمرك فقد وضح ولكنني لأعجل عليك حتى أعلم الذي يرضي الله فيك ، فإنه الحكم بيدي وبينك .

(١) عضه عضها ، بفتح العين وسكون الضاد أو فتحها : كذب ونم .

(٢) بفتح الباء وسكون الماء أو فتحها ، وبهتانا : قال عليه مالم يفعل .

قال عبد الملك : رضيت بالله حكماً ، وأمير المؤمنين حاكماً ، فإني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه .

فلاما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فدخل عبد الملك ، فسلم ، فلم يرد عليه الرشيد ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوم أحتاج فيه ولا أجاذب منازعاً .

قال الرشيد : لم ؟ قال : لأن أوله جرى على غير السنة ، فإني أخاف آخره . قال الرشيد : وما ذلك ؟ قال : لم ترد على السلام ، انصف نصفة العوام . قال الرشيد : السلام عليك اقتداء بالسنة ، وإيشاراً للعدل ، واستعمالاً للتحية ، ثم التفت إلى سليمان بن أبي جعفر فقال : أريد حياته ويريد قتلي ، ثم قال : والله لكي أنظر إلى شؤوبها قد هم ^(١) .

من قضاة الرشيد ^(٢) :

كان على المدينة المنورة ثم مكة المكرمة : عبد الله بن محمد بن عمران ، ثم جاء سعيد بن سليمان بن نوفل على المدينة المنورة ، ثم خلفه أبو البختري وهب بن وهب ، الذي أراد الدخول على الرشيد ؛ فخرج خادم الرشيد وقال له : يقول لك أمير المؤمنين هات طويتك ^(٣) ، فأخذها فأدخلها ثم أخرجها وقد قطع منها أربعة أصابع ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين لا تتعنت في زيك .

وتعاون القضاء في البصرة ، كل من : عمر بن عثمان ^(٤) ، ومعاذ بن معاذ ،

(١) ورد النص كاملاً في مختصر ثقافة الرشيد .

(٢) انظر : أخبار القضاة ، لمحمد بن خلف بن حيان المعروف بوكيع .

(٣) الطويلة : قنسوة طويلة عالية ، وكان هذا النوع خاصاً بالأمراء والقضاة كما تدل على ذلك عبارة للبيهقي في كتاب : الحasan والمساوي ، وفي كتاب (التأاج) للجاحظ : « كان الحجاج بن يوسف إذا وضع على رأسه طويلة لم يجرئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثله ». .

(٤) وعندما حج استخلف على البصرة معاوية بن عبد الكريم الضال ، (ضل وهم صبي فسّي الصيالي) .

وعمر بن حبيب العدوبي ، « لم يكن قاضٍ أهيب منه » ، محمد بن عبد الله الأنصاري ، وعبد الله بن سوار بن عبد الله بن قدامة ، « ذو عقل وفهم ، كان يشاور ، فلم يرَ من القضاة أحد هو أصح سجلات منه ، فلم يكن ينفّذ شيئاً إلا بشورة » .

وكان على الكوفة : إسماعيل بن حماد .

وعلى الحيرة : القاسم بن معن ، « لما قدم الرّشيد الحيرة ، أقام أربعين يوماً ، فلم يأته القاسم بن معن ، فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين ، قدمت منذ أربعين يوماً ، ولم يبق أحد من أشرافها وقضاتها إلا وقف عند بابك ، إلا هذا القاضي ، قال : ما أعرفني أي شيء تريد ؟ ! ت يريد أن أعزله ، لا والله لا أعزله » .

وعلى بغداد : سعيد بن عبد الرحمن الجحوي ، والحسين بن الحسن بن عطية العوفي ، « وعندما هرم تقدّمت منه امرأة فجعلت تدعى على خصمها ويستفهمها ، فلما أكثرت قالت له : يا شيخ ، طالت لحيتك ، وعظمت غفلتك ، والله ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك ، فكتب بها صاحب الخبر ، إلى الرّشيد ، فصرفة .

وكانَ السُّلْطَةُ التَّنْفِيذِيَّةُ ملزَمَةً بِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ السُّلْطَةِ الْقَضَايَيَّةِ :

قال الرّشيد لإبراهيم بن عثمان : صر إلى باب عيسى بن جعفر ، فاختم أبوابه كلها ، ولا تخرجن أحداً منها ، ولا يدخل حتى يخرج إلى الرجل من حقه أو يصير إلى الحاكم ، فأحاط إبراهيم بداره حسين فارساً ، وغلقت أبوابه ، فظن عيسى أن الرّشيد يريد به سوءاً ، فأخبره بخبر القاضي (علي بن ظبيان العبسي) ، فأحضر حمس مئة ألف من ساعته ، وأمر أن تدفع إلى الرجل ، فجاء إبراهيم فأخبر الرّشيد ، فقال : إذا قبض الرجل ماله ، فتحت أبوابه .

☆ ☆ ☆

وجيء بعد الله بن إدريس ، وحفص بن غياث ، ووكيع بن الجراح إلى هارون الرشيد يولّهم القضاء ، فأمّا ابن إدريس ، فدخل يمشي مشية المفلوج ، ثمّ قال : السلام عليكم ، وطرح نفسه ، فقال هارون : ليس في هذا فضل ، وأخرجَه .

وأمّا وكيع ، فإنه قال له : تلي لي القضاء ، قال : يا أمير المؤمنين ، وأشار بسبابته إلى عينه : ما أبصرت بها منذ سنة ، فظنّ الرشيد أنّه يعني عينه ، وإنما عنى وكيع سبابته . فقال هذا عذر^(١) .

وأمّا حفص بن غياث فإنه قال له : على دين ، ولني عيال ، فإنْ كفيتني وأغفنتني وإلاً ولّيت .

قال الرشيد : بل ، فولاه القضاء .

ولذلك قيل : أهل الكوفة اليوم بخير : أميرهم داود بن عيسى وقاضيهم حفص بن غياث ، ومُحْسِبُهُم^(٢) حفص الدورقي .

حفص بن غياث القاضي^(٣) :

باع رجل من أهل خراسان جمالاً بثلاثين ألف درهم من مربستان الجوسى ، وكيل أم جعفر ، فمطله ثنها وحبسه عن سفره ، وطال ذلك على الرجل ، فأتقى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره ، فقال له : اذهب إليه فقل له : أعطني

(١) من شروط القضاة : سلامة السمع والبصر والنطق ، لیسأل الخصوم ، ويستمع إلى أقوالهم ، ويرى ما يصنعون بمحضرته .

(٢) الجاسبة : أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله . وهي تتعلق بالنظام العام والأداب ، ومراقبة الأسواق والتجار وأرباب الجرづ ، يمنعهم من الغش في تجارتهم وعلمهم ومصنوعاتهم ، ويأخذهم باستعمال المكاييل والموازين الصّحيحة ، ورئاً سعر عليهم بضائعهم .

(٣) وفيات الأعيان : ١٩٩/٢

ألف درهم وأحيل عليك ببقيّة المال ، وأخرج إلى خراسان ، فإذا فعلت هذا فأخبرني حتى أشير عليك ، ففعل الرجل وأتى مرببان فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره فقال : عذرًا إليه فقل له : إذا ركبت غداً فطريقك على القاضي تحضر ، وأوكل رجلاً بالقبض على المال وأخرج ، فإذا جلس إلى القاضي فادع عليه بما بقي لك من المال ، فإذا أقرَّ حبسه القاضي وأخذت مالك . فرجع إلى مرببان فسألَه فقال : انتظري بباب القاضي ، فلما ركب من الغد وثب إليه الرجل وقال : إن رأيت أن ترك إلى القاضي حتى أوكل بقبض المال وأخرج ، فنزل مرببان إلى حفص المذكور فقال الرجل : أصلاح الله القاضي ، لي على هذا الرجل تسعه وعشرون ألف درهم ، فقال حفص : ماتقول يا مجوسي ؟ قال : صدق ، أصلاح الله القاضي ، فقال القاضي : ماتقول يارجل فقد أقرَّ لك ، فقال : يعطيوني مالي ، فأقبل حفص على المجوسي فقال : ماتقول ؟ فقال : هذا المال على السيدة ، فقال : أنت أحق تقرَّ ثم تقول على السيدة ؟ ماتقول يارجل ؟ قال : أصلاح الله القاضي ، إن أعطاني مالي وإلا حبسه ، قال حفص : ماتقول يا مجوسي ؟ قال : المال على السيدة ، فقال حفص : خذوا بيده إلى الحبس ، فلما حبسَ بلغ الخبر أم جعفر ، فغضبت وبعثت إلى السندي : وجّه إلى المرببان ، وكانت القضاة تحبس الغرماء في مجلس الشرط ، فأخرجه ، وبلغ الخبر حفصةً فقال : أحبس أنا ويخرج السندي ؟ لا جلستُ مجلسي هذا أو يردُّ مرببان إلى الحبس ، فجاء السندي إلى أم جعفر فقال : الله الله في ، إنه حفص بن غياث ، وأخاف من أمير المؤمنين أن يقول لي : بأمر منْ أخرجه ؟ ردّيه إلى الحبس ، وأنا أكلم حفصةً في أمره ، فرجع مرببان إلى الحبس فقالت أم جعفر لها رون : قاضيك هذا أحق ، حبس وكيلي واستخفت به ، فره لا ينظر في الحكم ، وتولّي أمره أبا يوسف ، فأمر لها بالكتاب ، وبلغ حفصةً الخبر ، فقال : أحضرني شهوداً حتى أسجل لك على المجوسي ؛ وجلس حفص وسجل على المجوسي بالمال ، وورد

كتاب هارون مع خادم فقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال : مكانك ؛ نحن في شيء حتى نفرغ منه ، فقال : كتاب أمير المؤمنين ، فقال : انظر ما يقال لك ، فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم فقرأه فقال : اقرأ على أمير المؤمنين السلام ، وقل له إن كتابه ورد وقد أنفدت الحكم ، فقال الخادم : قد عرفت ما صنعت ، أبىت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد ؛ والله لا أخبرنَّ أمير المؤمنين بما فعلت ! فقال حفص : قل له ما أحببت ، فجاء الخادم فأخبر هارون فضحك وقال للحاجب : مِرْ لِحْفَصِ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَم ، فركب يحيى بن خالد ، فاستقبل حفصاً منصراً من مجلس القضاء ، فقال : أَيُّهَا الْقَاضِيَ قَد سَرَرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمْرَ لَكَ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمَ فِيمَا سَبَبَ ؟ فَقَالَ : ثُمَّ اللَّهُ سَرُورُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَحْسَنُ حَفْظِهِ وَكُلَّهُ ، مَا زَادَتْ عَلَى مَا أَفْعَلَ كُلَّ يَوْمٍ ، سُجِّلْتْ عَلَى مَرْزَبَانِ الْمَجْوِسِيِّ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ ، قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : فَمَنْ هَذَا سَرِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ حَفْصٌ : الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا ، فَقَالَتْ أُمُّ جَعْفَرٍ هَارُونُ : لَا إِنَّا وَلَا أَنْتَ إِلَّا أَنْ تَعْزِلَ حَفْصًا ، فَأَبَى عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَلْحَتَ عَلَيْهِ فَعَزَّلَهُ عَنِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَوَلَاهُ قَضَاءُ الْكُوفَةِ ، فَمَكَثَ عَلَيْهَا ثَلَاثَ عَشَرَةَ سَنَةً .

وكان أبو يوسف لما ولد حفص القضاة قال لأصحابه : تعالوا نكتب نوادر حفص ، فلما وردت أحكامه وقضائاه على أبي يوسف قال له أصحابه : أين النوادر التي زعمت بكتابها ؟ قال : ويحكم إن حفصاً أراد الله فوققه .

وقال حفص : والله ما وليت القضاة حتى حللت لي الميالة ؛ (من الفقر) .

ومات رحمه الله ولم يخلف درهماً ، وخلف عليه تسعة مئة درهم ديناً .

وكان يقال : ختم القضاة بمحض بن غياث .



وكان على قضاء الموصل سنة ١٧٠ هـ ، علي بن مسهر ، قال علي هذا : لما ولأني هارون الرشيد قضاة الموصل ، دخلت عليه فقال لي : يا علي ! إذا أتاك شاهد الزور ما ت العمل به ؟ قال : قلت : فيه اختلاف يا أمير المؤمنين ، في قول يقال لأهل الحيّ هذا شاهد زور فاعرفوه . وفي قول عمر بن الخطاب أن يضرب ويُسْخَم^(١) ويُطاف به . فقال الرشيد : يا علي خذ بقول عمر بن الخطاب لقول رسول الله عليه صلوات الله عليه : « إن الله عز وجل ضرب الحق على لسان عمر »^(٢) .

أحضر الرشيد رجلاً ليوليه القضاء ، فقال له : إني لأحسن القضاء ، ولا أنا فقيه ، قال الرشيد : فيك ثلات خلل : لك شرف ، والشرف يمنع صاحبه من الدّناءة ، ولنك حلم يمنعك من العجلة ، ومن لم يعدل قل خطوه ، وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور كثرا صوابه ، وأماماً الفقه فسينضم إليك من تتفق به ، فوليـ فـا وـجـدـواـ فـيـهـ مـطـعـناـ^(٣)



(١) السُّخْمَة : السُّوَاد ، وسُخْمَ وجه فلان ، أي سُوَد .

(٢) تاريخ الموصل : ٢٦٦ :

(٣) عيون الأخبار : ١٧١ و ١٨

جهاد الرشيد

قال أبو معاوية الضرير : حدثت هارون الرشيد بهذا الحديث ، يعني قول النبي ﷺ : « وددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل » ، فبكى الرشيد حتى انتصب ثم قال : يا أبو معاوية ، ترى لي أن أغزو ؟ قلت : يا أمير المؤمنين مكانك في الإسلام أكبر ، ومقامك أعظم ، ولكن تُرْسِلُ الجيوش^(١) ..

« لم يظهر خليفة - من قبل أو بعد - ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاط في مختلف حركاته ، سواء أكانت في سبيل الحج ، أو الإدارة ، أو الحرب ». وقد كان يقود جيشه بنفسه في ميادين القتال ، واحتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة .

جهاد الرشيد ، جهاد دائم ، إن لم يكن في حج فهو في غزو ، فقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً ، وعقد المدنة بين المسلمين والروم ، بعد محاصرته القسطنطينية ، وكان الصلح مع امرأة « ليون » وهي الملقبة بأغسطة ، على حمل كثير تبذل للMuslimين في كل عام^(٢) .

إنه جبار بني العباس ، لأنّه أغزى ابنه القاسم الروم ، فقتل منهم خمسين ألفاً ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بالسرور واللجم الفضة ، وأغزى علي بن

(١) تاريخ عداد : ١٤/١٤

(٢) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠

عيسى بن ماهان بلاد الترك ، فقتل منهم أربعين ألفاً ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم
فتح هرقلة ، وأخذ الجزية من ملك الروم^(١) .

ومما عمله الرشيد إقامته « ديوان العرض » ملحاً بديوان الحرب ، ومن
وظائفه استعراض الجند ، ومعرفة كفاءاتهم ، من قبل مشرفين متخصصين .
وألف بعضهم كراسات في الهندسة الحربية ، كالتعبيئة ، وطرق الاستيلاء على
المحصون ، وتشييد القلاع ، وفي الفروسية ، وفي الحصار ..

لقد كانت حياة الرشيد جهاداً مستمراً حافلاً :

فمن يتطلب لقاءك أو يرده
في أرض العدو على طير^(٢)
وما حاز التغور سواك خلق^(٣)
فبالحرمين أو أقصى التغور

هذا الجهد الطويل المستمر ، نقتطف منه ما يلي :

في سنة إحدى وثمانين ومية ، غزا أرض الروم ، فافتتح بها عنوة حصن
الصفصاف ، فقال مروان بن أبي حسنة :

إنَّ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّفَصَافَ قَاعاً صَفَصَا^(٤) قد ترك الصَّفَصَافَ

(١) صبح الأعشى : ٤٥٢/١ ، هذا .. ولقد عاصر الرشيد في الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل : (١٢٨ - ١٧٢ هـ) ، ثم هشام بن عبد الرحمن : (١٧٢ - ١٨٠ هـ) ، ثم الحكم بن هشام : (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) .

(٢) الآتان الطمرة : الشديدة العدو ، قال السيرافي : الطمير مشتق من الطُّمور ، وهو الوتب ، وإنما يعني بذلك سرعته [اللسان : طمر] ، والكور . في عجز البيت - : الرحيل .

(٣) تاريخ بغداد : ١٤/١٠ ، والأبيات فيه لأبي الشغلي ، وفي الطبرى لأبي المعالي الكلابى ، والرواية هنا للطبرى : ٣٢١/٨ .

(٤) وفي البداية والنهاية : ١٧٧/١٠ « المُنصِفَا » ، وتاريخ ابن الوردي : ٢٨٠/١ ، وتاريخ الموصى : ٢٨٠ ، وفي الأخبار الطوال : ٣٩٠ اسم المدينة « مُنصِفَ » .

(٥) تاريخ الموصى : ٢٩٠

وفي سنة ١٨٧ هـ نقض صاحب الرُّوم تقفور الصُّلح الذي كان بين المسلمين وبين الإمبراطورة أريني ، بعد أن خلعها الروم وملكته ، والرُّوم تذكر أنَّ تقفور هذا من أولاد جفنة من غسان ، وأنَّه قبل الملك كان يلي ديوان الخراج ، ثم ماتت أريني بعد خمسة أشهر من خلع الروم إياها ، فتأكد تقفور أنَّ الرُّوم قد استوست^(١) له بالطاعة ، فكتب إلى الرَّشيد :

من تقفور ملك الرُّوم ، إلى هارون ملك العرب ، أمّا بعد ، فإنَّ الملكة التي كانت قبلى ، أقامتك مقام الرُّخ^(٢) وأقامت نفسها مقام البَيْدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقةً بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتدي نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك .

فلما قرأ الرَّشيد الكتاب ، استفزَّه الغضب حتى لم يكن لأحدٍ أن ينظر إليه دون أن يناظبه ، وتفرق جلساوه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم ، واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الرُّوم ، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة ، والجواب ماتراه لا ماتسمعه ، والسلام^(٣) .

ثم شخص من يومه ، وسار حتى أناخ بباب هِرقلة ، ففتح وغم ، وخرب

(١) استوست لك الأمر إذا أمكنك ، والاتساق : الانتظام ، [اللسان : وسق] .

(٢) الرُّخُ : من أداة الشطرنج ، والجمع رخاخ ، قال الليث : الرُّخ معرَّب من كلام العجم ، [اللسان : رخ] . والبيدق من أدلة الشطرنج أيضاً ، ويتمثل جندياً ، ومعروف أن الرُّخ أقوى حركة وقيمة من البيدق على رقعة الشطرنج .

(٣) الكامل في التاريخ : ١١٨/٥ ، البداية والنهاية : ١٩٣/١٠ ، تاريخ ابن الوردي : ٢٨٢/١ ، تاريخ الموصل : ٣٠٩ ، تاريخ الخلفاء : ٢٨٨ -

وحرق ، فطلب نقفور المادعة على خراج يؤديه في كل سنة ، فأجابه الرشيد إلى ذلك ، فلما رجع من غزوه ، وصار بالرقة تقض تقفور العهد ، وخان الميثاق ، وكان البرد شديداً ، فيئس تقفور من رجعة الرشيد إليه ، وجاء الخبر بارتداده مما أخذ عليه ، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكراهة في مثل تلك الأيام ، فاحتليل له بشاعر يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف فقال :

تقضَ الْذِي أُعْطِيَتَهُ نِقْفُورٌ
فَتُحَلِّ يَزِيدَ عَلَى الْفَتوحِ يَؤْمِنُنا
أَبْشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ
فَلَقِدْ تَبَاشَرَتِ الرَّعِيَّةُ أَنْ أَتَى
وَرَجَتْ يَمِينَكَ أَنْ تَعْجَلَ غَزَوةً
أَعْطَاكَ جَزِيَّةً وَطَاطِأً خَدَّةً
فَأَجْرَتْهُ مِنْ وَقِعَاهَا وَكَانَهَا
وَصَرَفَتْ بِالظُّولِ الْعَسَاكِرَ قَافِلًا
نِقْفُورُ إِنَّكَ حِينَ تَغْدِيرُ إِنْ نَأَى
أَطْنَنتَ حِينَ غَدَرْتَ إِنَّكَ مَفْلَتُ
الْقَالَكَ حَيْنِكَ فِي زَوَاجِرِ بَحْرِهِ
إِنَّ الْإِمَامَ عَلَى اقْتَسَارِكَ قَادِرٌ
لِيُسَّ إِلَمَامَ وَإِنْ غَفَلْنَا غَافِلًا
مَلِكَ تَجَرَّدَ لِلْجَهَادِ بِنَفْسِهِ
يَا مَنْ يَرِيدُ رَضَا إِلَهَ بِسْعِيهِ
لَا نُصَحَّ يَنْفَعُ مَنْ يَغْشُ إِمامَةً
نُصَحَّ الْإِمَامُ عَلَى الْأَنَامِ فَرِيشَةً

(١) البيت في « الكامل في التاريخ ». .
(٢) الطبرى : ٣٠٨/٨ و ٣٠٩

وفي ذلك يقول إسماعيل بن القاسم « أبو العتاهية » :

وأصبحتَ تُسْقِي كُلُّ مُسْتَطِيرٍ رِيَا
فَأَنْتَ الَّذِي تُدْعِي رَشِيدًا وَمَهْدِيَا
وَإِنْ تَرْضَ شَيْئًا كَانَ فِي النَّاسِ مَرْضِيَا
فَأَوْسَعْتَ شَرْقِيَا وَأَوْسَعْتَ غَربِيَا
فَأَصْبَحَ وَجْهُ الْأَرْضِ بِالْجَبُودِ مُؤْشِيَا
وَكَانَ قَضَاءُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ مَقْضِيَا
فَأَصْبَحَ تِقْفُورَ هَارُونَ ذِمَّيَا^(١)

إِمامُ الْهُدَى أَصْبَحَتَ بِالدِّينِ مَعْنِيَا
لَكَ اسْمَانٌ شَقَّا مِنْ رَشَادٍ وَمِنْ هَدَى
إِذَا مَا سَخَطْتَ الشَّيْءَ كَانَ مَسْخَطَا
بَسْطَتَ لَنَا شَرْقاً وَغَربَاً يَدَ الْعَلَا
وَوَشَّيْتَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالْجَبُودِ وَالنَّدَى
قَضَى اللَّهُ أَنْ يَصْفُو هَارُونَ مَلَكُه
تَحْلُبْتِ الدُّنْيَا هَارُونَ بِالرِّضا

وقال الحجاج بن يوسف التميمي :

لَمَ رَأَتْهُ بَغِيلِ الْلَّيْثِ قَدْ عَبَشَا
إِنْ فَاتَ أُنْيَايَةٌ وَالْمِلْخَلَبَ الشَّبِيشَا
خَوْبَايَهِ، لَا عَلَى أَعْدَائِهِ نَكَشَا
أَذَاقَهُ غَرَّ الْحَلْمِ الَّذِي وَرِثَا
أَزْوَاجَهُ مَرِهَا يَتَكَيْنَةٌ شَعِيشَا^(٢)

لَجْتُ بِنَقْفُورِ أَسْبَابِ الرَّدَى عَبَشَا
وَمَنْ يَزُرْ غِيلَةٌ لَا يَخْلُ منْ فَزَعِ
خَانِ الْعَهْوَةِ وَمَنْ يَنْكُثُ بِهَا فَعَلَى
كَانَ إِلَامَ الَّذِي تَرْجَى فَوَاضِلَةَ
فَرَدَّ الْفَتَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ عَطَفَتْ

فَلَمَا فَرَغَ مِنْ إِنْشَادِهِ ، قَالَ الرَّشِيدُ : أَوْ قَدْ فَعَلْتَ تِقْفُورَ ذَلِكَ ؟ ! وَلَمْ أَنْ
الْوُزَراءَ قَدْ احْتَالُوا لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَكَرَرَ رَاجِعًا فِي أَشَدِّ مُحْنَةٍ وَأَغْلَظَ كُلْفَةً حَتَّى أَنْاخَ
بِفَنَائِهِ ، فَلَمْ يَبْرُحْ حَتَّى رَضِيَ وَبَلَغْ مَا أَرَادَ ، وَأَذْلَلَ تِقْفُورَ وَجْنَدَهُ ، فَقَالَ
أَبُو العَتاهية :

مِنَ الْمَلِكِ الْمُؤْفَقِ بِالصَّوَابِ
وَيَبْرُقُ بِالْمَذَكُورِ الْقِضَابِ

أَلَا نَادَتْ هِرَقْلَةُ بِالْخَرَابِ
غَدَا هَارُونُ يَرْعَدُ بِالْمَنَابِ

(١) المرجع السابق : ٣٠٩

(٢) المرجع السابق : ٣١٠ . والمرءة : ضد الكحل ، والمرءة : البياض الذي لا يخالطه غيره ، وامرأة
مُرْهَاء : لا تتعهد عينيها بالكحل ، [اللسان : مره] .

واريَاتٍ يَحِلُّ النُّضُرُ فِيهَا
تَمُرُّ كَانْهَا قِطْعَةُ السَّحَابِ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ظَفِيرَةُ فَاسِلَمٌ
وَأَبْشِرُ بِالْغَنِيمَةِ وَالْإِيَابِ^(١)

وَمَا يَظْهِرُ حُبُّ الرَّشِيدِ لِلمُجَاهِدِينَ وَالْجَهَادِ ، أَوْ حُبُّ الرَّعْيَةِ كُلُّهُمْ بِشَكْلِ
عَامٍ ، أَنَّهُ فِي سَنَةِ ١٨٩ هـ فَادِيَ الْأَسْارِيَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا بِبِلَادِ الرُّومِ ، حَتَّى
إِنَّهُ لَمْ يَتَرَكْ بِهَا أَسِيرًا وَاحِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

وَفَكَّتْ بِكَ الْأَسْرِيَ الَّتِي شَيَّدَتْ لَهَا
مَجَالِسَ مَا فِيهَا حَمِيمٌ يَزُورُهَا
عَلَى حِينِ أَعْيَا الْمُسْلِمِينَ فَكَأْكُها
وَقَالُوا سُجُونُ الْمُشْرِكِينَ قَبُورُهَا^(٢)

وَفِي عَامِ ١٩٠ هـ ، غَزَا الرَّشِيدُ الصَّائِفَةَ ، وَفِيهَا فَتْحُ هِرْقَلَةَ ، وَبِثَّ الْجَيُوشَ
وَالسُّرَايَا بِأَرْضِ الرُّومِ : لَقِدْ سَيَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكَ إِلَى ذِي الْكَلَاعِ ، وَوَجَّهَهُ
دَاوُدُ بْنُ عَيْسَى بْنُ مُوسَى سَائِحًا فِي أَرْضِ الرُّومِ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا ، وَجَعَلَ
لِشَرَاحِيلِ بْنِ مَعْنَى بْنِ زَائِدَةِ حَصْنَ الصَّقَالِيَّةِ وَدَبَسَةً ، وَافْتَتَحَ يَزِيدُ بْنُ مُخْلَدَ
الصَّفَصَافَ وَمَلْقُوبَيَّةَ وَدَخَلَ الرَّشِيدَ نَفْسَهُ إِلَى هِرْقَلَةَ .

وَبَعْدَ هَذَا الْفَتْحِ الْكَبِيرِ وَلِي الرَّشِيدُ حَمِيدُ بْنُ مَعِيَوفَ سَوَاحِلَ بَحْرِ الشَّامِ إِلَى
مَصْرَ ، فَنَزَلَ قَبْرَصَ وَغَزَا فِيهَا ، لَمَّا نَقْضَ أَهْلَهَا الْعَهْدَ^(٣) . ثُمَّ نَزَلَ الرَّشِيدُ الطُّوَانَةَ ،
فَعَسَكَرَ بِهَا ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا ، وَخَلَفَ عَلَيْهَا عَقبَةُ بْنُ جَعْفَرَ .

وَبَعْدَ فَتْحِ هِرْقَلَةَ ، كَتَبَ نَقْفُورَ مَعَ بَطْرِيَقَيْنَ مِنْ عَظِيمَاءِ بَطَارِقَتِهِ فِي جَارِيَةِ مِنْ
سَبِيِّ هِرْقَلَةَ كِتَابًا نَسْخَتِهِ : « لَعْبَدُ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَقْفُورِ مَلِكِ الرُّومِ^(٤) ،

(١) تاريخ الطبرى : ٢١٠/٨

(٢) البداية والنهاية : ٢٠١/١٠ ، والنجوم الزاهره : ١٢٧/٢ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٨٩

(٣) تاريخ الطبرى : ٢٢٢/٨

(٤) انقلب الأمر ، وانتهتى كبر ناقفور ، لقد وضع اسم الرشيد أولاً قبل اسمه ، إنَّ الرُّشِيدَ أَجْلَ ملوكَ
الدُّنْيَا بِلَا مَنَازِعَ .

سلام عليكم ، أمّا بعد أيها الملك ، إنَّ لي إليك حاجة لا تضرُّك في دينك ولا دنياك ، هيئنة يسيرة ، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة ، كنت قد خطبتها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفي بحاجتي فعلت ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته «^(١) .

واستهداه أيضاً طبيباً وسرادقاً من سرادقاته ، فأمر الرشيد بطلب الجارية « وهي ابنة بطريق هرقلة » ، فسلّمت - وسرادق كان الرشيد نازلاً فيه ، مع آنية ومداع وعطور وثور .. - إلى رسول تقوفور .

وفي هذه السنة اشترط الرشيد على تقوفور ألا يعمّر هرقلة ، وعلى أن يحمل تقوفور ثلاثة مئة ألف دينار .

لقد فتحت هرقلة عنوة بعد حصار وحرب شديدين ، ورميت بالنار والنفط ، لذلك قال المكي الشاعر :

هَوَتْ هِرْقَلَةُ لَا أَنْ رَأَتْ عَجَباً جَوَ السَّمَا تَرْقَى بِالنَّفْطِ وَالنَّارِ
كَانَ نِيرَانَنَا فِي جَنْبِ قَلْعَتِهِمْ مَصْبَغَاتُ عَلَى أَرْسَانِ قَصَارِ^(٢)

وفي غزوة الرشيد هذه هرقلة ، اتخذ قلنوسوة كتب عليها « غاز حاج » ، فكان يفخر رضي الله عنه بهاتين الصفتين ، ومع ذلك ، جاء من شوه سيرته ، وستبقى السيرة الحقيقة ، التي روتها مراجعتنا المعتقدة الصحيحة ، أكبر حجة لسيرته العطرة الطيبة .

رحم الله الغازي في عام ، وال الحاج في عام يليه .

ورضي عن الحاج في عام ، والغازي في عام يليه ..

ولهم الله تعالى العادل ، ندع أمر من شوه سيرته .

☆ ☆ ☆

(١) الطبرى : ٣٢١/٨

(٢) معجم البلدان : ٣٩٨/٥

رِجَالٌ حَوْلَ الرَّشِيدِ

« ولسنا نعلم في التّارِيخ كُلّه ، أَنْ حاشية
لِلملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية
الرَّشِيدِ من ذوي العقول الراجحة
النَّاهِيَّينَ »^(١) :

أبو يوسف (صاحب الْخَرَاج) ، ومحمد بن
الحسن (قاضي القضاة) ، وعبد الله بن
المبارك (عالم الشّرق والغرب) ،
والفضيل بن عياض (الزَّاهِد النَّاصِح) ،
والإمام مالك (إمام دار المَجْرَة) ، والإمام
الشَّافِعِي .

إن الرجال الأفضل ، والعلماء الأجلاء ، الَّذِين لزموا مجلس الرَّشِيدِ في
قصره ، أو رحل إليهم ليسعى منهم سيعطوننا فكرة عن الرَّشِيدِ المؤمن ، المجاهد ،
محب العلم والعلماء ، الملزِم بالشُّرِيعَة ، الغيور عليها .. ومنهم :

أبو يُوسُف يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم بْن حَبِيب^(٢) : قاضي القضاة عند

(١) قصة الحضارة : ٩٢/١٣

(٢) تتلذذ على أبي حنيفة منذ طفولته ، وتربأ له أبو حنيفة لما أرادت أمه منه من حضور مجالسه في صنعة يقتات منها ، قال لها أبو حنيفة : سيأتي يوم على ابنك يأكل أطابيب الطعام بأطباق من الذهب ، وقد كان ذلك عندما علت مكانته عند الرَّشِيدِ ، وسير تفصيل ذلك في هذا الكتاب . ولد أبو يوسف عام ١١٣ هـ ، وتوفي سنة ١٨٢ هـ ، وكتابه (الْخَرَاج) مطبوع عدة طبعات ، منها طبعة (المطبعة السلفية) المقارنة بمخطوطة في الخزانة التيورية رقم ٦٧٤ ومطبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ .

وما يذكر أن أبو يوسف من نسل صحابي اسمه (سعد بن حسبة) مسح النبي رأسه يوم الخندق . فلعل أبو يوسف من بركة رسول الله عليه السلام على الدولة العباسية .

الرّشيد ، كلفه الرّشيد بوضع كتاب نستطيع أن نقول : إنَّه (منهج اقتصادي) ، يجمع الرّشيد بوجبه الخراج في الدّولة الإسلامية بوجب الشّريعة المطهرة ، لا يحيد عنها ، ولا يظلم في جبایته أحداً من الرّعية على اختلاف أجناسهم ودياناتهم .

وضع (أبو يوسف) كتابه (الخراج) ، بطلب من الرّشيد ، وقد قدم له بنصيحة وموعظة للرّشيد ، نوردها ، لقيتها التّاريخية ، ولما تحمله من معانٍ سامية وجهها أبو يوسف للرّشيد ، وهذا نصُّ الموعظة :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : هَذَا مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو يُوسُفَ رَحْمَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونُ الرَّشِيدِ :

أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَدَمَ لَهُ الْعَزَّ فِي تَقَامَ مِنَ النِّعْمَةِ ، وَدَوَامَ مِنَ الْكَرَامَةِ ، وَجَعَلَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مُوصَلًا بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ الَّذِي لَا يَنْفَدُ وَلَا يَزُولُ ، وَمَرْافِقَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَأْلَنِي أَنْ أَضْعِفَ كِتَابًا جَامِعًا يَعْمَلُ بِهِ فِي جَبَايَةِ الْخِرَاجِ ، وَالْعُشُورِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْمَحْوَالِيِّ^(١) ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ التَّنْظُرُ فِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ رفعَ الظُّلْمِ عَنْ رِعْيَتِهِ ، وَالصَّالِحَ لِأَمْرِهِمْ ، وَفَقَدَ اللَّهُ تَعَالَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَدَّدَهُ وَأَعْانَهُ عَلَى مَا تَوَلََّ مِنْ ذَلِكَ ، وَسَلَّمَهُ مَا يَخَافُ وَيَحْذِرُ ، وَطَلَبَ أَنْ أَبْيَّنَ لَهُ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ مَا يَرِيدُ الْعَمَلُ بِهِ ، وَأَفْسَرَهُ وَأَشْرَحَهُ ، وَقَدْ فَسَرَتْ ذَلِكَ وَشَرَحَتْهُ .

(١) جمع غالبة ، وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطنًا آخر ، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أخلهم عمر رضي الله عنه عن جزيرة العرب « غالبة » ، ثم نقلت هذه النقطة إلى الجزيرة التي أخذت منهم ، ثم استعملت في كل جزيرة تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه .

يا أمير المؤمنين ، إنَّ الله - وله الحمد - قد قُلْدك أَمْرًا عظيماً ، ثوابه أَعْظم
الثَّواب ، وعقابه أَشَدُ العِقَاب ، قُلْدك أَمْرٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ فَأَصْبَحَتْ وَأَمْسَيْتْ وَأَنْتَ
تَبْنِي خَلْقَ كَثِيرٍ قَدْ اسْتَرْعَاكُمْ اللَّهُ وَائْتَنَكُ عَلَيْهِمْ وَابْتَلَاكُمْ بِهِمْ وَوَلَّكُمْ أَمْرَهُمْ ،
وَلَيْسَ يَلْبِسُ الْبَيْانَ - إِذَا أَسْسَنْتُ عَلَىٰ غَيْرِ التَّقْوَىٰ - أَنْ يَأْتِيَهُ اللَّهُ مِنْ الْقَوَاعِدِ
فِيهِمْهُ عَلَىٰ مَنْ بَنَاهُ وَأَعْانَ عَلَيْهِ ، فَلَا تَضِيعُنَّ مَا قُلْدك اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ هَذِهِ الْأُمَّةُ
وَالرَّعْيَةُ ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ يَأْذِنُ اللَّهُ .

لَا تُؤْخِرْ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَضَعْتَ ، إِنَّ الْأَجْلَ دُونَ
الْأَمْلِ ، فَبَادِرْ الْأَجْلَ بِالْعَمَلِ ، فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ بَعْدَ الْأَجْلِ ، إِنَّ الرُّعَاةَ مُؤَدِّونَ إِلَى
رِبِّهِمْ مَا يَؤْدِي الرَّاعِي إِلَى رَبِّهِ ، فَأَقِمِ الْحَقَّ فِيمَا لَوَّلَّكَ اللَّهُ وَقُلْدك وَلَوْ سَاعَةَ مِنْ
نَهَارٍ ، فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَاعٍ سَعَدَتْ بِهِ رَعِيَتْهُ ، وَلَا تَرْغِبْ
فِتْرِيزِغْ رَعِيَتْكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْأَمْرَ بِالْمُهْوِيِّ وَالْأَخْذِ بِالْغَضْبِ ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَمْرِيْنِ
أَحَدُهُمَا لِلآخِرَةِ ، وَالْآخَرُ لِلْدُّنْيَا ، فَاخْتَرْ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْآخِرَةَ
تَبْقِي وَالْدُّنْيَا تَفْنِي . وَكُنْ مِنْ خَشِيَّةِ اللَّهِ عَلَىٰ حَذْرٍ ، وَاجْعَلْ النَّاسَ عَنْدَكَ فِي أَمْرِ
اللَّهِ سَوَاءَ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، وَلَا تَخْفِ فيَ اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، وَاحْذَرْ فَإِنَّ الْحَذْرَ
بِالْقَلْبِ وَلَيْسَ بِاللِّسَانِ ، وَاتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّمَا التَّقْوَىٰ بِالتَّوْقِيِّ ، وَمَنْ يَتَقَّىَ اللَّهَ يَقْهِ ،
وَاعْمَلْ لِأَجْلِ مَفْضُوضٍ ، وَسَبِيلِ مَسْلُوكٍ ، وَطَرِيقِ مَأْخُوذٍ ، وَعَمَلِ مَحْفُوظٍ ،
وَمَنْهَلِ مُورُودٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَوْرِدَ الْحَقُّ ، وَالْمَوْقَفُ الْأَعْظَمُ الَّذِي تَطْيِيرُ فِيهِ
الْقُلُوبُ ، وَتَنْقِطُعُ فِيهِ الْحَجَجُ لَعْزَةُ مَلَكٍ قَهْرَمَ جَبْرُوتَهُ ، وَالْخَلْقُ لَهُ دَاخِرُونَ بَيْنَ
يَدِيهِ يَنْتَظِرُونَ قَضَاءَهُ ، وَيَخْافُونَ عَقُوبَتِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ قَدْ كَانَ . فَكَفَى بِالْحَسْرَةِ
وَالنَّدَامَةِ يَوْمَئِذٍ فِي ذَلِكَ الْمَوْقَفِ الْعَظِيمِ لِمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ ، يَوْمَ تَرْزَلُ فِيهِ الأَقْدَامُ ،
وَتَتَغَيِّرُ فِيهِ الْأَلْوَانُ ، وَيَطْوُلُ فِيهِ الْقِيَامُ ، وَيَشْتَدُ فِيهِ الْحَسَابُ ، يَقُولُ اللَّهُ تَبارَكَ
وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَالْفِسْرَادِ سَنَةٌ مِمَّا تَعَدُونَ ﴾
[الحج ٤٧/٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ جَمَعْنَاكُمْ

والْأَوْلَيْنَ ﴿الرسّلات ٢٨/٧٧﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدُّخَانُ ٤٠/٤٤] ، وقال تعالى : ﴿كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يَوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُسُوكُمْ إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف ٢٥/٤٦] ، وقال : ﴿كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُسُوكُمْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضَحَاهَا﴾ [النازٰعات ٤٦/٧٩] ، فيا لها من عثرة لا تقال ، ويا لها من ندامة لا تنفع ، إنما هو اختلاف الليل والنهر : يليلان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعد ، ويجزى الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب ، فالله الله فإن البقاء قليل ، والخطب خطير ، والدنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هي دار القرار ، فلا تلقى الله غداً وأنت سالك سبيل المعذبين ، فإن دين يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ، ولا يدينهم بمنازلهم ، وقد حذر الله فاحذر ، فإنك لم تخلق عبشاً ، ولن ترك سدى ، وإن الله سائلك بما أنت فيه وعما عملت به ، فانظر ما الجواب .

واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة ، فقد قال عليه السلام : « لا تزول قدما عبد يوم القيمة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل فيه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيه أنفاقه ، وعن جسده فيما أبلاه » . فاعد يا أمير المؤمنين للمسألة جواها ، فإن ما عملت فأثبت فهو عليك غداً يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في جمع الأشهاد ، وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله ، فإنك إن لاتفعل تتورع عليك سهولة المهدى ، وتعمى في عينك وتتعرفي رسومه ، ويضيق عليك رحبه ، وتذكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تذكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفرج^(١) لها لا عليها ، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده

(١) الفرج : الظفر والفوز ، وفي المثل : من يأت الحكم وحده يتفلج .

عن أماكن الملائكة بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُوردهُ أَماكنَ الْحَيَاةِ وَالنَّجَاةِ ، فَإِذَا ترَكَ ذَلِكَ
 أَضَاعَهُ ، وَإِنْ تَشَاغَلْ بِغَيْرِهِ كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِ أَسْرَعُ وَبِهِ أَضَرَّ ، وَإِذَا أَصْلَحَ كَانَ
 أَسْعَدَ مِنْ هَنَالِكَ بِذَلِكَ ، وَوَقَاهُ اللَّهُ أَضْعافَ مَا وَفَى لَهُ ، فَاحْذَرْ أَنْ تُضِيعَ رَعِيَّتَكَ
 فَيُسْتَوِيَّ رِبَّهَا حَقَّهَا مِنْكَ وَيُضِيعُكَ - بِمَا أَضَعْتَ - أَجْرَكَ ، وَإِنَّا يَدْعُ الْبَنِيَّانَ قَبْلَ
 أَنْ يَنْهَمُ ، وَإِنَّا لَكَ مِنْ عَمْلِكَ مَا عَمَلْتَ فِينَ وَلَاكَ اللَّهُ أَمْرُهُ ، وَعَلَيْكَ مَا ضَيَّعْتَ
 مِنْهُ ، فَلَا تَنْسِي الْقِيَامَ بِأَمْرِ مَنْ وَلَاكَ اللَّهُ أَمْرُهُ فَلَسْتَ تَنْسِي ، وَلَا تَغْفِلُ عَنْهُمْ وَعَمَّا
 يَصْلِحُهُمْ ، فَلَيْسَ يَغْفِلُ عَنْكَ . وَلَا يُضِيعُ حَظْكَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ
 وَاللَّيَّالِي كَثُرَةً تَحْرِيكَ لِسَانِكَ فِي نَفْسِكَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَسْبِيحًا وَتَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا ،
 وَالصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ ، وَإِمامِ الْمُدِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّ اللَّهَ بْنَهُ وَرَحْمَتَهُ
 جَعَلَ وَلَةَ الْأَمْرِ خَلْفَاءَ فِي أَرْضِهِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ نُورًا يُضِيءُ لِلرَّعْيَةَ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 الْأَمْرِ فِيهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَبْيَنُ مَا اشْتَبَهَ مِنَ الْحَقُوقِ عَلَيْهِمْ ، وَإِضَاءَةُ نُورِ وَلَةِ الْأَمْرِ
 إِقَامَةُ الْحَدُودِ ، وَرَدَهَا إِلَى أَهْلِهَا بِالتَّثْبِيتِ وَالْأَمْرِ الْبَيِّنِ ، وَإِحْيَا السُّنْنَ الَّتِي سَنَّهَا
 الْقَوْمُ الصَّالِحُونَ أَعْظَمُ مَوْقِعًا ، فَإِنَّ إِحْيَا السُّنْنِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَحْيَا وَلَا يَمُوتُ ،
 وَجُورُ الرَّاعِي هَلَكَ لِلرَّعْيَةِ ، وَاسْتَعْنَتْهُ بِغَيْرِ أَهْلِ الثَّقَةِ وَالْخَيْرِ هَلَكَ لِلْعَامَةِ .
 فَاسْتَمِ مَا آتَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّعَمِ بِحُسْنِ مَجاوِرَتِهِ ، وَالْقَسْ زِيَادَةً فِيهَا
 بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ
 لَا زَيْدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [ابراهيم ٧١٤] .

وَلَيْسَ شَيْءًا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْإِصْلَاحِ ، وَلَا أَبْغُضُ إِلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ ، وَالْعَمَلُ
 بِالْمَعَاصِي كَفَرُ النِّعَمِ ، وَقُلْ مَنْ كَفَرَ مِنْ قَوْمٍ قَطَّ النِّعَمَةَ ، ثُمَّ لَمْ يَفْرَغُوا إِلَى التُّوبَةِ
 إِلَّا سَلَبُوا عِزَّهُمْ وَسُلْطَنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ ، وَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي
 مَنْ عَلَيْكَ بِعْرَفْتَهُ فِيهَا أَوْلَاكَ ، أَنْ لَا يَكُلَّكَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ إِلَى نَفْسِكَ . وَأَنْ
 يَتَوَلَّ مِنْكَ مَا تَتَوَلِّ مِنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَحْبَائِهِ ، فَإِنَّهُ وَلِيَ ذَلِكَ وَالْمَرْغُوبُ إِلَيْهِ فِيهِ .

وَقَدْ كَتَبْتَ لَكَ مَا أَمْرَتَ بِهِ وَشَرَحْتَهُ لَكَ وَبَيَّنْتَهُ ، فَتَفَقَّهَهُ وَتَدَبَّرَهُ ، وَرَدَدَ

قراءته حتى تحفظه ، فإنني قد اجتهدت لك في ذلك ولم ألك المسلمين نصاً ،
ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه ، وإنني لأرجو - إن عملت بما فيه من
البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك
رعايتك ، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ، ورفع الظلم عنهم ، والتظلم فيما
اشتبه من الحقوق عليهم ، وكتب لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحصيص
على مسألة عنه ، مما تريده العمل به إن شاء الله ، فوفقك الله لما يرضيه عنك ،
وأصلح بك ، وعلى يديك .

ثم ذكر أبو يوسف أحاديث عديدة في الترغيب والتحصيص ، كان أولها :
« حدثني يحيى بن سعيد عن الزبير عن طاوس عن معاذ بن جبل قال : قال
رسول الله ﷺ : « ماعمل ابن آدم من عمل أخي له من النّار من ذكر الله ،
قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ،
ولو أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع » ، قالها ثلاثة ،
وإنَّ فضل الجهاد يا أمير المؤمنين لعظيم ، وإنَّ الثواب عليه لجزيل .

وكان آخرها : وحدني بعض أشياخنا عن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال :
غضب عمر بن عبد العزيز يوماً فاشتد غضبه - وكان فيه حِدَّة - وعبد الملك ابنه
حاضر ، فلما سكن غضبه قال له : يا أمير المؤمنين في قدر نعمة الله عندك ،
وموضعك الذي وضعك الله به وما أولاك من أمر عباده أن يبلغ بك الغضب
ما أرى ؟ قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه كلامه ، فقال له عمر : أما تنقضب أنت
يا عبد الملك ؟ قال : ما يغنى عني جوفي إن لم أرَّ الغضب فيه حتى لا يظهر منه
شيء !

لقد كانت الوصيَّة السَّابقة ، وصيَّة عالم لا تأخذه في الله لومة لائم إلى خليفة
مسلم مؤمن يهمه تطبيق شرع الله ومراعاة مصلحة ورفاه الرُّعية كُلُّهم . ويذكرنا

القول : إنَّ كتاب (الْخَرَاج) منهج اقتصادي إسلامي طلبه الرَّشِيدُ مِنْ أَبِي يَوْسَفَ - صاحب الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ - لِيَكُونَ مَوْضِعَ التَّطْبِيقِ فِي دُولَةِ بَنِي العَبَاسِ .

ويجب أن نعلم قيمة أَبِي يَوْسَفَ هَذَا ، وَيَكْتُنَا ذَلِكَ مِنْ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ : مَرْضُ أَبِي يَوْسَفَ مَرْضًا خِيفًا عَلَيْهِ مِنْهُ ، فَعَادَهُ أَبُو حَنِيفَةَ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عَنْهُ وَضَعَ يَدِيهِ عَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ وَقَالَ : « إِنِّي مُتَّ بِهِ هَذَا الْفَقِيرِ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ مِنْ عَلَيْهَا » ، وَأَوْمَأَ إِلَى الْأَرْضِ^(١) .

إِنَّهُ تَلَمِّذَ أَبِي حَنِيفَةَ ، تَفَرَّسَ فِيهِ الْخَيْرَ ، قَالَ أَبُو يَوْسَفَ : تَوْفِي أَبِي وَأَنَا صَغِيرٌ ، فَأَسْلَمْتُنِي أُمِّي إِلَى قَصَارِ الْحَلْقَةِ ، فَكُنْتُ أَمْرًا عَلَى حَلْقَةِ أَبِي حَنِيفَةَ ، فَأَجْلَسَ فِيهَا ، فَكَانَتْ أُمِّي تَتَبَعِنِي فَتَأْخُذُ يَدِي مِنَ الْحَلْقَةِ وَتَذَهَّبُ إِلَى الْقَصَارِ ، ثُمَّ كَنْتُ أَخَالُفُهَا فِي ذَلِكَ وَأَذَهَبُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ، قَالَتْ لِأَبِي حَنِيفَةَ : إِنَّ هَذَا صَبِيًّا يَتِيمًا لَهُ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَطْعَمَهُ مِنْ مَغْزِيٍّ ، وَإِنَّكَ قَدْ أَفْسَدْتَهُ عَلَيَّ فَقَالَ لَهَا : اسْكُتِي يَا رَعْنَاءَ ، هَاهُوَ ذَا يَتَّلَمِّعُ الْعِلْمُ ، وَسِيَأْكُلُ الْفَالَوْذَجَ بِدَهْنِ الْفَسْتِقِ فِي صَحْوَنِ الْفِيروْزَجِ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ شَيْخٌ قَدْ خَرَفَتْ .

وَصِيَّةُ أَبِي حَنِيفَةَ لِأَبِي يَوْسَفَ ، وَهِيَ مِنْ عِيُونِ الْوَصَائِيَا^(٢) :

يَا يَعْقُوبَ ، وَقَرِّ السُّلْطَانِ وَعَظِيمُ مَرْزِقِهِ ، وَإِيَّاكَ وَالْكَذْبِ بَيْنَ يَدِيهِ ، وَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ مَالَمْ يَدْعُكَ لَحْاجَةُ عِلْمِيَّةٍ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَكْثَرْتَ الْاِخْتِلَافَ إِلَيْهِ تَهَاوَنَ وَاسْتَخْفَفَ بِكَ ، وَصَغَرَتْ مَرْزِقَكَ فِي عَيْنِهِ ، فَكَنْ مِنْهُ كَمَا أَنْتَ مِنَ النَّارِ ، تَنْتَفِعُ بِهَا ، وَتَبْيَاعُهَا ، وَلَا تَدْنُّ مِنْهَا فَإِنَّكَ تَحْرُقُ وَتَسْأَدُ

(١) حُشْنُ التَّقَاضِيٍّ : ٣٥

(٢) نَصُّ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَمَضْمُونُهَا ، يُشَبَّهُ بِأَبِي حَنِيفَةَ ، كَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ أَبِي يَوْسَفَ : « سِيَأْكُلُ الْفَالَوْذَجَ بِدَهْنِ الْفَسْتِقِ فِي صَحْوَنِ الْفِيروْزَجَ » .

منها ، فِيَانُ السُّلْطَانِ لَا يَرِي لَأْحِدٍ مَا يَرِي لِنَفْسِهِ ، وَإِيَّاكَ وَكُثْرَةِ الْكَلَامِ بَيْنَ يَدِيهِ ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ عَلَيْكَ مَا تَفَوَّهُ بِهِ ، لَيَرِي مِنْ نَفْسِهِ بَيْنَ يَدِي حَاشِيَتِهِ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْكَ ، وَأَنَّهُ يَخْطُئُكَ فَتَصْغُرُ بِذَلِكَ فِي أَعْيُنِ قَوْمِهِ ، وَلَتَكُنْ إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِ تَعْرِفُ قَدْرَكَ وَقَدْرَ غَيْرِكَ ، وَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ لَا تَعْرِفُهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ أَدُونَ حَالًا مِنْهُ ، لَعَلَكَ تَرْفَعُ عَلَيْهِ فِي ضَرِّكَ ، وَإِنْ كُنْتَ أَعْلَمُ مِنْهُ لَعَلَكَ تَنْحَطُ عَنْهُ فَتَسْقُطُ بِذَلِكَ مِنْ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، وَإِذَا عَرَضَ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ ، فَلَا تَقْبِلُ مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ يَرْضَاكَ ، وَيَرْضُى مِذْهَبَكَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَضَايَا ، كَيْ لَا تَحْتَاجَ إِلَى ارْتِكَابِ مِذْهَبِ غَيْرِكَ فِي الْحُكُومَاتِ ، وَلَا تَوَاصِلُ أُولَيَاءِ السُّلْطَانِ وَحَاشِيَتِهِ ، بَلْ تَقْرُبُ إِلَيْهِ فَقَطْ ، وَتَبَاعِدُ عَنْ حَاشِيَتِهِ لِيَكُونَ مَحْلُكَ وَجَاهُكَ باقيًّا ، وَلَا تَتَكَلَّمُ بَيْنَ يَدِي الْعَامَّةِ إِلَّا بِمَا تُسَأَلُ عَنْهُ .

وَإِيَّاكَ وَالْكَلَامِ فِي الْمُعَامَلَةِ وَالْتِجَارَةِ ، إِلَّا بِمَا يَرْجِعُ إِلَى الْعِلْمِ ، كَيْ لَا يَوْقِفَ مِنْكَ عَلَى رَغْبَةِ فِي الْمَالِ ، فَإِنَّهُمْ يَسِئُونَ الظَّنَّ بِكَ ، وَيَعْتَقِدُونَ مِيلَكَ إِلَى أَخْذِ الرَّشْوَةِ مِنْهُمْ ، وَبَسْطُ الْيَدِ إِلَيْهَا .

وَلَا تَضْحِكَ ، وَلَا تَبَسِّمْ فِيمَا بَيْنَ الْعَامَّةِ ، وَلَا تَكْثُرْ الْخَرُوجَ إِلَى الْأَسْوَاقِ ، وَلَا تَكْلُمِ الصَّبَّيَانَ الْمَرَاهِقِينَ فِيَنَّهُمْ فَتَنَّةُ ، وَلَا بَأْسُ أَنْ تَكْلُمِ الْأَطْفَالَ وَتَمْسِحَ رُؤُسَهُمْ ، وَلَا تَمْشِ فِي قَارِعَةِ الطَّرِيقِ مَعَ الْمَشَايِخِ مِنِ الْعَامَّةِ ، فَإِنَّكَ إِنْ قَدَمْتَهُمْ أَزْرِي ذَلِكَ بِعِلْمِكَ ، وَإِنْ أَخْرَجْتَهُمْ أَزْدِرِي بِكَ مِنْ حِيثِ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ مِنْكَ ، فِيَانُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : « مَنْ لَمْ يَوْقُرْ كَبِيرَنَا ، وَلَمْ يَرْحِمْ صَغِيرَنَا ، فَلِيَسْ مَنًا » .

وَلَا تَقْعُدُ عَلَى قَوَاعِدِ الطَّرِيقِ ، وَإِذَا دَعَاكَ ذَلِكَ فَاقْعُدْ فِي الْمَسْجِدِ ، وَلَا تَقْعُدُ عَلَى الْحَوَانِيَّتِ ، وَلَا تَأْكُلُ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْمَسَاجِدِ ، وَلَا تَشْرُبُ مِنِ السَّقَائِيَّاتِ وَمِنْ أَيْدِي السَّقَائِينَ ، وَلَا تَلْبِسَ الدِّيَاجَ وَالْمَلِيِّ وَأَنْوَاعَ الإِبْرِيَّمِ^(۱) ، فِيَانُ ذَلِكَ يَفْضِي إِلَى الرُّعُونَةِ .

(۱) الإبريم : الحرير (مَعْرِبٌ) ، [اللسان : بِرْسٌ ، والقاموس المحيط : ۷۹/۴] .

ولا تكثر الكلام في بيتك مع أهلك في الفراش ، إلّا وقت حاجتك إليها بقدر ذلك ، ولا تكثر لسها ومسها ، ولا تقرّب بها إلّا أن تذكر الله تعالى ، و تستخير فيه ، ولا تتكلّم بأمر نساء الغير بين يديها ، ولا بأمر الجواري ، فإنّها تنبسط إليك في كلامك ، ولعلك إذا تكلّمت عن غيرها ، تكلّمت عن الرجال الأجانب ، ولا تتزوج امرأة كان لها بعل أو أب أو أم أو بنت ، إن قدرت ، إلّا بشرط أن لا يدخل عليها أحد من أقاربها ، فإنّ المرأة إذا كانت ذات مال ، يدعى أبوها أنّ جميع مالها له ، وأنّه عارية في يدها ، ولا تدخل بيت أبوها ما قدرت ، وإياك أن ترضى أن تزف في بيتهما ، فإنّهم يأخذون أموالك ويطمعون فيك غاية الطّمع ، وإياك أن تتزوج بذات البنين والبنات ، فإنّها تدخر جميع المال لهم ، وتسرق من مالك وتنفق عليهم ؛ فإنّ الولد أعزّ عليها منك ، ولا تجمع بين امرأتين في دار واحدة ، ولا تتزوج إلّا بعد أن تعلم أنّك تقدر على القيام بجميع حوائجها ، واطلب العلم أولاً ، ثمّ اجمع المال من الحلال ثم تزوج ، فإنّك إن شتغلت بطلب المال في وقت التّعلم ، عجزت عن طلب العلم ، ودعاك المال إلى شراء الجواري والغلمان وتشتغل بالدنيا ، وإياك أن تشتغل بالنساء قبل تحصيل العلم ، فيضيّع وقتك ، ويجمع علىك الولد ويكثر عيالك ، فتحتاج إلى القيام بحوائجهم وتترك العلم ، وتشتغل بالعلم في عنفوان شبابك ، وقت فراغ قلبك وخاطرك ، ثمّ اشتغل بالمال ليجتمع عندك ، فإنّ كثرة الولد والعيال تشوش البال ، فإن جمعت المال فاشتغل بالتزوج .

وعليك بتقوى الله ، وأداء الأمانة والنّصيحة لجميع الخاصة والعامة ، ولا تستخف بالنّاس ووّرقهم ، ولا تكثر معاشرتهم إلّا بعد أن يعاشروك ، وقابل معاشرتهم بذكر المسائل ، فإنه إن كان من تعاشره من أهله اشتغل بالعلم ، وإن لم يكن من أهله اجتنبك .

وإياك أن تكلّم العامة في أصول الدين والكلام ، فإنّهم قوم يقلّدونك
هaron الرشيد (١٠) - ١٤٥ -

فيشتغلون بذلك ، ومن جاءك يستفتوك في المسائل ، فلا تجب إلا عن سؤاله ، ولا تضم إليه غيره ، فإنه يتشوّش عليه جواب سؤاله ، وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تُعرض عن العلم ، فإنك إذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكًا على ما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه ١٢٤/٢٠] ، وأقبل على متفقهتك لأنك اخترت كلًّا واحدًًا منهم ابنًا وولدًا ، لتزيدهم رغبة في العلم ، ومن نقشك من العامة والسوقة ، فلا تناقشه ، فإنه يذهب ماء وجهك ، ولا تختشم أحدًا عند ذكر الحق وإن كان سلطاناً .

ولا ترض لنفسك من العبادات إلا بأكثر ما يفعله غيرك ويعطاكها ، فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال عليها بأكثر ما يفعلونها ، اعتقدوا فيك السوء وقلة الرغبة فيها ، واعتقدوا أن علمك لا ينفعك إلا مانفعهم الجهل الذي هم فيه .

وإذا دخلت بلدة فيها أهل العلم فلا تخذلها لنفسك ، بل كن كواحدٍ من أهلها ليعلموا أنك لا تقصد جاههم ؛ وإلا يخرجون عليك بأجمعهم ويطعنون في مذهبك ، والعامة يخرجون عليك ، وينظرون إليك بأعينهم فتصير مطعوناً عندم بلا فائدة ، ولا تفت إن استفتوك في المسائل ، ولا تناقشهم في المظاهرات والمطارحات ، ولا تذكر لهم شيئاً إلا عن دليل واضح ، ولا تطعن في أساتذتهم فإنهم يطعنون فيك ، وكن من الناس على حذر .

وكن لله تعالى في سرك كما أنت له في علانيتك ، ولا يصلح أمر العالم إلا بأن يجعل سره كعلانيته .

وإذا ولأك السلطان عملاً ما يصلح لك ، فلا تقبل ذلك منه إلا بعد أن تعلم أنك لو لم تقبل قبله غيرك ، ويضرر به الناس ، وبعد أن تعلم أنه إنما يوليك ذلك لعلمك .

وإياك أن تتكلّم في مجلس النّظر على خوف أو وجل ؛ فإنَّ ذلك مما يورث
الخلل في الألفاظ واللّكن في اللسان .

وإياك أن تكثر الضّحّاك ، فإنَّه يبيت القلب ، ولا تكثر محاادة النساء
ومجالستهن ، فإنَّه يبيت القلب أيضًا ، ولا تمشي إلاً على الطهانينة والسُّكون ،
ولا تكن عجولاً في الأمور ، ومن دعاك من خلفك فلا تجبه ، فإنَّ البهائم تنادي
من خلف ، وإذا تكلّمت فلا تكثر صياحك ، ولا ترفع صوتك ، واتّخذ لنفسك
السُّكون وقلة الحركة عادة كي يتحقق عند النّاس ثباتك ، وأكثر ذكر الله تعالى
فيها بين النّاس ليتعلّموا ذلك منك ، واتّخذ لنفسك ورُدًا خلف الصلوات ، تقرأ فيه
القرآن ، وتذكر الله تعالى وتشكره على ما أودعك من الصّبر ، وما أولاك من
النّعم ، واتّخذ لنفسك أيامًا معدودة من كلّ شهر تصوم فيها ، ليقتدي غيرك بك
في ذلك ، ولا ترضي لنفسك من العبادات بما ترضي به العامة ، وراقب نفسك ،
وحافظ على العلم لتنتفع في دنياك وأخرتك بعلمه ، ولا تشرت بنفسك ولا تبع ،
بل اتّخذ لك غلامًا مصلحًا يقوم بأشغالك ، وتعتمد عليه في أمورك ، ولا تطمئن
إلى دنياك وإلى ما أنت فيه ، فإنَّ الله تعالى سائلك عن جميع ذلك ، ولا تشرت
الغلمان المُرْد .

ولا تظهر من نفسك التّقرب إلى السُّلطان ، وإن قرّبوك فإنَّهم يرّفعون
إليك الحوائج ، فإن قمت بها أهانوك ، وإن لم تقم بها عابوك .

ولا تتّبع النّاس في خطایاهم ، بل اتبعهم في صواهم ، وإذا عرفت إنساناً
بالشّرّ فلا تذكره به ، بل اطلب له خيراً فاذكره به ، إلاً في باب الدين فإنَّك إن
عرفت في دينه ذلك فاذكره للنّاس ، كي لا يتّبعوه ويحذروه ، قال عليه الصّلاة
والسّلام : « اذكروا الفاجر بما فيه حتّى يحذره النّاس ». وإن كان ذا جاه
ومنزلة الذي ترى منه الخلل في الدين ، فاذكر ذلك ولا تبالغ من جاهه ، فإنَّ
الله تعالى معينك وناصر الدين ، فإذا فعلت ذلك مرّة هابوك ولم

يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدين ، وإذا رأيت من سلطانك مالا يوافق العلم ، فاذكر ذلك مع طاعتك إياه ، فإن يده أقوى من يدك ، تقول له أنا مطبيع لك في الذي أنت مُسلطٌ في عليه ، غير أنني أذكر من سيرتك مالا يوافق العلم ، فإذا فعلت ذلك مع السلطان مَرَّةً كفاك ، لأنك إذا واظبت عليه ودمت ، لعلهم يقمعونك فيكون في ذلك قم الدين ، وافعل ذلك مَرَّةً أو مرتين ليُعرف منك الجد في الدين ، والحرص في الأمر بالمعروف ، فإذا فعل ذلك مَرَّةً أخرى ، فادخل عليه وحدك في داره وانصحه في الدين وناظره إن كان مبتدعاً ، وإن كان سلطاناً فاذكر له ما يحضرك من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فإن قبل ذلك منك وإلا فاسأل الله تعالى أن يحفظك منه .

واذكِر الموت ، واستغفر لأساتذتك ومن أخذت عنهم العلم ، وداوم على تلاوة القرآن ، وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والموضع المباركة ، واقبل من العامة ما يعرضون عليك من رؤياهم في النبي ﷺ وفي رؤيا الصالحين في المساجد والمنازل المباركة والمقابر ، ولا تجalis أحداً من أهل الأهواء ، إلا على سبيل الدعوة إلى الدين والصراط المستقيم ، ولا تكرر اللعن والشتم ، وإذا أذن المؤذن فتأهّب لدخول المسجد ، كي لا يتقدّم عليك العامة .

ولا تُتّخذ دارك في جوار السلطان ، وما رأيت على جارك فاستره عليه فإنه أمانة عندك ، ولا تظهر أسرار الناس ومن استشارك في شيء فأشير عليه بما تعلم أنه يقربك إلى الله تعالى .

واقبل وصيّتي هذه : فإنك تنتفع بها في أولاك وأخراك إن شاء الله تعالى ، وإياك والبخل ، فإنه يفتضح به المرء ، ولا تك طماعاً ولا كذاباً ، ولا صاحب تخياليط ، بل احفظ مروءتك في الأمور كلها .

والبس من الثياب البيض في الأحوال كلها ، وكن غني القلب مظهراً من

نفسك قلة المحرص والرّغبة في الدّنيا ، وأظهر من نفسك الغنى ، ولا تظهر الفقر وإن كنت فقيراً ، وكنْ ذا هَمَةً ، فإنَّ من ضعَفت هُمَّته ضعَفت منزلته ، وإذا مشيتَ في الطّريق فلا تلتفت يميناً وشِمالاً ، بل داوم النّظر إلى الأرض ، وإذا دخلت الحَمَام فلا تساوي النّاس في أجرة الحَمَام والمجلس ، بل ارجع على ما تعطي العامة ، لظهور مروءتك بينهم فيعظُمونك ، ولا تسلُّم الأمْمَة إلى الحائِك وسائر الصناع ، بل اتّخذ لنفسك ثقة يفعل ذلك ، ولا تماكس بالحبّات والدّوائق ، ولا تزن الدّراهم بل اعتمد على غيرك ، وحقر الدّنيا المُحرّقة عند أهل العِلْم ، فإنَّ ما عندك خير منها ، ولوْ أُمورك غيرك ليكنك الإقبال على العلم ، فذلك أحفظ لجاهك ، وإياك أن تكلّم المجانين ، ومن لا يعرف المنازرة والجحّة من أهل العلم والذين يطلبون الجاه ويتسوّقون بذكر المسائل فيها بين النّاس ، فإنَّهم يقصدون تخييلك ولا يبالغون منك وإن عرفوك على الحقّ ، وإذا دخلت على قوم كبار فلا تترفع عليهم مالم يرفعوك ، لئلا يلحق بك منهم أذىٰة ، وإذا كنت في قوم فلا تتقدّم عليهم في الصّلاة مالم يقدّموك على وجه التّعظيم .

ولا تدخل الحَمَام إلَّا وقت الظّهيرة أو بالغدوات ، ولا تخرج إلى النّظارات ، ولا تحضر مظالم السّلاطين ، إلَّا إذا عرفت إنك إذا قلت شيئاً ينزلون على قولك في الحقّ ، فإنَّهم إن فعلوا ما لا يحل وأنْت عندهم رئيَا لا تملك منهم ، ويظنُّ النّاس أن ذلك حقٌّ لسكتوك فيما بينهم وقت الإقدام عليه ، وإياك والغضب في مجلس العِلْم ، ولا تقص على العامة ، فإنَّ القاص لابد له أن يكذب ، وإذا أردت اتّخاذ مجلس العِلْم لأحدٍ من أهل العِلْم ، فإنَّ كان مجلس فقهه ، فاحضر بنفسك واذكري فيه ما تعلمه كي لا يغتر النّاس بحضورك ، فيظنُّون أنه على صفة من العلم وليس هو على تلك الصّفة ، فإنَّ كان يصلح للفتووى ، فاذكر منه ذلك ، وإلَّا فلا تقدّم أنت ليدرس بين يديك ، بل اترك عنده من أصحابك ليخبرك بكيفيّة كلامه وكميّة علمه ، ولا تحضر مجالس الذّكر أو من يُتّخذ مجلس عظة بجاهك وتزكيتك له ،

بل وجّه أهل محلك وعامتك الذين تعمد عليهم مع واحد من أصحابك ، وفُوض أمر الخطبة في المناجح إلى خطيب ناحيتك ، وكذا صلاة الجنائز والعيدان .

ولا تنسني من صالح دعائك ، واقبل هذه الموعظة مني ، وإنما أوصيك لصلاحك ومصلحة المسلمين^(١) .

قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء - وكان أول من ولأه القضاء الهمادي ، وهو أول من لقب قاضي القضاة ، وكان يقول له : قاضي قضاة الدنيا ، لأنّه كان يستنبيب فيسائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة - بينما أنا ذات يوم عند الرّشيد ، إذ أتى بالفالوذج في صحن فirozج ، فقال لي : كُلُّ من هذا ، فإنه لا يصنع لنا في كلّ وقت ، وقلت : وما هذا يا أمير المؤمنين ، فقال : هذا الفالوذج ، قال : فتبسمت ، فقال : مالك تبتسّم ؟ فقلت : لا شيء ، أبقى الله أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرني ، فقصصت عليه القصة ، فقال : إنَّ العلم ينفع ويرفع في الدُّنيا والآخرة ، ثم قال : رحم الله أبو حنيفة ، فلقد كان ينظر بعين عقله ، مالا ينظر بعين رأسه^(٢) .

وحين حجَّ أبو يوسف أصاب الواقدي بحال ضيقَة ، فحمله معه إلى بغداد ، فأكرم بمال وفيه فاستكثره ، فقال أبو يوسف له : لست أرضي لك بها حتّى أزداد لك ، وهذا يدل على ما كانت عليه منزلة الواقدي عند أبي يوسف ، ومدى نفاذ كلمة أبي يوسف ، ومبلغ تقدير العلم في ذلك العهد .

وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف : إنه أعلم أصحابه .

وقال الحسين بن الوليد : كان أبو يوسف إذا تكلَّم يدهش الإنسان ، ويحير من دقة كلامه .

(١) حُسْنُ التّقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي : ٩٤ - ١٠١

(٢) وفيات الأعيان : ٢٨٠/٦

وقال المزني : كان أبو يوسف أتبعهم للحديث .

وكان علي بن صالح إذا حدث عن أبي يوسف يقول : حدثني أفقه الفقهاء ،
وقاضي القضاة ، وسيد العلماء أبو يوسف .

وقال ابن المديني : كان صدوقاً .

وقال ابن معين : كان ثقة ، « مارأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث ،
ولا أحفظ ، ولا أصح رواية من أبي يوسف »^(١) .

وقال أبو زرعة : كان سليماً من التجهم^(٢) .

قال عباد بن العوام في يوم موته^(٣) : ينبغي لأهل الإسلام أن يعزّي بعضهم
بعضًا بأبي يوسف^(٤) .

من كلام أبي يوسف : « من طلب المال بالكيمياً أفلس ، ومن تتبع غرائب
ال الحديث كذب ، ومن طلب العلم بالكلام تزندق »^(٥) .

كان أبو يوسف يَؤْمِنُ الرَّشِيدَ وَيَعْلَمُهُ وَيَحْجَجُ مَعَهُ عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، وَيَدْخُلُ
عَلَيْهِ رَاكِبًا بَغْلَتَهُ ، وَيَقُولُ الرَّشِيدُ مُتَعْجِبًا : هَاتُوا لِي مِثْلَهُ ، وَلَا مَاتَ قُدْرَتُ
ثُرُوتَهُ بِمِلْيُونَيْنِ .

هذا شيء مختصر عن حياة أبي يوسف ، قاضي قضاة الرشيد ، ومن وضع

(١) النجوم الظاهرة : ١٠٨/٢

(٢) البداية والنهاية : ١٨٠/١٠

(٣) توفي عام : ١٨٢ هـ .

(٤) النجوم الظاهرة : ١٠٨/٢

(٥) البداية والنهاية : ١٨٠/١٠ ، والكيميا : يعني بها الكيمياء والمشغلين بها لتحويل المعادن الخصيصة
إلى معادن ثمينة .

المنهج الاقتصادي له ، وفق شريعة الله عزّ وجلّ . لقد كان الرّشيد حريصاً على دقة النّظام المالي في دولته ، فلا يظلم أحدّ ، ويصل الحق إلى كلّ أفراد أمته ، وما وضع « كتاب الخراج » إلاّ لهذا !!

هذه لمحات من سيرة أبي يوسف القاضي ، وعن كتابه (الخراج) ، الذي كان رسالة إلى الرّشيد في أحكام الأموال ، ألفها على طلب منه ، ومقدّمتها تدل على أنه لم يكن يحابي أحداً في الحقّ ، ولم يوّلّف أحد من أهل طبقة مثيل هذا الكتاب ، بل لو قلنا : لم يوّلّف مثله لم نكن مغاليين ، فمن طالع الكتاب ، وقارنه بالكتب التي ألفت في هذا الباب اعترف بذلك .

ومع ذلك لم يعدم أبو يوسف حاسداً حاقداً ، فقد قيل عنه بہتاناً وإفكًا^(١) :

لما أفضت الخلافة إلى الرّشيد ، وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي ، فراودها عن نفسها ، فقالت : لا أصلح لك ، إنّ أباك قد طاف بي ، فشغف بها ، فأرسل إلى أبي يوسف ، فسألته أعندي في هذا شيء ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، أو كُلّما ادّعْتَ أَمَّةً شِيئاً ينبعي أن تصدق ، لا تصدقها ، فإنّها ليست بآمنة .

ووجّيل تقة الخبر عن لسان ابن المبارك حيث قال : فلم أدرِ مَنْ أَعْجَب ، من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن حرمة أبيه ، أو من هذه الأُمَّةِ التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين ، أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها ! قال : أَهْتِكُ حرمة أبيك ، وأقض شهوتك ، وصيّره في رقبتي ؟ !!

لقد تناولوا أبا يوسف ، كما تناولوا الرّشيد ، وهو الذي لم تأخذه بالله لومة لائم ، من ذلك :

(١) انظر تاريخ الخلفاء : ٢٩١ وما بعدها ، عن كتاب (الطيوريات) للسلفي .

رد أبو يوسف شهادة الوزير الفضل بن الربيع ، فسأل الرشيد فقال : سمعته يقول : أنا عبد الخليفة ، فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد ، وإن كان كاذباً فشهادته مردودة أيضاً لكتبه ، وبالغ الخليفة في الجدل ، فقال : وما شأني كشاهد ، أتقبل شهادتي ؟ فقال أبو يوسف : لا ، فيعجب الرشيد ، ويسأله عن السبب ، فقال : لأنك تتكبر علىخلق ، ولا تحضر الجماعة من المسلمين ، وهذا ينافي العدالة التي هي شرط لقبول الشهادة ، فبني الرشيد مسجداً في داره ، وأذن للعامة في الصلاة فيه ، فحضر بذلك صلاة الجماعة .

مناجاته لله لما حضرته الوفاة :

« اللهم إِنَّكَ تَعْلَمُ إِنِّي نَظَرْتُ فِي كُلٍّ حَادِثَةٍ وَقَعَتْ فِي كِتَابِكَ ، فَإِنْ وَجَدْتَ فَرَجَ وَإِلَّا نَظَرْتُ فِي سَنَّةِ نَبِيِّكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنْ وَجَدْتَ فَرَجَ وَإِلَّا نَظَرْتُ فِي أَقَاوِيلِ الصَّحَابَةِ ، فَإِنْ وَجَدْتَ فَرَجَ وَإِلَّا جَعَلْتَ أَبَا حَنِيفَةَ جَسْرًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ .

اللَّهُمَّ وَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَاخْتَصَمْتُ إِلَيْيِ اثْنَانِ ، ضَعِيفٌ وَقَوِيٌّ وَإِلَّا سُوِّيْتُ بَيْنَهُمَا ،
وَلَمْ يَمْلِ قَلْبِي إِلَى الْقَوِيِّ ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ فَاغْفِرْ لِي .

يَا لَيْتَنِي لَمْ أَدْخُلْ فِي الْقَضَاءِ ، عَلَى أَنِّي بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى مَا تَعْمَدْتُ جُورًا ،
وَلَا حَابَيْتُ خَصَّاً عَلَى خَصْمٍ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ سُوقَةٍ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجْرِ فِي حُكْمٍ حَكَمْتَ بِهِ بَيْنَ عَبَادِكَ مَتَعْمِدًا ، وَلَقَدْ
اجْتَهَدْتُ فِي الْأَحْكَامِ بِمَا يَوَافِقُ كِتَابَكَ وَسَنَّةِ نَبِيِّكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَا أَشْكَلَ جَعَلْتَ
أَبَا حَنِيفَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يَعْرُفُ أَمْرَكَ وَلَا يَخْرُجُ عَنْ
حُكْمِكَ »^(١) .

ولَا أَحْتَضِرُ أَبُو يَوسُفَ ، قِيلَ لَهُ : فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ؟ يَعْنِي

(١) حُسْنُ التَّقَاضِي : ٦٣

القضاء ، قال : لا والله ، إِلَّا شيئاً واحداً ، ادعى نصراني مرّة على الرّشيد ضيعة ، فدعوت بالرّشيد وبالنصراني ، فجاء الرّشيد ومصّلي يُحْمَل له فجلس عليه ، ولم أدع للنصراني بِمَصّلٍ مثله ، فذاك في نفسي .

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئة مات أبو يوسف وهو ابن تسع وستين سنة ، وولي القضاء سنة ست وستين ومئة وأقام على القضاء إلى أن مات خمس عشرة سنة^(١) .

☆ ☆ ☆

أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (قاضي القضاة بعد أبي يوسف) :

صاحب أبي حنيفة وإمام أهل الرأي ، أصله دمشقي من أهل حرستا ، قدم أبوه العراق ، فولد له محمد بواسط عام ١٣٢ هـ ، ونشأ بالكوفة ، وسمع العلم بها من أبي حنيفة وسفيان الثوري وغيرهما .. وسكن بغداد وحدث بها .

ولاه الرّشيد القضاء بعد أبي يوسف ، فلازم الرّشيد وكان يصحبه في سفره ، ومات في خراسان عندما كان مع الرّشيد ، مات بالرّأي ودفن بها سنة ١٨٩ هـ وله ثمان وخمسون سنة تقريباً ، وترك ثلاثين ألف درهم ، فأنفقت خمسة عشر ألفاً على النحو والشعر ، وخمسة عشر ألفاً على الحديث والفقه .

يقول الشافعي : سمعت محمد بن الحسن يقول : « أقمت على باب مالك ثلاثة سنين وكسرأ ، وسمعت منه لفظاً أكثر من سبع مئة حديث » . وكان إذا حدث عن مالك امتلاً منزله ، وكثير الناس عليه ، حتى يضيق عليه الموضع . وقيل عنه : « هو من أعلم خلق الله بكتاب الله » .

(١) مروج الذهب للسعودي : ٢٥١/٣

ويقول الشافعي : « لو أشاء أن أقول إن القرآن نزل بلغة محمد بن الحسن لقلته لفصاحته » ، وقال أيضاً : « مارأيت سيناً أخف روحًا من محمد بن الحسن ، وما رأيت أفحص منه ، كنت إذا رأيته يقرأ كأنَّ القرآن نزل بلغته » .

سئل المزني عن أهل العراق ، فقيل له : ماتقول في أبي حنيفة ؟ قال :
سیدهم .

- فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث .

- فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعاً .

- فزفر ؟ قال : أحدهم قياساً .

وقال المزني : سمعت الشافعي يقول : « أَمَنَ النَّاسُ عَلَيْ » في الفقه محمد بن الحسن ^(١) .

هذه الشخصية العالمية أصبح صاحبها فقيه الدولة الأول بعد موت أبي يوسف ، وهم المعروفان بأنهما « الصاحبان » للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان . هذه الشخصية كانت ملازمة للرشيد بعد وفاة أبي يوسف سنة ١٨٢ هـ .

☆ ☆ ☆

عبد الله بن المبارك : عالم المشرق والمغرب وما بينهما ، لما جمع في أعماله من فهم رائع سليم للشريعة الحنيفة . فلقد جمع : العلم والفقه والأدب والنحو واللغة ، والزهد والشجاعة ، والشعر والفصاحة ، والورع والإنصاف ، وقيام الليل والعبادة ، والحج والغزو والفروسية ، وترك الكلام فيها لا يعنيه ، والشدة في رأيه ، وقلة الخلاف على أصحابه ^(٢)

(١) راجع تاريخ بغداد : ١٧٢/٢ - ١٨٢ ، فيها أخبار محمد بن الحسن الشيباني .

(٢) تذكرة الحفاظ : ٢٥٤/١ ، وتهذيب الأسماء واللغات : ٢٨٥/١

هذه الشخصية المثالية ، كان لها عند الرشيد مكانة عالية ، أخرج ابن عساكر عن ابن عليه : أخذ هارون الرشيد زنديقاً ، فأمر بضرب عنقه ، فقال له الزنديق : لم تضرب عنقي ؟

قال الرشيد له : أريح العباد منك .

قال الزنديق : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله كلها ما فيها حرف نطق به ؟

قال الرشيد : فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري ، وعبد الله بن المبارك ، فينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً^(١) .

ولما مات ابن المبارك ، وبلغ خبر وفاته الرشيد قال : مات سيد العلماء ، ثم جلس للعزاء ، وأمر الأعيان أن يعزّوه في ابن المبارك^(٢) .

☆ ☆ ☆

الفضيل بن عياض : حجّ الرشيد عام ١٨١ هـ ، فدعا علماء مكة المكرمة ، وبرّهم ووصلهم ؛ قال سفيان بن عيينة : دعانا هارون فدخلنا عليه ، ودخل الفضيل بن عياض آخرنا ملتفاً رأسه بردائه^(٣) .

وتسوالت اللقاءات بين الرشيد ، الخليفة المسلم ، وبين الفضيل العالم المسلم^(٤) .. وكما قال عليه السلام : « صنفان من الناس إذا صلحَا صلح الناس ، وإذا

(١) تذكرة الحفاظ : ٢٥٢/١ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

(٢) سير أعلام النبلاء : ٢٨٨/٩ ، تاريخ الخلفاء : ٢١٥ . توفي ابن المبارك في سنة إحدى وثمانين وسبعين ببلدة (هيت) بعد منصرفه من طرسوس . مروج الذهب : ٣٥٠/٣

(٣) وقد من الخبر مفصلاً ص ٨١

(٤) من دعاء الفضيل : « اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو الاستغفار والإيمان ، وعصيت الشيطان في أبغض الأشياء إليك وهو الشرك ، فاغفر لي ما يبيه ، اللهم إنّ حسني من =

فسدا فسد النَّاس ، العلماء والأُمَّار »^(١) . لقد اجتمع صلاح الأَمِير مع صلاح العالم ، فزاد العالم الأَمِير صلاحاً وخشية الله عز وجل .

قال الفضل بن الربيع : حجَّ هارون الرَّشيد ، فبینما أنا نائم ، إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟

قال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً ، فإذا أنا به ، أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليك ، فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم ، انظر إليَّ رجلاً أسأله .

فقلت : ههنا سفيان بن عيينة .

قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟
قال : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً وقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليك ، أتيتك .

قال الرَّشيد : جد لنا ما جئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟ قال سفيان بن عيينة : نعم ، فقال الرَّشيد : يا عباس اقضِ دينه ، ثم انصرفنا .

قال الرَّشيد لابن الرَّبيع : ما أغنى عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هاهنا عبد الرَّزاق بن همام . فقال : امض بنا إليه نسألة ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليك . فقال : جد لنا

= عطائك ، وسيأتي من قضائك ، فجد بما أعطيت على ما به قضيت حتى يمحى ذلك بذلك » .

النَّجوم الْزَّاهِرَةَ : ١٢٢/٢

(١) أبو نعيم في الحلية .

ماجئنا إلينه ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك ذيئن ؟ فقال : نعم ، فقال الرشيد : با عباس اقضِ دينه ، ثم انصرفنا .

قال الرشيد : ما أعنِي صاحبك شيئاً ! فانظر لي رجلاً أسأله ، قلت : ها هنا الفضيل بن عياض ، فقال : امضِ بنا إلينه ، فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله ويرددُها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين .

قال : مالي ولأمير المؤمنين ؟ !

قال : سبحان الله ، أما عليك طاعته ؟ !

قال : أوليس قد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » ؟ فنزل ففتح الباب ، ثم ارتفقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كفُّ الرشيد كفي إليه ، فقال : أواه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى ، قال : قلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقي .

قال الرشيد : جد لنا ماجئنا له يرحمك الله .

قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك ، وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك جزءاً من ذنب ما فعلوا ، ولكن أشدُهم حباً لك أشدُهم هرباً منك .

ثم قال : إنَّ عمر بن عبد العزيز لما ولَيَ الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله محمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حبيبة ، فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ، فعدَّوا الخلافة بلاء ، وعددها أنت وأصحابك نعمة ، فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ، فصم عن الدنيا ، ول يكن

إفطارك فيها الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النّجاة من عذاب الله غداً ، فليكن كبير المسلمين لك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم ولداً ، فبرّ أباك ، وارحم أخاك ، وتحنّن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة : إذا أردت النّجاة من عذاب الله غداً فأحب للMuslimين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ماتكرهه لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإنّي لا أقول لك هذا ، وإنّي لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزلُّ الأقدام . فهل معك رحمة الله من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بثل هذا ؟

فبكى الرّشيد بكاء شديداً ، حتّى غشي عليه ، فقال الفضل بن الريبع : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال الفضيل بن عياض : يا بن أمّ الرّبيع قتلته أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ، ثمّ أفاق . فقال : زدني .. فقال : يا أمير المؤمنين إنَّ العباس عم النبي ﷺ جاءه فقال : يا رسول الله أمرني على إماراة ، فقال له النبي ﷺ : يا عباس ، يا عم النبي ، نفس تحبها خير من إماراة لا تحبها ، إن الإماراة حسرة وندامة يوم القيمة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل ، فبكى هارون الرّشيد بكاء شديداً ، ثم قال : زدني يرحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيمة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وقسي وفي قلبك غش لرعيتك ، فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشاً ، لم يرح رائحة الجنة ».

فبكى الرّشيد بكاء شديداً ، ثم قال : عليك ذئن ؟

قال : نعم ، ذئن لربّي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن ناقشتني ، والويل لي إن لم يلهمني حجّتي .

الرّشيد : إنما أعني ذئن العباد !

الفضيل بن عياض : إن ربّي لم يأمرني بهذا ، وأمرني أن أصدق وعده ،

وأطيع أمره ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالإِنْسَا إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ، مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ، وَمَا أَرِيدُ أَنْ يَطْعَمُونِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّиِّنُ ﴾ ، [الذاريات ٥٧ و ٥٨] .

الرّشيد : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك ، وتقوّ بها على عبادة ربّك .
الفضيل : سبحان الله !! أنا أدلك على النّجا ، وتكافئني بمثل هذا ! سلمك الله ووفقك .

ثم صمت ولم يكلم أحداً ، فخرج الرّشيد والفضل بن الريبع ومن معهما ، فقال الرّشيد : إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين اليوم .
ثم دخلت امرأة من أهل الفضيل عليه ، وقالت : يا هذا قد ترى مانحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ففرجنا به !

فقال : إنّما مثلي ومثلكم ، كمثل قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه ، فلماً كبر نحرروه ، فأكلوا لحمه ، موتوا يا أهلي جوعاً ، ولا تذبحوا فضيلاً .

فلما سمع الرّشيد ذلك ، قال : ادخل فعسى أن يقبل المال ، قال الفضل بن الريبع : فدخلنا فلما علم بنا الفضيل ، خرج وجلس على التّراب على السّطح ، فجاء هارون الرّشيد ، فجلس إلى جانبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه ، فيبينما نحن كذلك إذ خرجت طفلة سوداء فقالت : يا هذا .. قد آذيت الشّيخ منذ اللّيلة ، فانصرف يرحمك الله ، فانصرفنا .

وموقف الفضيل هنا لا يعني أنه كان قاسياً مبغضاً للّرشيد ، هذا الموقف كان دواء لوقف يحتاج هذا الدّواء ، لقد كان الفضيل يقدر الرّشيد ويجلّه ، ويحبه جبّاً عظيماً ، وكلّ من الرّجلين يعرف مكانة الآخر ، فالّرشيد يرى الفضيل العالِم الفاضل ، يشع إيماناً وتقواً وورعاً ويقيناً وإخلاصاً ، والفضيل يرى الرّشيد

ال الخليفة المسلم ، غزير الدّموع إذا ذُكِرَ بالله ورسوله ، بمحالسه تقوى وأدب وعلم ، قاضي قضاته أبو يوسف صاحب كتاب (الْخَرَاج) ، يعرفه مؤمناً يحج عاماً ، ويغزو في سبيل الله عاماً ، يعرفه حبّاً لله عزّ وجلّ ، ومحباً لرسول الله عليه ﷺ كل ذلك يجعله يتقبل النّصّح ، ويترك هذا الموقف في نفسه أثراً عميقاً ، يبقى ذخيرة إيمان ومراقبة لله زمناً طويلاً . ولو كان إيمان الرّشيد رقيقاً ضحلاً ، لكان حكمة الفضيل تجعله في موقف مغاير .

فالفضيل يعلم قيمة صلاح الإمام الأمير ، لذلك قال : لو كانت لي دعوة مستجابة لا أجعلها إلا في إمام صالح ، لأنّه إذا صلح الإمام أمّن العباد .

وقال له الرّشيد يوماً : ما زهدتك ! فقال الفضيل : أنت أزهد مني ، لأنّي أنا زهدت في الدنيا التي هي أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت في الآخرة ، فأنا زاهد في الفاني ، وأنت زاهد في الباقي ، ومن زهد في درة ، أزهد من زهد في بعرة^(١) .

لقد كانت مثل هذه المواقف وقوداً روحيّاً للرّشيد ، تذكره بالله ولقاءه ، فيها النّصّح المناسب ، للرّجل المناسب ، من الرجل المناسب . ودليل نجاعة هذه المواقف ، قول الرّشيد للفضل بن الربيع : إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا : هذا سيد المسلمين اليوم .

ومع ما سبق كان الفضيل بن عياض يقول بحق الرّشيد في غيبته : الناس يكرهون هذا - وهم الطّالبيون والشّيعة - وما في الأرض أعزّ على منه ، لو أنه حتّى يضع رأسه ، لرأيت أموراً عظاماً^(٢) .

وقال الفضيل أيضاً : ما من نفس تموت أشدّ على موتاً من هارون أمير المؤمنين ، قال : وددت أن الله زاد في عمره من عمري^(٣)

(١) البداية والنهاية : ١٩٨/١٠

(٢) تاريخ بغداد : ١٢/١٤

هذه شهادة للحقيقة ، لأنَّ الفضيل لم ينل درهماً واحداً من الرَّشيد . وكان ماتنبأ به الفضيل بعد وفاة الرَّشيد ؛ فقد ظهرت الفتنة ، وكان من المؤمنون ما حمل النَّاس على أن القرآن مخلوق ، فقال الناس : كان الشَّيخ - أي الفضيل - أعلم بما تكلم به^(١) .

الله در الرَّجُلُين ، العالم وال الخليفة ، فالاول نعم النَّاصح لله ، والثاني نعم المتقبل للنُّصح لإيمانه العميق بالله .

☆ ☆ ☆

الإمام مالك بن أنس

« قال الإمام مالك : شاورني هارون الرَّشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت : لا تفعل ، فإنَّ أصحاب رسول الله عليهما السلام اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيبة » .

« قال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ما أعلم أنَّ ملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرَّشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمة الله ، قال : وكان أصل الموطأ بسماع الرَّشيد في خزانة المصريين ، قال : ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية ، فسمعه عن ابن طاهر بن عوف ، ولا أعلم لها ثالثاً »^(٢) .

(١) توفي الفضيل بن عياض سنة سبع وثمانين ومئة ، ويكنى أبا علي ، وكان مولده بجراسان ، وقدم الكوفة وسمع من المنصور بن العمر وغيره ، ثم تبعه وانتقل إلى مكة فأقام بها إلى أن مات .

(٢) تاريخ الخلفاء : ٢٩٤

أَلْحَنَ الْمَهْدِيَ عَلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ أَنْ يَسْعِي إِلَى قَصْرِهِ لِيَعْلَمَ ابْنِيهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ : لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الْعِلْمُ يُؤْتَى وَلَا يَأْتِي ، وَاضْطَرَّ الْمَهْدِيُّ (خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ) أَنْ يَبْعَثَ وَلَدِيهِ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ لِيَتَلَقَّبَا الْعِلْمَ مِنْ (إِمَامِ دَارِ الْمُهْجَرَةِ) فَكَانَا يَقْفَانَا عَلَى الْمَنْزِلِ ، فَيَدْقَانُ الْبَابَ وَالرِّيحَ تَضْرِبُ وَجْهَيْهِمَا بِتَرَابِ الْعَقِيقِ^(١) ، حَتَّى يَأْتِيَ الْإِذْنُ ، فَيُسْرِعُانَ بِالدُّخُولِ .

إِذْنُ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَسْتَاذُ الرَّشِيدِ فِي الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ ، فَنَعَمُ الْأَسْتَاذُ ، وَنَعَمُ الطَّالِبُ . لَقَدْ بَقِيتِ خَشِيشَةُ الرَّشِيدِ مِنْ أَسْتَاذِهِ مَعَ احْتِرَامِهِ لَهُ ، حَتَّى بَعْدَ تَوْلِيهِ خَلَافَةِ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا بَقِيتِ هَيَّةُ الْإِمَامِ مَالِكٍ فِي نَفْسِ الرَّشِيدِ ، لَقَدْ زَارَ الرَّشِيدَ الْمَدِينَةَ الْمُنُورَةَ مَرَّةً فَزَارَ أَسْتَاذَهُ الْإِمَامَ مَالِكًا ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَدِيهِ ، وَسَعَى مِنْهُ ، وَمَرَّةً أُخْرَى دَخَلَ الرَّشِيدَ فَقَالَ لِهِ مَالِكٌ : مَنْ تَوَاضَعَ إِلَى اللَّهِ رَفِعَهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : مَاذَا صَنَعْتَ ؟ - وَكَانَ قَدْ دَخَلَ مَجْلِسَ الْحَدِيثِ ، وَأَخْذَ مَكَانَهُ إِلَى جَوَارِ مَالِكٍ - فَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ : إِنَّ مَنْ جَلَّ اللَّهَ ، إِجْلَالُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ فِي مَجْلِسِ عِلْمِهِ ، فَقَمَ وَاقَعَدَ بَيْنَ يَدِيهِ ، فَأَسْرَعَ الرَّشِيدَ مُمْتَلِّاً .

وَمَا يُذَكَّرُ أَنَّ الرَّشِيدَ جَاءَتْهُ أَيْضًا رِسَالَةً مِنْ الْإِمَامِ مَالِكٍ^(٢) تَضَمِّنَ خَطَةً حَيَاةً كَاملَةً «إِسْلَامِيَّةً مُلْتَرِمةً بِدِينِهَا وَطَاعَةً رِبِّهَا» ، هِيَ^(٣) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٌ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(١) العَقِيقُ : وَادِ بَطَاهُرِ الْمَدِينَةِ . مُختارُ الصَّاحِحِ : ٢٨٢

(٢) نُوْفِيُّ مَالِكٌ أَيَّامُ الرَّشِيدِ ، وَهُوَ ابْنُ تِسْعِينَ سَنَةً .

(٣) عَلَى مَا فِيهَا مِنْ هَنَاتِ تَشَكُّكَنَا بِنَسْبَتِهَا كُلَّهَا إِلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ .

أما بعد ، فإني كتبت إليك بكتاب لم ألك فيه رشداً ، ولم أدخلك فيه نصحاً ، تحييدها الله ، وأدباً عن رسول الله ﷺ فتدبره بعقلك ، وردد فيه بصرك وأعْرَأْ سمعك ، ثم اعقله بقلبك ، وأحضر فهمك ، ولا تغيب عنه ذهنك ، فإنَّ فيه الفضل في الدُّنيا ، وحسن ثواب الله تعالى في الآخرة .

اذكر نفسك في غرارات الموت وَكَرْبِهِ ، وما هو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه ، ثم الحساب ، ثم الخلود بعد الحساب ، وأعد الله عزَّ وجلَّ ما يسهل به عليك أهوال تلك المشاهد وَكَرْبِها ، فإنَّك لو رأيت أهل سخط الله تعالى ، وما صاروا إليه من ألوان العذاب ، وشدة نقمته عليهم ، وسمعت زفيرهم في النار ، وشهيقهم مع كلوج^(١) وجوههم وطول غمهم ، وتقلبهم في دركاتها على وجوههم لا يسمعون ولا يبصرون ، ويدعون بالويل والثبور^(٢) ، وأعظم من ذلك حسرة إعراض الله عنهم ، وانقطاع رجالهم وإجابته إياهم بعد طول الغم بقوله : ﴿ أَخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ [المؤمنون ٢٢/١٠٨] ، لم يتعاظمك شيءٌ من الدُّنيا إن أردت النجاة من ذلك ، ولا أمنك من هُولِهِ ، ولو قدمت في طلب النجاة منه جميع ماملك أهل الدُّنيا ، كان في معاينتك ذلك صغيراً ، ولو رأيت أهل طاعة الله تعالى وما صاروا إليه من كرم الله عزَّ وجلَّ ، ومنزلتهم مع قربهم من الله عزَّ وجلَّ ونضرة وجوههم ، ونور ألوانهم وسرورهم بالنعيم المقيم ، والنظر إليه والمكانة منه ، لتقلَّ في عينك عظيم ما طلبت به صغير ما عند الله ، ولصغر في عينك جسيم ما طلبت به صغير ذلك من الدُّنيا ، فاحذر على نفسك حذراً غير تغريب ، وبادر بنفسك قبل أن تسبق إليها وما تخاف الحسرة عند نزول الموت ، وخاصم نفسك على مهل وأنت

(١) الكلوج : تكثُر في عبوس ، والكللاح والكلوح : بُدُؤ الأسنان عند العبوس ..

[اللسان : كلح] ، وفي التنزيل : ﴿ تُلْقَى وُجوههم النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْمَوْنَ ﴾ .

(٢) التبور : الملائكة والحرسان والويل ، [اللسان : ثبر] .

تقدر بإذن الله على جر المنفعة إليها ، وصرف الحجة عنها ، قبل أن يتولى الله حسابها ، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها ، واجعل من نفسك لنفسك نصيباً بالليل والنهر ، وصلٌ من النهار اثنتي عشرة ركعة ، وأقرأ فيهن ما أحببت ، إن شئت صلهم جميعاً ، وإن شئت متفرقات ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيته في الجنة »^(١) ، وصلٌ من الليل ثمان ركعات بجزء من القرآن ، وأعط كل ركعة حقها ، والذي ينبغي فيه من قام الرُّكوع والسُّجود وصلهم مثنى مثنى ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه كان يصلى من الليل ثمان ركعات ، ولو ترثلا ركعات سوى ذلك ، يسلم من كل اثنتين .

وضم ثلاثة أيام من كل شهر : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « ذلك صيام الدهر »^(٢) .

وأعط زكاة مالك طيبة بها نفسك حين يحول عليه الحول ، ولا تؤخرها بعد حلها ، وضعها فيمن أمر الله تعالى ولا تضعها إلا في أهل ملك من المسلمين ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله تعالى لم يرض من الصدقة بحكم نبي ولا غيره^(٣) حتى حدثها هو على ثانية أجزاء ، قال عز وجل : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل .. ﴿التوبة ٦٠﴾ [٦٠].

واحجج حجة الإسلام من أطيب مالك وأزakah عندك ، فإن الله تعالى

(١) « من صلى في يوم وليلة ثانية عشرة ركعة - سوى الفريضة - بني له بيته في الجنة » ، أم حبيبة ، وأبو هريرة .

(٢) الترمذى في أبواب الصوم ، وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٣) أبو داود عن زياد بن الحارث .

لَا يقبل إِلَّا طَيِّبًا ، وَبَلَغَنِي أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ..﴾ [البقرة ٢٠٢/٢] ، غَفَرَ لَهُ .

مِنْ بطاعةِ اللهِ ، وَأَحَبَّهُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهُ عن معاصِي اللهِ تَعَالَى وَأَبْغَضَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانهَا عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّمَا هُلُكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِتِرْكِهِمْ عَنِ الْمَعْاْصِي ، وَلَمْ يَنْهَمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْجَارُ ، فَمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ، مَنْ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمُ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهِيِّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لَا يَقْدِمُ أَجَلًا وَلَا يَقْطَعُ رِزْقًا »^(١) .

أَحْسَنَ إِلَى مَنْ خَوْلَكَ اللهُ تَعَالَى ، وَاشْكُرْ تَفْضِيلَهِ إِيَّاكَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَصْلِي فَانْصَرَفَ وَقَالَ : « أَطَّتِ^(٢) السَّمَاءَ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئْطِي ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعَ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ جَبَهَةً مَلَكٌ سَاجِدٌ »^(٣) ، فَمَنْ كَانَ لَهُ خَوْلٌ^(٤) فَلِيَحْسِنْ إِلَيْهِ ، وَمَنْ كَرِهَ فَلِيَسْتَبِدِّلْ ، وَلَا تَعْذِبُوا خَلْقَ اللهِ ، أَلْزَمَ الْأَدْبَرَ مِنْ وَلَيْتَ أَمْرَهُ وَأَدْبَرَهُ ، وَمَنْ وَجَبَ عَلَيْكَ النَّظرُ فِي أَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِلْفَضْلَ بْنَ الْعَبَّاسَ : « لَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَلَى أَهْلِكَ ، وَأَخْفِهِمْ فِي اللهِ »^(٥) ، لَا تَسْتَأْلِمْ إِلَى النَّاسِ وَاسْتَجِرْهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ ، لَا تَغْمُصْ^(٦) النَّاسَ ، وَأَخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « أَلَا أَحْدَثُكُمْ بِوَصِيَّةِ نُوحَ لَابْنِهِ ، قَالَ :

آمِرُكَ بِاثْنَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَيْنِ ، آمِرُكَ بِقُولِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتِ فِي كَفَّةٍ ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي كَفَّةٍ وَزَرَّتْهَا ، وَلَوْ وَضَعْتَهَا عَلَى حَلْقَةِ قَصْمَتِهَا .

(١) أبو نعيم في الحلية .

(٢) أَطَّتِ الإِبْلَ تَطْ أَطْيَطًا : أَنْتَ تَعْبَأُ أَوْ حَنِينًا .. [اللُّسَانُ : أَطَطْ] .

(٣) أَحْمَدُ وَالْتَّرمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَالْحَافِظُ عَنْ أَبِي ذِرٍ مَرْفُوعًا .

(٤) الْخَوْلُ : الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْخَاصِيَّةِ ، [اللُّسَانُ : خَوْلٌ] .

(٥) الْعَسْكَرِيُّ فِي الْأَنْفَالِ عَنْ أَبِنِ عَمْرٍ .

(٦) عَمْصَهُ : حَقْرُهُ وَاسْتَصْغَرَهُ وَلَمْ يَرِهِ شَيْئًا ، [اللُّسَانُ : غَمْصٌ] .

وقل : سبحان الله وبحمده ، فإنها عبادة الخلق ، وبها تقطع أرزاقهم فإنها
يكثران لمن قالوها الولوج على الله عز وجل .

وأنك عن الشرك والكبُر ، فإن الله متحجب عنها ، فقال له بعض
أصحابه : أمن الكبر أن يكون لي الدابة النجيبة ؟ قال : لا ، قال : أمن الكبر
أن يكون لي الثوب الحسن ؟ قال : لا . قال : أمن الكبر أن يكون لي الطعام
أجمع عليه الناس ؟ قال : لا ، إنما الكبر أن تسفه الحق ، وتغمض الخلق » وإياك
والكبُر والرُّهو فإن الله عز وجل لا يحبهما .

وبلغني عن بعض العلماء أنه قال : يحشر المتكبرون يوم القيمة في صور
الذر^(١) تطؤهم الناس بتكبرهم على الله عز وجل .

لاتأمن على شيء من أمرك من لا يخاف الله ، فإنه بلغني عن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه أنه قال :
« شاور في أمرك الذين يخافون الله » .

احذر بطانة السوء وأهل الردى على نفسك ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ قال : « ما من نبي ولا خليفة إلا ولو بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن
النكر ، وبطانة لا تأله خبلاً »^(٢) . وهو مع الذي استولت عليه ، ومن وقى بطانة
السوء فقد وقى ، واستبطن أهل التقوى من الناس .

وأكرم ضيفك فإنه يحق عليك إكرامه ، وأرع حق جارك ببذل المعروف ،
وكف الأذى عنه ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله
واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم
ضيفه »^(٣) .

(١) الذر : صغار النمل ، واحدته ذرة ، [اللسان : ذر] .

(٢) الخبر : الفساد ، [اللسان : خبل] . والحديث في مسند الإمام أحمد والأربعة عن أبي هريرة .

(٣) مسلم والترمذى ، وبلفظ مقارب عند البخارى .

وتكلم بخير أو أَسْكَتْ : فإنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلِيَقُولْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُنْ »^(١) ، وَاتَّقِ فَضْلَ الْمَنْطَقِ^(٢) : فإنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ ابْنِ مُسْعُودَ أَنَّهُ قَالَ : أَنْذِرْكُمْ فَضْلَ الْمَنْطَقِ .

وَأَكْرَمْ مَنْ وَادَّكَ وَكَافَّهُ بِعُودَتِهِ ، وَإِيَاكَ وَالْغَضْبُ فِي غَيْرِ اللَّهِ ، لَا تَأْمِرْ بِخَيْرِ إِلَّا بَدَأْتَ بِفَعْلِهِ ، وَلَا تَنْهِ عنْ سُوءِ إِلَّا بَدَأْتَ بِتَرْكِهِ ، دَعْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يَعْنِيهِ : فإنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ حُسْنَ إِسْلَامَ الرَّءُوفِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ »^(٣) .

صِلْ مِنْ قَطْعَكَ ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ : وَأَعْطِ مِنْ حَرْمَكَ ، فَإِنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّهَا أَفْضَلُ أَخْلَاقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

اتَّقِ كَثْرَةَ الضَّحْكِ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى السَّفَهِ ، فَإِنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَنَّ ضَحْكَهُ كَانَ تَبْسِمًا »^(٤) .

لَا تَمْرُحْ فَتَنْدِمْ نَفْسَكَ : فإنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنِّي لَا مُزْحَ ولا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا »^(٥) .

لَا تَخَالَفْ إِلَى مَا نَهَيْتَ عَنْهُ ، وَإِذَا نَطَقْتَ فَأَوْجَزْ : فإنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « وَهُلْ يَكُبُّ النَّاسُ فِي نَارِ جَهَنَّمِ إِلَّا هَذَا »^(٦) ، يَعْنِي لِسانَهُ .

لَا تَصْرُّ خَدَّكَ لِلنَّاسِ^(٧) : فإنَّهُ بِلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلُّهُمْ لِيْنٌ سَهْلٌ طَلْقٌ » .

(١) مسلم والنَّرْمَذِيُّ .

(٢) كلام كُلُّ شَيْءٍ : مَنْطَقَهُ ، [اللُّسْانُ : نَطْقٌ] .

(٣) النَّرْمَذِيُّ وابنِ ماجِهِ واحْمَدُ فِي الْمَسْنَدِ .

(٤) البَخَارِيُّ وَمُسْلِمُ وَأَبْوَ دَاؤِدَ وَالنَّسَائِيُّ .

(٥) التَّرْمِذِيُّ وَأَبْوَ دَاؤِدَ .

(٦) مَتَّفِقُ عَلَيْهِ .

(٧) الصَّرَّعَرُ : مِيلٌ فِي الْوِجْهِ ، وَقَدْ صَرَّعَرَ خَدَّهُ وَصَاعَرَهُ : أَمَالَهُ مِنَ الْكَبِيرِ ، [اللُّسْانُ : صَعْرٌ] .

اترك من أعمال السر ما لا يحسن بك أن تعمله في العلانية . أتقى كل شيء
 تخاف فيه تهمة في دينك ودنياك ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن
 بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم » .

أقلل طلب الحاجات من الناس فإن في ذلك غضاضة ؛ وبلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتسأل الناس » .

وليكن مجلسك بيتك أو مسجدك ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال :
 « المساجد بيوت المتقين » ^(١) .

لاتكثر الشخصوص من بيتك إلا في أمر لا بد منه ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « ستة مجالس المسلم ضامن على الله ما كان في شيء منهم : في سبيل الله ، أو في بيت الله ، أو في عيادة مريض ، أو شهود جنازة أو جمعة ، أو عند إمام مقطسط يعزره ويوقره » ^(٢) .

أحسن خلقك مع أهلك ، ومن اعترّ بك ، فإن في ذلك رضى لربك ومحبة في أهلك ومثراة في مالك ، ومنسأة في أجilk ؛ فإنه بلغني عن بعض العلماء من الصحابة أنه قال ذلك .

أحسن البشر إلى عامة الناس ، واتق شتمهم وغيبتهم فإن الله تعالى قال :
 « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ .. » [الجراث : ٤٩] ، وبلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتشتم الناس » ^(٣) .

(١) الطبراني في الكبير والأوسط والبزار .

(٢) البراز والطبراني عن ابن عمر .

(٣) أبو داود ، وابن حبان .

اتَّقِ أَهْلَ الْفَحْشَ ، وَجَالِسَةَ أَهْلَ الرَّدَى ، وَمُحَادِثَةَ الْبَعْدَةَ مِنَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّهُ
بلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « اعتبر الناس بأخذتهم ^(١) ، فإنما
يُخادِنُ الرَّجُلَ الرَّجُلَ مُثْلَهُ ». .

أَكْرَمَ الْيَتَمَ وَارْحَمَهُ وَاعْطَفَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ
كَفَلَ يَتِيماً لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ كَنْتَ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ » ^(٢) وَأَشَارَ بِأَصْبَعِيهِ فَضَّلَّهُمَا .

أَعْرَفُ لَابْنِ السَّبِيلِ حَقَّهُ ، وَاحْفَظُ وصِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ أَوَّلَ
مَنْ ضَافَ الضَّيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

أَعْنَ المَظْلُومِ وَانْصَرْهُ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَخُذْ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وَادْفَعْهُ عَنْ ظُلْمِهِ :
فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَشَى مَعَ مَظْلُومٍ حَتَّى يُبَثَّ لَهُ حَقُّهُ
ثَبَّتَ اللَّهُ قَدْمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ » ^(٣) .

اتَّقِ اِتْبَاعَ الْهَوَى فِي تَرْكِ الْحَقِّ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَثْتَيْنِ : اِتْبَاعَ الْهَوَى ، وَطُولَ الْأَمْلِ ، فَإِنَّ اِتْبَاعَ الْهَوَى يَصْدِّ عَنِ
الْحَقِّ ، وَطُولُ الْأَمْلِ يُنْسِيُ الْآخِرَةَ ». .

أَنْصَفُ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَلَا تَسْتَطِلُ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ
قَالَ : « أَشْرَفَ الْأَعْمَالُ ثَلَاثَةٌ : ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَمُوَاسَةُ الْأَخِرَةِ مِنَ الْمَالِ ،
وَإِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ ». .

أَغْضَضَ بَصَرَكَ عَنْ حَارِمِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْ عَلِيٍّ كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ :
« لَا تَتَبَعُ النَّظَرَةَ النَّظَرَةَ الْأُولَى ، وَلَيْسَ لَكَ الْأُخْرَى » ^(٤) .

(١) الحِدْنُ وَالْخَدِينُ : الصَّدِيقُ ، [اللِّسَانُ : خَدْنٌ] .

(٢) البخاري في الأدب ، والترمذى وأبو داود .

(٣) أبو داود في الأدب .

(٤) القول من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَلِيٍّ ، رواه أَحْمَدُ فِي الْمَسْنَدِ وَأَبُو دَاؤِدَ وَالْتَّرْمِذِيِّ وَالْحَاجِمِ .

اتق المطعم الوبي^(١) ، والمشرب الوبي ، والملبس الوبي ، فإن ذلك يذهب أنفته وتبقي عاقبته ، وإن الله سبحانه أدب رسالته فقال : « كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا » [المؤمنون : ٥١/٢٢] . وقال النبي ﷺ : « من أكل بأخيه المسلم أكلة أطعمه الله مكانها أكلة من نار ، ومن سمع ب أخيه المسلم سمع الله به يوم القيمة ، ومن ليس ب أخيه المسلم ثواباً أليسه الله مكانه ثوباً من نار »^(٢) .

أقبل عذر من اعتذر إليك ورجع عما كرحت ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يعتذر كان عليه مثل وزر صاحب مكس »^(٣) .

لتكن يدك العليا على كل من خالطت ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « اليد العليا خير من اليد السفلية »^(٤) .

صاحب الأخيار فإنه يعينونك على أمر الله عز وجل ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « ما تחاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدّهما حباً الصاحب »^(٥) .

وصل رحمك وإن قطعك ، ولا تكافئه بمثل ماؤقي إليك ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أن رجلاً قال له : إن لي أقرباء أعفو ويطموني ، وأصل ويقطعني ، وأحسن ويسئوني ، فأكافئهم ؟ فقال ﷺ : « إذن تركوا جميعاً ، ولكن إذا أساوا فأحسن فإنه لن يزال لك عليهم من الله ظهير » .

(١) الوبي : من وبا ، المرض بشكل عام .

(٢) أبو داود في الأدب ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان ،

(٣) ابن ماجه عن ابن جودان ، وهو رجل غير منسوب ومختلف في صحبته ، والمكس : دراهم كانت تؤخذ من باائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، والمكس : الضرية التي يأخذها المالكين ، وأصله الجباية ، والمكس : ما يأخذ العشار . [اللسان : مكس] .

(٤) ابن حجر في تهذيبه ، عن صفوان .

(٥) البخاري في الأدب المفرد .

ارحم المسكين المضطر ، والغريب الحاج ، وأعنـه على ما استطعت من أمره ؛ فإنه بلغني عن ابن عباس أنه قال : « كلُّ معرفـ صدقة » .

ارحم السـائل واردهـ من بـابك بـفضل مـعروفـك بالـبذل منـك ، أو قولـ مـعروفـ تقولـ له ، فإـنه بلـغـني عنـ النـبـي ﷺ أنهـ قال : « ردـ عنـك مـذـمةـ السـائل بـمـثـلـ رـأـسـ الطـيـرـ منـ الطـعـامـ » .

لاتـزـهدـ فيـ المـعـرـوفـ عـنـ دـلـوكـ فـيـ إـنـاءـ النـبـي ﷺ أنهـ قال : « لـاتـزـهدـ فيـ المـعـرـوفـ ، ولوـ أـنـ تـصـبـ مـنـ دـلـوكـ فـيـ إـنـاءـ المـسـتـقـيـ » أـردـ بـكـلـ مـاـ يـكـونـ مـنـكـ مـنـ خـيرـ إـلـىـ أـحـدـ اللهـ ؛ فإـنهـ بلـغـنيـ عنـ النـبـي ﷺ أنـ قـولـهـ عـزـ وجـلـ : « فـوـئـلـ لـلـمـصـلـيـنـ ☆ الـذـيـنـ هـمـ عـنـ صـلـاتـهـمـ سـاهـوـنـ » ، [المـاعـونـ : ٤٠٧ـ وـ ٥ـ] ، قالـ : المـنـافـقـ الـذـيـ إـذـاـ صـلـىـ رـاءـيـ ، وـإـنـ فـاتـتـهـ لـمـ يـبـلـغـ إـلـيـهاـ ، « وـيـمـنـعـونـ الـمـاعـونـ » قالـ : المـاعـونـ الزـكـاـةـ الـتـيـ فـرـضـهـ اللهـ عـزـ وجـلـ .

إـيـاكـ وـالـرـيـاءـ فإـنهـ بلـغـنيـ أنـهـ يـصـعدـ عـلـمـ المـرـائـيـ إـلـىـ اللهـ عـزـ وجـلـ وـلـاـ يـزـكـيهـ عـنـهـ . إنـ اـسـتـطـعـتـ أـنـ تـعـمـلـ بـعـمـلـ مـاـ عـالـمـتـ فـيـ بـيـنـكـ وـبـيـنـ اللهـ عـزـ وجـلـ فـاـفـعـلـهـ ؛ فإـنهـ بلـغـنيـ عنـ النـبـي ﷺ أنهـ قالـ : « نـضـرـ اللهـ أـمـرـاـ سـمعـ مـقـالـيـ فـوـعـاـهـ حـتـىـ يـبـلـغـهاـ غـيرـهـ فـرـبـ غـائـبـ أـحـفـظـ مـنـ شـاهـدـ ، وـرـبـ حـامـلـ فـقـهـ غـيرـ فـقـيـهـ »^(١) ، لـاـ يـغـفـلـ قـلـبـ اـمـرـئـ مـسـلـمـ عـنـ ثـلـاثـ خـصـالـ : إـخـلـاصـ الـعـمـلـ للـهـ ، وـالـنـصـيـحةـ لـإـمامـ الـعـادـلـ ، وـالـنـصـيـحةـ لـعـامـةـ الـمـسـلـيـنـ ، فإـنـ دـعـوتـهـمـ تـحـيطـ مـوـرـائـهـ .

(١) مـسـنـدـ أـبـيـ يـعـلـىـ : ٧٤١٣/١٣ـ ، وـ ٧٤١٤ـ

وإياك وسوء الخلق فإنه يدعوك إلى معاishi الله تعالى ، وقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « خياركم أحسنكم أخلاقاً »^(١) .

اخضع لله إذا خلوت بعملك : فإنه بلغني عن النبي ﷺ أن ملكاً أتاه فقال : إن ربك يقرئك السلام ، ويقول إن شئت أجعلك ملكاً نبياً أو عبداًنبياً ، فأشار إليه جبريل عليه السلام أن تواضع فما أكل متكتناً حتى مات .

لاتظلم الناس فيدي لهم^(٢) الله عليك : فإنه بلغني عن بعض العلماء من الصحابة أنه قال : « ما ظلمت أحداً أشد على ظلماً من أحد لا يستعين على إلا بالله تعالى » .

احذر البغي فإنه عاجل العقوبة ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال^(٣) : « إن أعجل الحير ثواباً صلة الرحم ، وإن أعجل الشر عقوبة اليمين الغموس ترك الديار بلاق^(٤) .

لا تحلف بغير الله في شيء ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، ليحلف حالف بالله أو ليسكت^(٥) ، ولا تحلف بالله في كل شيء ؛ فإنه بلغني أن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عَرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ [الفرقة : ٣] .

ارحم الناس يرحمك الله ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » .

(١) أحمد في المسند والترمذى .

(٢) الإدالة : الغلبة ، يقال : أديل لنا على أعدائنا : أي ننصرنا عليهم ، [اللسان : دول] .

(٣) البيهقي عن مكحول مرسلأ .

(٤) البلاع والبلقة : الأرض الفقير الي لا شيء بها ، [اللسان : بلقع] .

(٥) أبو داود والنسائي .

أَحْبَب طَاعَةَ اللَّهِ يَحِبُّكَ اللَّهُ وَيَحِبُّكَ إِلَى خَلْقِهِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لَنْبِيِّهِ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٢١٣] . وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ قَرَّةَ عَيْنِي فِي السُّجُودِ »^(١) ، وَلَعْلَهَا فِي الصَّلَاةِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَا أَسَرَّ عَبْدَ قَطْ سَرِيرَةً خَيْرًا إِلَّا أَبْلَسَهُ اللَّهُ رِداءُهَا ، وَلَا أَسَرَّ سَرِيرَةً شَرًّا قَطْ إِلَّا أَبْلَسَهُ اللَّهُ رِداءُهَا ، وَلِيَكُنْ عَلَيْكَ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي مَنْطَقَكَ وَمَجْلِسَكَ وَمَرْكَبَكَ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَالنَّاسُ يَزْحِفُونَ حَوْلَهُ : « عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ »^(٢) .

أَعْطِ دَابِتَكَ إِذَا رَكِبْتَهَا حَظْلَهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَحَظِظَهَا مِنَ الْمَقْصِدِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَ الْعَجْمَ »^(٣) فَأَعْطُوهَا حَظْلَهَا مِنَ الْأَرْضِ »^(٤) .

عَلَيْكَ بِالْحُلْمِ وَإِلَّا غَضَاءَ عَمَّا كَرِهْتَ ، وَلَا تَتَنَبَّعْ ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ بِلِفْكَ عَنْهُ أَذِى ، وَلَا تَكَافِئْهُ فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْفَضْلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَلِيمَ الْحَيِّ الْعَفِيفَ الْمُتَعَفِّفَ »^(٥) .

أَدْفَعْ السَّيِّئَةَ بِالْأَيْتِيِّ هِيَ أَحْسَنُ ؛ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « أَيُّهَا

(١) جامع الأصول : ٥٠٦٤ و ١٦١١ عن أنس بن مالك (٢٩١٣ و ٧٠٥١) .

(٢) البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي .

(٣) كُلُّ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَلَامِ فَهُوَ أَعْجَمٌ وَمُسْتَعْجَمٌ ، وَالْأَعْجَمُ : الْأَخْرَسُ ، وَالْعَجِيَّاءُ وَالْمُسْتَعْجِمُ : كُلُّ بَهِيَّةٍ ، [اللُّسَانُ : عَجمٌ] .

(٤) الدَّارِقَطْنِيُّ فِي الْأَفْرَادِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

(٥) مسلم وأحمد عن سعد بن أبي وقاص .

السلمي ، أتّقِ العقوق وقطيعة الرّحيم فإنَّ في ذلك شيئاً في الدُّنيا وتباعدًا في الآخرة » ؛ وبلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « اشتكى الرَّحِيمُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ يَقْطِعُهَا فَرَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا : أَمَا تَرَضَيْنَ أَنْ أَصِلَّ مِنْ وَصْلِكَ ، وَأَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ » ^(١) .

إِذَا غَضِبْتَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فَادْكُرْ شَوَابَ اللَّهِ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤/٣] .
وَبَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مَتَّلَأَ رَجُلٌ غَيْظًا فَكَظَمَهُ اللَّهُ إِلَّا مَلَأَهُ رَضْوَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

إِذَا وَعَدْتَ مَوْعِدًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَلَا تَخْلُفْهُ وَإِذَا قَلْتَ قَوْلًا فِيهِ رَضَا اللَّهِ فَأَوْفِ بِهِ وَدَمْ عَلَيْهِ : بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ تَكَفَّلَ لِي بِسْتَ أَتَكَفِّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ : إِذَا حَدَّثَ لَمْ يَكُذِّبْ ، وَإِذَا وَعَدَ لَمْ يَخْلُفْ ، وَإِذَا ائْتَمَنَ لَمْ يَخْنُ ، وَغَضَّ بَصَرَهُ ، وَحَفَظَ فَرْجَهُ ، وَكَفَّ يَدَهُ » .

إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ لَيْسَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَلَا تَهْمِنَ بِهَا وَكَفَرْهَا : فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لَا نذْرٌ فِي مُعْصِيَةِ اللَّهِ » ^(٢) ، وَكَفَارَتُهَا كُفَّارَةُ يَمِينِ النَّذْرِ يَمِينٌ ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ ، ثُمَّ رَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأَتَى الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفَرَ عَنِ يَمِينِكَ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ .

إِيَّاكَ وَالتَّزَيِّدُ فِي الْقَوْلِ ، وَأَنْ تَقُولَ قَوْلًا وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظَرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْإِمَامُ الْكَذَّابُ ، وَالْعَائِلُ الْمَرْهُوُّ ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي » ^(٣) .

(١) البخاري في الأدب ، وأحمد في مستذه .

(٢) مسلم وأبو داود والنسائي عن عمران بن حصين .

(٣) مسلم والنسائي عن أبي هريرة .

بَرَّ والديك وخصها منك بالدُّعاء في كُلٌّ صلاة ، وأكثر لها الاستغفار ، وابداً بنفسك قبلهما ، فإنَّ إبراهيم عليه السَّلام قال : « رب اغْفِرْ لي ولوالدي » فبدأ بنفسه قبل والديه : وبلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « من سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي عُمْرِهِ ، وَيُزَادَ فِي رِزْقِهِ ، فَلِيَتَقَبَّلَ اللَّهُ رَبُّهُ وَلِيَصُلِّ رَحْمَهُ » ^(١) .

اشكر الناس ما أتوا إليك من خيرهم ، وكافئهم إن قدرت عليه : فإنَّه بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال : « من لم يشكر الناس لم يشكِّر الله » ^(٢) .

إذا ركبت دابة فوضعت رجلك في الركاب فقل : باسم الله ، وإذا استويت راكباً فقل **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** ^(٤) [الرَّحْمَن : ١٣/٤٣] : فإنَّه بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كان يقول ذلك كلما ركب دابة .

إذا أكلت وشربت فاذكر اسم الله فإنَّ نسيت في أول حالي فاذكره إذا ذكرت : بلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّه قال : تذكر أسم الله حين تذكر ، فإنَّه يحول بين الخبيث وبين أن يأكل معه ويتقى مأكل ، فإذا فرغت فقل : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا مسلمين : فإنَّه بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كان يقول ذلك إذا أكل وشرب .

وإذا أكلت ومعك آخر فكل ما يليك بيینك ولا تأكل من فوق الطعام ولا من بين يدي أحد : فإنَّه بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قال لرجل يفعله : « اذكر

(١) نَسَأُ الشَّيْءَ يَنْسُؤُهُ نَسَأُ وَأَنْسَاهُ : أَخْرُهُ ، وَنَسَأُ اللَّهَ فِي أَجْلِهِ ، وَأَنْسَأُ أَجْلَهُ : أَخْرُهُ ، [اللَّسَان] .

(٢) البخاري والترمذ عن أبي هريرة .

(٣) أبو داود والترمذ .

(٤) مقرنون : مطيفون وغالبين أو ضابطين .

آثمَ الله وَكُلْ مَا يَلِيكَ وَكُلْ بَيْنَكَ ^(١) ، وَلَا تَأْكُلُ بِشَمَالِكَ ، وَلَا تَشْرُبُ
بِشَمَالِكَ ؛ وَبَلْغِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّهَا إِكْلَةُ الشَّيْطَانِ » ^(٢) .

لَا تَسْافِرُ مَا مَسْطَعْتُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ؛ فَإِنَّهُ بَلْغِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ
يَسْتَحِبُّ أَنْ يَسْافِرَ الْخَمِيسَ ، لَا يَسْافِرُ إِلَّا فِيهِ .

إِذَا أَصَابَكَ كَرْبَّ فَقُلْ : يَا حَيْ يَا قَيْوَمْ بِرْ حَمْتَكَ أَسْتَغْيِثُ ؛ فَإِنَّهُ بَلْغِي عَنِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ عِنْدَ الْكَرْبَ .

احْتَرِسْ مَنْ يَقْرُبُ إِلَيْكَ بِالنَّمِيمَةِ ، وَيَبْلُغُ الْكَلَامَ عَنِ النَّاسِ ؛ بَلْغِي عَنِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَلُوْنَ مَنْ لَعِنَ أَبَاهُ ، مَلُوْنَ مَنْ لَعِنَ أُمَّهُ ، مَلُوْنَ مَنْ غَيْرَ
تَحْوُمَ ^(٣) الْأَرْضَ ، مَلُوْنَ كُلَّ صَقَارَ » ^(٤) ، وَهُوَ النَّيَامُ .

لَا تَجُرُ ثِيَابَكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ ؛ وَبَلْغِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ
جَرَ ثِيَابَهُ خَيْلَاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٥) .

أَطْعِنِ اللَّهَ فِي مُعْصِيَةِ النَّاسِ ، وَلَا تَطْعِنِ النَّاسَ فِي مُعْصِيَةِ اللَّهِ ؛ بَلْغِي عَنِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لَا طَاعَةَ لِخَلْقِنِي فِي مُعْصِيَةِ الْخَالِقِ » ^(٦) .

إِذَا أَصَابَكَ حَزْنٌ أَوْ سُقْمٌ أَوْ ذَلَّةٌ أَوْ لَأْوَاءَ ^(٧) - يَعْنِي الْجُوعَ - فَقُلْ : « اللَّهُ رَبِّي

(١) مَسْلِمُ فِي الْأَشْرِبَةِ .

(٢) مَسْلِمُ وَأَبْوَ دَاوُدَ وَالْتَّرمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهِ وَمَسْنَدُ أَحْمَدَ .

(٣) التَّحْوُمُ : الْحَدُودُ وَالْمَعَالِمُ . وَالْمَرَادُ هُنَا : أَنْ يَدْخُلَ الرَّجُلُ فِي مُلْكِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيَقْطَعُهُ
طَلَمًا .

(٤) الصَّقَارُ : النَّيَامُ ، وَالصَّقَارُ : الْلَّعَانُ لِغَيْرِ الْمُسْتَحْقِنِ ، [اللُّسْانُ : صَقْرٌ] ، وَالْحَدِيثُ فِي مَسْنَدِ
الإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ .

(٥) مَسْنَدُ أَبِي يَعْلَى : ١٢٨٠/٢ ، وَأَبْوَ دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْعُودٍ .

(٦) أَبُو نَعِيمُ فِي الْخَلِيلِ عَنْ عُمَرَ بْنِ حَصَينِ .

(٧) الْلَّأْيُ : الْجَهْدُ وَالْتَّدَدُ وَالْحَاجَةُ إِلَى النَّاسِ ، [اللُّسْانُ : لَأْيٌ] .

لأشرك به شيئاً » ، ثلاث مرات : بلغني عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بذلك من أصابه شيء من ذلك .

اصبر على ما أصابك من فجائع الدنيا وأحزانها لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠٣٩] ، والصَّابِرُ من الإيمان بنزلة الرأس من الجسد .

لاتمارين أحداً وإن كنتَ محقاً : بلغني أن قول الله عز وجل : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَجَّ ﴾ ، [البقرة: ١٩٧/٢] ، أنه المراء .

إذا همت بأمر من أمور الدنيا ففكِّر في عاقبته ، بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا همت بأمر من أمور الدنيا ففكِّر في عاقبته ، فإن كان رُشداً فامضه ، وإن كان غَيّاً فانته عنه » ^(١) .

إياك والتجريد خالياً فإنه ينبغي لك أن تستحيي من الله إذا خلوت ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لا أحب أن يلي لي شيئاً من لا يستحيي من الله في الخلاء » ، وإياك أن تدخل الحمّام والماء إلا بإزار ، ولا يدخل معك أحد الحمام إلا بإزار ، ولن تقدر على ذلك ، فإن لم تقدر فغض طرفك عن كلّ أحد كان مكشوفاً ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يدخل الحمّام إلا بإزار » ^(٢) .

أفشِ السلام وإن استطعت أن لا يسبقك أحدٌ إليه فافعل ، تعطَّ بذلك فضلاً عن النّاس ؛ وبلغني عن ابن مسعود أنه قال : « السلام اسم من أسماء الله ، وضعه فيكم فأفشووه فيكم ، فإنَّ الرَّجُل إذا سَلَّمَ كتب له عشر حسنات » .

أدْبٌ ولدك ومن وليت أمره على خلقك وأدبك ، حتى يتأدبوا على ما أنت عليه ، فيكونوا لك عوناً على طاعة الله ؛ بلغني عن ابن مسعود أنه قال : كل مؤدبٍ يحب أن يؤخذ بأدبه وإنَّ أدب الله هو القرآن .

(١) هناد عن عبد الله بن مسعود .

(٢) الترمذى وأبو داود وابن ماجه ومسند الإمام أحمد .

وإذا استشارك أحد فإن شئت تكلمت وإن شئت سكت ، واجتهد رأيك .
فإنَّه بِلُغَيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « الْمُسْتَشَارُ بِالْخَيْرِ ، إِنْ شَاءَ تَكَلَّمْ ، وَإِنْ شَاءَ سَكَتْ » ^(١) .

لاتفترض على أحد سرًّا أفساده إليك ، فإنَّها هي أمانة استودعها وائتمانك عليها ، إلَّا أَنْ يَكُونَ إِفْشَاؤُهُ خَيْرًا لَهُ فِي دُنْيَا وَآخِرَتِهِ فَافْسُدْهَا عَلَيْهِ وَانصُحْهُ فِيهَا ؛
بلغني عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ حَقَّ لِلْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا اسْتَنْصَحَهُ أَنْ يَنْصُحْهُ » .

إذا تعلَّمْتَ عِلْمًا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَلْيُرِيكَ عَلَيْكَ أُثْرَهُ ، وَلْيُرِيكَ سَمْتَهُ ، وَتَعْلَمْ
الَّذِي تَعْمَلُهُ وَتَعْلَمْ لَهُ السَّكِينَةُ وَالْحَلْمُ وَالْوَقَارُ ؛ بلغني عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :
« الْعَالَمُوْرَثَةُ الْأَنْبِيَاءُ » ^(٢) .

رد جواب الكتاب إلى كلَّ أحد كتبَ إليك ، فإنَّها هو كرَدُّ السَّلَامِ ، قال
عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحْيَيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أُوْرَدُوهَا ﴾ ،
[النساء : ٨٦/٤] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أرى رجع الكتاب على حقاً كاماً
أرى رجع السلام .

الزم الحياة فإنَّه خلق الإسلام ؛ بلغني عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لِكُلِّ شَيْءٍ
خَلْقٌ ، وَخَلْقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاةُ » ^(٣) .

إذا سافرت فقل : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ^(٤) وكابة المنقلب ،
ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر في الأهل والمال والحوار بعد الكور - أي النقصان
بعد الزِّيادة ^(٥) - بلغني عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يقول ذلك إذا سافر .

(١) ورد الحديث : « الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَنٌ » أبو هريرة وأم سلمة ، (الترمذى وأبو داود) .

(٢) ابن التَّجَارِ عن أنس .

(٣) مسلم وأبي داود والترمذى والنمسائى وابن ماجه والدارمى والوطا والإمام أحمد .

(٤) الوعثناء : ماغابت فيه الحوافر والأخفاف من الرُّمل الرقيق ، والدهاس من الحصى الصغار
وشبهه ، ووعثناء السُّفَرِ : مشقته وشدته ، [اللسان : وعت] .

(٥) انظر اللسان : حور ، وكور .

إيّاك وظلم الضعيف ، ومن لا يستعين عليك إلّا بالله ؛ بلغني عن النبي ﷺ
 أَنَّهُ قَالَ : « ثَلَاثَةٌ لَا تَرْدُ دُعَوْتَهُمْ ، الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطُرَ ، وَدُعْوَةُ
 الْمُظْلُومِ فَإِنَّهَا تَصْدُعُ فَوْقَ الْغَمَامِ فَيَقُولُ اللَّهُ هُمَا : وَعَزَّتِي وَجْلَانِي لِأَنْصَرْتَكَ وَلَوْ بَعْدَ
 حِينَ » ^(١) .

إِذَا وَدَعْتَ مَسَافِرًا فَقُلْ : زَوْدُكَ اللَّهُ التَّقْوَى ، وَغُفرَ لَكَ ذَنْبَكَ ، وَيُسَرِّ لَكَ
 الْخَيْرَ حِيثَا كُنْتَ ، أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ ، وَأَمَانَتَكَ ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ ، بلغني عن
 النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَصْحَابَهُ .

إِذَا حَضَرَ أَمْرًا لَيْسَ اللَّهُ بِطَاعَةٍ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تَدْفَعَهُ ، فَقُمْ عَنْهُ
 وَلَا تَقْعُدْ . بلغني عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَنْعَنُ أَحَدُكُمْ مُخَافَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُ
 الْحَقُّ إِذَا شَهَدَهُ أَوْ عَلِمَهُ » ^(٢) .

الزم السُّواكَ ، فَإِنَّهُ سُنَّةٌ ، بلغني عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « السُّواكُ مِنْ سُنَّةِ
 الْمَرْسِلِينَ » ^(٣)

أَفْشِ الصَّدَقَةَ ، فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ ، وَلِيَكُنْ ذَلِكَ مِنْ أَطْيَبِ مَالِكَ ، فَإِنَّ
 اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبِلُ إِلَّا الطَّيِّبَ . بلغني عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ
 لِيَتَصَدَّقَ بِالثَّمَرَةِ إِذَا كَانَتْ مِنْ طَيِّبٍ ، وَلَا يَقْبِلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبُ فَيَجْعَلُهَا فِي
 كَفَهِ ، فَيَرِيهَا لَهُ كَمَا يَرِي بَنِي أَحَدَكُمْ فِلْوَهُ » ^(٤) أَوْ فَصِيلَهُ ^(٥) حَتَّى تَكُونَ فِي يَدِهِ مِثْلُ
 الْجِبَلِ » .

إِذَا نَزَلْتَ بِكَ كَرْبَةَ مِنْ كَرْبَ الدُّنْيَا فَلَيْكَنْ مُفْزِعَكَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

(١) الترمذى عن أبي هريرة ، وأحمد في مسنده وابن ماجه .

(٢) ابن النجار عن ابن عباس .

(٣) ابن عساكر عن أبي هريرة .

(٤) الفلو : المهر الصغير ، [اللسان : فلا] .

(٥) الفصيلة : فخد الرجل من قومه الذين هو منهم ، والفصالة : العظام ، وبه سُنّي الفصيل من الإبل (ولد الناقة إذا فُصِّلَ عن أمه) ، [اللسان : فصل] . والحديث في مسنده الإمام أحمد .

حين تنزل بك . بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لن ينزل بعد قط أمر مفزعه فيه إلى الله إلا فرج الله عنه ». .

لاتضطجع على بطنك إذا نمت ، ولا في غير نومك ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « إنها لضجعة يبغضها الله ». .

أوف بالعهد إذا أعطيته من نفسك لكل أحد ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « أحق ما وُفي به عهد الله ». .

إذا حضرت السُّلطان [مجلس المظالم]^(١) فاشفع بخیر ، وإیاك والكلام [فيه]^(٢) إلا بما يرضي الله ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغت ، يكتب له بها سخطه إلى يوم القيمة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيمة »^(٣) .

أرد ما أرددت به الله ما استطعت ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « صدقة السُّرّ تطفئ غضب الرب »^(٤) .

اتقِ كثرة التَّزكية لنفسك ، أو ترضى بها من أحدٍ يقولها لك في وجهك . بلغني أنَّ رجلاً امتدح رجلاً عند النبي ﷺ فقال : « ويحك قطعت عنقه ، ولو سمعها ما أفلح أبداً »^(٥) .

(١) إضافة لا بد منها كي يستقيم المعنى ، لأن الرشيد هو السُّلطان . لقد كان يرأس (ديوان المظالم) في كل أسبوع يوماً ، للنظر في المظالم ، أو إن الرسالة وجهت للرشيد وهو ولي العهد .

(٢) وردت في الأصل (عنده) ، ولعلها تعود إلى المجلس .

(٣) الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة .

(٤) ابن حبان عن أبي سعيد ، والهيثمى في جمجم الزوائد ١١٥/٣

(٥) مسنن الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي بكر .

إِيَّاكَ وَمَدْحُ النَّاسِ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ؛ بَلْغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «اَحْتُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ الْمَدَاهِينَ»^(١).

طَهْرُ ثِيَابِكَ وَنَقْهَا مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَى -: «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ»^(٢)، [المدثر: ٤/٧٤]. يَأْمُرُهُ أَنَّ لَا يَلْبِسَهَا عَلَى عَذْرَةٍ - الْفَائِطَهُ - الَّذِي يَخْرُجُ مِنِ الْإِنْسَانِ -.

وَاكِرَهُ لَكُلُّ أَحَدٍ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ . بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ بَاعَ جَرِيراً الْبَجْلِي^(٣) عَلَى الْإِسْلَامِ وَالنَّصِيحَةِ لَكُلِّ مُسْلِمٍ .

إِيَّاكَ وَالْحَسْدُ وَالشَّرَهُ؛ بَلَغَنِي أَنَّهُمَا خَلْقَانِ مَرْدِيَانَ لِصَاحْبِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَسْدٌ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَا وَسْطَهُ عَلَى إِنْفَاقِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حَكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا»^(٤).

أَقْتَدِي فِي أَمْوَارِكَ بِرَأْيِ ذُوِي الْإِنْصَافِ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى؛ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «خِيَارَكُمْ شَبَانَكُمُ الْمُتَشَبِّهُونَ بِشَيْوُخِكُمْ، وَشَرَارَكُمْ شَيْوُخُكُمُ الْمُتَشَبِّهُونَ بِشَبَانَكُمْ» .

لَا تَخْتَرِ أَحَدًا، وَتَجَالِسْ مَأْبُونًا - مَتَّهَا بَشَرٌ - فَإِنَّ الْوَحْدَةَ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ، عَلَيْكَ بِمَعَالِيِ الْأَخْلَاقِ وَكَرِيعَهَا، وَاتَّقِ رِذَائِلَهَا وَمَا سَفَسَفَ مِنْهَا؛ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيُكَرِّهُ سَفَسَافَهَا» .

(١) الترمذى عن أبي هريرة.

(٢) جرير بن عبد الله بن جابر، أبو عبد الله البجلي، أسلم قبل وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعين يوماً، وكان حسن الصورة، قال عمر رضي الله عنه: جرير يوسف هذه الأمة، وهو سيد قومه، قال عليه السلام لما دخل عليه جرير فأكرمه: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وكان له في الحروب بالعراق أثر عظيم، وكانت بجيلاة متفرقة، فجعلهم عمر بن الخطاب، وجعل عليهم جريراً، [أسد الغابة: ٢٢٢/١].

(٣) مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود.

إذا رأيت من فضلتك عليه في دينك ودنياك فأكثر حمد الله عليه ، فإن ذلك من الشّكر ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ كَذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ تَلْكَ النِّعْمَةِ وَإِنْ عَظَمْتُ ». .

لاتركب الميثرة الحمرة - نوع من الحرير - ولا تلبس المعصفر : فإنه بلغني عن
رسول الله ﷺ أنه نهى عن ذلك .

إذا غضبت وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاضطجع : بلغني ذلك عن النبي ﷺ ، لا تتطيرن من شيءٍ تراه أو تسمعه ، وإذا كان من ذلك شيءٌ فقل : « اللهم لا يأتي بالخير إلا أنت ، ولا يدفع الشّرّ إلا أنت ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله » : بلغني أنَّ النبي ﷺ كان يأمر بذلك لمن رأى من ذلك شيئاً .

لاتتوضاً بشيء مما تأكل من الطعام ولا تدلّك به في الحمام فإن ذلك من الجفاء ، لا تخلقن بالخلوق إلا أن يكون في أثر النورـة - حجر الكلس وهو الرّئيـخ^(١) - ليذهب ريحها . بلغني عن النبي عليه السلام أنه قال : « بينما رجل في بردتين له متخلق يتبحـر فيها إذ ساخت به الأرض فهو يتجلـل - يدخل إلى يوم القيمة »^(٢) .

لاتغيرن أظفارك بالحناء ويديك إذا دخلت الحمّام فإنّه ليس من شيم أهل الفضل .

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ : أَرْبَعَ جَائِزَةٍ إِذَا تَكَلَّمَ هُنَّ ، الْطَّلاقُ ، وَالْعَتَاقُ ، وَالنِّكَاحُ ، وَالنَّذْرُ ، وَأَرْبَعَةٌ يَسُونُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ سَاخِطٌ وَيَصْبِحُونَ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ

(١) يحلق به شعر العانة ، يقال : انتَرِ الرَّجُلَ وَانتَرِ مِنَ النُّورَةِ ، [اللسان : نور] .

(٢) البخاري ومسلم ، ومسند الإمام أحمد والبيهقي عن أبي هريرة .

غضبان : المتشبهون من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال ، ومن أتى بهمة ، أو عمل عمل قوم لوط .

لاتطّيئن بشيء من الطيب يظهر لونه ، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « طيب الرجال ما بطن لونه وظهر ريحه ، وطيب النساء ما ظهر لونه وبطن ريحه » ^(١) .

الزم الرأي الحسن والاقتصاد : بلغني عن ابن عباس رضي الله عنها أنه قال : الرأي الحسن ، والهدي الحسن ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة .

إن استطعت أن لا تدع العامة والبرد ^(٢) في العيددين والجمعة فافعل : بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يلبس العامة والبرد في العيددين والجمعة ، وقال : إن الله تعالى أعز الإسلام بالعائم والألوية .

إذا طلاك أحد بالنورة فبلغ المرق ^(٣) ، فلا يل ذلك منك إلا نفسك ، ومن يحسن ذلك من نسائك ؛ فإنَّه بلغني عن بعض العلماء أنه كان يلي ذلك من نفسه ، لا بأس أن تغتسل بماء الحمام وأنت جنب وتصلي ، بلغني عن ابن عباس أنه سئل عن الجنب يغتسل في الحمام فقال إن الماء لا يجنب .

وإذا تنحمت في المسجد فادفنه : بلغني عن بعض العلماء أنه قال : هي خطيئة وكفارتها دفنتها .

إذا غلت فقل عند نياحك : اللهم أنت القائم الدائم لا تزول ، خلقت كل شيء لا شريك لك علمت كل شيء بغير تعلم ، اغفر لي إنَّه لا يغفر الذُّنوب إلا أنت ؛ بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : ألا قلت كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الذي قال ذلك .

(١) الترمذى عن أبي هريرة ، والطبرانى عن أنس .

(٢) البردة : كساء يلتحف به ، [اللسان : برد] .

(٣) المرق : البطن .

إذا أتيت الحاجة فلا تستقبل القِبْلَة بفُرْجِكَ ولا تستدبرها ولا تستنجد
بِيَّنكَ ؛ بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ أَنْ لَا يَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَة
وَلَا يَسْتَنْجُوا بِأَيْمَانِهِمْ ، وَلَا يَسْتَنْجُوا بِعَظَمٍ وَلَا رُوثَ .

إذا انصرفت من الصَّلَاة فقل : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْر كُلَّهُ مَا عَلِمْتَ مِنْهُ
وَمَا لَمْ أَعْلَمْ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلَّهُ مَا عَلِمْتَ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ
مِنَ الْخَيْر مَا سَأَلْتَ عَبَادَكَ الصَّالِحُونَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ مَا عَادَ مِنْهُ عَبَادُكَ
الصَّالِحُونَ ، اللَّهُمَّ آتَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ؛
بلغني عن ابن مسعود أَنَّهُ قَالَ : مَادِعًا مُرْسَلٌ وَلَا عَبْدٌ صَالِحٌ بِشَيْءٍ حَسَنٌ ، إِلَّا هُوَ
فِيهِ يَعْنِي فِي هَذَا الدُّعَاءِ .

لَا تَشْتَمْ عَبْدًا لَكَ وَلَا أَمَةً بِزْنِي ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ
قَذَفَ أَمَةً ، أَوْ حَرَّةً ، أَوْ يَهُودَيَّةً ، أَوْ نَصَارَيَّةً ، فَلَمْ يَتُرَبَّ فِي الدُّنْيَا ، ضُرِبَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ثَانِينِ جَلَدَةً » .

إذا كنت مسافراً أو مقيناً فامسح إن شئت على خَفْيَكَ ؛ إن كنت مسافراً
ثلاثة أيام ولِيالِيهِنَّ ، وإن كنت مقيناً في يوماً ولِيلَةً ؛ بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ
ذَلِكَ ، وَعُمَرُ بْنُ الخطَّابِ رضي الله عنه ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ
رَضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ قَالُوا ذَلِكَ .

إذا صافحَكَ أَحَدٌ ، فَلَا تَنْزَعْ يَدَكَ عَنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَنْزَعْ يَدَهُ
عَنْ يَدِكَ ؛ بلغني عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يَصَافِحْ أَحَدًا فَنَزَعْ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ
الَّذِي يَنْزَعْ يَدَهُ .

إذا أَقْبَلَ عَلَيْكَ رَجُلٌ بِوْجْهِهِ يَحْدُثُكَ فَلَا تَصْرُفُ وَجْهَكَ عَنْهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ
الَّذِي يَصْرُفُ وَجْهَهُ عَنْكَ .

وإذا جلست إلى جنب رجل أو جلس إلى جنبك رجل فلا تقوم من بين يديه ، ولا تجاوزن ركبتك ركبته . بلغني عن النبي ﷺ أنه لم تتجاوز ركبته ركبة جليس له .

وإذا أحستت من أمير ظلامة أو تغطراً فقل : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر أعز من خلقه جميعاً ، الله أكبر بما أخاف وأحذر وأعوذ بالله الممسك السماء أن تقع على الأرض إلا ياذنه من شرّ فلان ، اللهم كن لي جاراً من فلان وجنوده أن يفرط علي أحد منهم أو أن يطغى ، جل جلالك وعز جارك ولا إله غيرك ، تقول ذلك ثلاث مرات . بلغني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ذلك وأمرنا به .

وإذا كتبت إلى أحد من غير أهل الإسلام فلا تكتبن سلام الله عليكم ، ولكن اكتب السلام على من اتبع المهدى ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه كتب ذلك إلى مسيامة .

إذا عطست في الخلاء ، فاذكر اسم الله خفياً ، ولا تدهن في مدهن ذهب ولا فضة ، ولا تستجمر في مجامر الذهب والفضة ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه نهى عن الشرب في إناء الذهب والفضة ، ولا تنم على الحرير والديباج فإنه لبسة النساء ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه نهى عن لبس الحرير والديباج إلا للنساء .

إذا رأيت أمراً في أهلك وخاصتك ، مما ينبغي تغييره ، فلا تخابين منهم أحداً وقم فيه بالذى يحق عليك ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »^(١) .

إذا همت بأمر من طاعة الله عز وجل فلا تحبسه إن استطعت فواقاً^(٢) حتى

(١) البخاري والترمذى ومسند الإمام أحمد عن أنس .

(٢) الفوّاق والفوّاق : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأنّها تخلب ثم تترك سوية يرضعها الفصيل لتدبر ثم تخلب ، يقال : ما أقام عنده إلا فوّاقاً ، [الإنسان : فوق] .

تضييه ، فإنك لاتأمن الأحداث ، وإذا همت بأمر غير ذلك ، فإن استطعت أن لا تضييه فواقاً فافعل لعل الله تعالى يحدث لك تركه .

لا تستح إذا دعيت لأمر ليس بحق أن تقول : لا ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، [الأحزاب : ٥٢/٣٣] .

إذا سمعت المؤذن يؤذن ، فقل كما يقول ، إلا أنك تقول : حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، لا حول ولا قوّة إلا بالله ؛ بلغني ذلك عن النبي ﷺ .

لاتخلون بامرأة ليست لك بمحرم ؛ بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ماخلا رجلاً بامرأة ليست له بمحرم ، إلا كان ثالثهما الشيطان .

إذا قال الإمام أمين ، فقل أمين ، فإنه ينبغي إذا فرغ من أُم القراء أن يقول أmino ، ويقوله من خلفه سراً ولا يجهر به ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أمن الإمام فأمنوا ، فإن الملائكة تؤمن لتأمين الإمام ، فمن وافق منكم تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه »^(١) .

إذا قضيت الحاجة فلا تبدأ بشيء حتى تغسل فرجك ؛ بلغني عن النبي ﷺ أنه قال لأهل مسجد قباء ، إنما نزلت هذه الآية فيكم : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يَجِبُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يَحِبُ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ، [التوبة : ١٠٨/٩] . فأنبئوني ما هذا التطهير الذي ذكرتم به ، فاثبتوه عليه ، قالوا : والذي بعثك بالحق نبياً ، ماماً امرأة ولا رجل يأتي الخلاء فيبدأ بشيء دون غسل فرجه بالماء .

إذا أكلت طعاماً فعلق بين أصابعك فالعقها ، وأسنانك فتخلل ؛ فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس شيء أشد على الملك من أن يرى في الرجل طعاماً وهو يصلى » .

(١) مسلم في الصلاة عن أبي هريرة .

إذا نزلت منزلًا فقل : أَعُوذُ بِكَلْمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ؛ بِلْغَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مِنْ نَزْلَ مَنْزَلًا فَقَالَ هَذِهِ الْكَلْمَاتُ وَقِيَ شَرٌّ مَنْزَلَهُ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ » ^(١) .

لاتأكل شيئاً من ثمن طعام لا يحل لك أكله ، ولا شيئاً من ثمن شراب لا يحل لك شربه ، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخمر : « إِنَّ الَّذِي حَرَمَ شَرِبَاهَا حَرَمَ ثُنَثَهَا » ^(٢) .

ولا تداو بشيء لا يحل لك أكله ولا شربه ، ولا تبعه ، ولا تشره ، ولا تطعنه ولا تطعمه أحداً ولا تسقه ولا تداو به أحداً صغيراً ولا كبيراً ولا بهيمة ولا غيرها ، بلغني عن بعض علماء الصحابة أَنَّه نعَت لبعير له خمر فقال : لا والله لا أوجره خمراً .

لاتأكل لحم شيء من السباع . ولا ذا مخلب من الطير ، بلغني أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع .

إذا فزعت في منامك فقل : أَعُوذُ بِكَلْمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ ومن شرّ عباده ومن شرّ الشياطين وأن يخضرون ، بلغني عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : إذا فزع أحدكم في منامه فليقل ذلك .

إذا قلت لأحد : أقسمت عليك لتفعلن ، فلم يفعل الذي أقسمت عليه أن يفعله ، وجب عليك الحنى وكفر عن يمينك ، وكذلك إن قلت له أحلف عليك ، أو أشهد عليك لتفعلن فلم يفعل ، وجب عليك الحنى ، وكذلك إذا كنت وقتاً له وقتاً معلوماً فتركه حتى جاوز الوقت .

لاتبدآن أحداً من غير أهل الإسلام بالسلام ، لكن لو سلم هو فقل :
وعليكم ، بلغني أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ بِذَلِكَ .

(١) من مراسيل مكحول ، كنز العمال : ٢٦٥/٢

(٢) مسلم والنسائي والإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس .

لابأس أن تأكل جنباً وإن كنت لم تتوضأ إذا غسلت يديك .

لاتقل لأحد صلى الله عليك ، بلغني عن ابن عباس رضي الله عنها أنه قال : لاتتبغي الصلاة من أحد لأحد إلا للنبي عليه السلام . ولا تقل لأحد جعلني الله فداك ، بلغني أنَّ الزبير - بن العوام - قال للنبي عليه الله ذلك وهو مريض فقال له النبي عليه الله : « ما تركت أعرابيتك بعد » .

وبلغني عن بعض العلماء أنه قال : لا يتقدِّم أحد أحداً .

لابأس بمصافحة الجنب ومبادرته ، بلغني عن ابن مسعود أنه قال : أربعة ليس عليهم جناة : الأسنان والماء والثوب والأرض .

لابأس بمصافحة اليهودي والنصارى والصلة في بيوتهم .

لاتبلغ بشيء عن أدبك إذا أدبْت وعاقبت أحداً على جرم اجترمه أربعين سوطاً ، قال عليه الله : « من بلغ حدَّاً في غير حدٍّ فهو من المعتدين » .

إذا أحببت أحداً لله فأعامله ، فقد قال رجل للنبي عليه الله : إني أحبُّ فلاناً لله قال : أما أخبرته ؟ فقال : لا ، قال : فأخبره ، فلما أخبره قال : أحبُّك الله الذي أحببتي له .

لاتشفع فيمن وجب عليه حدٌ من حدود الله إذا أنهى إلى الإمام ولا تحل دونه ، ولا بأس أن تشفع قبل ذلك ، قال ذلك بعض علماء الصحابة و - قد - تشفع في سارق ، فقيل له : أتشفع فيه وأنت من الصحابة فقال : لابأس به قبل أن يبلغ الإمام ، فإذا بلغه فلا عفا الله عنه إن عفا عنه .

إلزم الصمت ، قال النبي عليه الله : « لا يستكمل الرجل الإيمان حتى يحزن لسانه » ^(١) .

(١) البيهقي عن أنس .

وإذا أتيت قريه أو بلدأً فقل : اللهم ارزقنا خيرها ، واصرف عنا وباءها ،
كان النبي ﷺ يقول ذلك إذا دنا من قريه .

إذا عطست فقل : الحمد لله ، فإن قال قائل : يرحمك الله ، فقل : غفر الله
لنا ولك ، وإن عطس مسلم فقال : الحمد لله ، فقل : يرحمك الله ، كان عليٌّ
رضي الله عنه يقولها لمن عطس : يرحمنا الله وإياك ، ويقول ذلك : يغفر الله لنا
ولك . ولا تشتمه حتى يحمد الله ، قال النبي ﷺ : « من حق المسلم إذا عطس
أن يُشَمَّت إذا حمد الله » .

وقر الكبير وأرحم الصغير ، قال النبي ﷺ : « ليس مِنْ مَا من لم يرحم
صغيرنا ، ويوقر كبيرنا » ^(١) .

لاتصافح امرأة ليست لك بزوجة ولا ملك بين ، ولا تضع يدها على شيء
من جسدك ، ولا تضع يدك على شيء من جسدها ، ولا تقبل يدك ولا شيئاً من
جسدك ولا تعانق رجلاً ، ولا تقبله ليس بذري رحم لك وأصنع ذلك
بذري رحمك .

ضم النبي ﷺ عَنْ عَجْفَرَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ قَدِمَ مِنَ الْخَبْشَةِ إِلَى نَفْسِهِ وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ .

لاترفع صوتك في مسجد جماعة ، ولا تشهر فيه سلاحاً فقد نهى النبي ﷺ
عنه .

إذا دعيت إلى تحمل شهادة ، فإنك خير فإن شهدت فلا يسعك الامتناع .

إذا دعيت إلى الأداء ، لا تثنن على أحد ياحسانك فإنه يبطل أجرك ، قال عز
وجل : ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى ﴾ [البقرة ٢٦٤/٢] ، ومن أولاك

(١) الترمذى في البر ، والإمام أحمد في المسند عن أبي أمامة .

معروفاً وعجزت عن مكافأته ، فأشن عليه واذكره به ، قال النبي ﷺ : « من أولي معروفاً فلم يقدر على مكافأته إلا بالثناء فقد شكره ومن كتمه فقد كفره » .

إذا طعمت وعندك أحد فادعه ، قال النبي ﷺ : « إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » ، قيل : لمن هي ؟ قال : « لمن أطعم الطعام وتتابع الصيام ، وطيب الكلام وصل بالليل والناس نيا » ^(١) .

إذا عملت عملاً لله فأحسنه لقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾

[هود ٧/١١] .

لاتجعل على أحد بعقوبة ولا تتهمه حتى تتحقق .

لاتأتِ أهلك ، أو جاريك وغيرها يراك أو يسمع حسك ، قال ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياة » قالوا : كيف نستحي من الله حق الحياة ؟ قال : « احفظوا الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، واذكروا الموت والبلى ، وذرزوا زينة الحياة الدنيا » ^(٢) .

إذا أصبحت فقل : اللهم لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولكل الحمد ، لا شريك لك ، عشر مرات ، قال النبي ﷺ : « من قالها عشر مرات حين يصبح ، وَكُلَّ بِهِ مَلَكًا يحرسانه حتى يسي ، وإذا قالها ليلاً فكذلك حتى يصبح » .

إذا كنت في العيددين والجمعة ويوم عرفة ، فاغتسل ، وإن توضأت أجزاءك ^(٣) ، وسأل رجل علياً عن الغسل فقال : لل الجمعة والعيددين وعرفة .

(١) مسند الإمام أحمد وابن حبان والبيهقي ، والترمذني عن علي رضي الله عنه .

(٢) مسند الإمام أحمد والترمذني والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود .

(٣) أجزاءك : كفاك ، أي أغناك الوضوء عن الغسل .

إذا رأيت الهلال فلا تستقبله حتى تدعوا وقل : الله أكبر الله أكبر الحمد لله ،
أسألك من خير هذا الشهر وأعوذ بك من شرّ القدر وشرّ يوم المحرث .

لاتؤمن أحداً في بيته ولا في سلطانه إلا أن يأذن لك ، وذلك أنه بلغني عن
النبي ﷺ أنه قال : « لا يؤمن الرجل في بيته ولا في سلطانه إلا يأذنه » .

ولا تحب من الناس أن يمثلوا لك قياماً ، قال ﷺ : « من سره أن يمثل له
ابن آدم قياماً وجبت له النار » .

أجب الدعوة إذا دعيت ، قال ﷺ : « الدعوة يوم العرس حق » وقال :
« لو دعيت إلى كُراعٍ ^(١) لأجبت ^(٢) » .

إذا حلفت على شيءٍ وحلف والدك أو أحدهما على خلافه فأطعهما مالم يكن
معصية .

احتجم في سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين ، أمر النبي ﷺ بذلك ^(٣) .

إذا عدت مريضاً فأخفف العيادة ، وأقلل اللثث .

إذا مررت بالمقابر فقل : السلام عليكم أهل الدار من المؤمنين والمسالمين ،
وإنما إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع ، أسأل الله لنا ولكم
العافية .

لابأس أن تشيي أمام الجنازة ، مشي النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وابن عمر

(١) الكُراع من الدواب : مادون الكعب ، وفي المثل : أعطي العبد كُراعاً فطلب ذراعاً ، لأنَّ
الذراع في اليد وهو الأفضل من الكُراع في الرجل ، [اللسان : كرع] .

(٢) الطبراني عن ابن عباس .

(٣) البزار وأبو نعيم عن ابن عباس .

أمامها ، وإذا كنت راكباً فلا تسبقها ، ولا تنزل حتى توضع عن عواتق الرجال ، بلغني ذلك عن بعض الصحابة .

لاتنفح في الطعام والشراب فإنه جفاء ، قاله بعض العلماء .

ارفع يدك في عشرة مواطن : إذا دعوت عند افتتاح الصلاة والعيدين والقنوت والتكبير ، وعند استلام الحجر وعرفة وجع [الحصى] والصفا والمروءة والبamar ، روي ذلك عن ابن عباس عند افتتاح الصلاة والقنوت والعيدين تردهما حتى تخاذلي إيهامك أذنك وتبسطهما عند صدرك في باقي ذلك .

لاتلعب بالنرد ، لعن النبي ﷺ اللاعب به ، وقال : « إياكم وإياه » .

لاتضخ العلك ولا تحمل إزارك ، ولا تجّرد^(١) ولا تحدف^(٢) ، قال النبي ﷺ إنها من أخلاق قوم لوط .

اجمع الصوام عند فطرك على طعامك ، قال ﷺ : « من فطر صائماً كان له مثل أجره ، ولا ينقص من أجر الصائم شيء » ^(٣) .

واعلم رحمك الله أنَّ الله تعالى خصك من مواعظي بما نصحتك وأنهيت إليك منه ما أرجو أن يكون سعادة لك وسبباً إلى الجنة ، فليكن منك فيما كتبت إليك من القيام بأمر الله تعالى ، واتباع ما هو أهله ، ماترجو به القربة عند الله تعالى ، ولا يكن ذلك مما تظلل به أي تكف عنه نفسك ، وتعاهد بها بالأخذ والتَّأديب عليه إن شاء الله حتى توقفها على الذي لا ينبغي لك التَّقصير بها عنه إن شاء الله تعالى ، والله الموفق للصَّواب وإليه المرجع والمأب ^(٤) .

(١) التَّجْرِيد : التَّعْرِيَةُ مِن الشَّيْبِ ، [اللُّسَانُ : جرد] .

(٢) حذف الشيء يحذفه حذفاً : قطعه من طرقه ، وتحذيف الشعر تطريمه وتسويفه ، والتحذيف في الطُّرُّةِ أن يجعل سَكِينَةً كَا تَفْعُلُ النَّصَارَى ، [اللُّسَانُ : حذف] .

(٣) الترمذى في الصوم ، والإمام أحمد فى مسنده ، وابن ماجه .

(٤) (مشكلة الموعظ) ، إبراهيم عبد الباقي .

الإمام الشافعي :

قال مصعب بن عبد الله محمد بن إدريس الشافعي : إن هارون الرشيد كتب إلى أن أصبه إلى الين قاضيا ، اخرج معه ، فخرج معه الشافعي ، فلما صارا بالين جلس مصعب للقضاء ، وارتفع ذكر الشافعي وعلا شأنه عندما أخذ بأسباب العدل والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والارتفاع عن ملق أحد ، فكتب عامل الين مطرف بن مازن إلى الرشيد يقول : إذا أردت الين لا يفسد عليك ، ولا يخرج من يديك ، فأخرج محمد بن إدريس وذكر أقواماً من الطالبيين .

لقد حذر مطرف بن مازن الرشيد من الشافعي ووصفه « بأنه رجل يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه ». فأمر الرشيد بإحضاره ، وإحضار الطالبيين ، وعقد لهم محاكمة رئيسها رئيس القضاة محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ، وقاضي القضاة بعد أبي يوسف .

أقر الطالبيون بثورتهم ضد الخليفة العباسية فأعدموا ، وتقدم الشافعي بعزة العلم على الرأس ، هادئ النفس ، لأنَّه رأى أن القضاء عادل ، وما قُتِلَ إلا ثائراً اعترف بهمَّه الدُّولَة ، ومحاولته تغيير الحكم ، تقدم وقال للرشيد : يا أمير المؤمنين لست بطالي ولا علو ، وإنما أدخلت في القوم بغياً عليًّا ، وإنما أنا رجل منبني عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي ، ولني مع ذلك حظ من العلم والفقه ، والقاضي يعرف ذلك - يعني محمد بن الحسن الشيباني - أنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع ..

ودفع الإمام الشافعي عن نفسه التهمة بنسبيه إلى عبد مناف ، وهذا نسب الرشيد أيضاً ، وبشهادة محمد بن الحسن الشيباني ، وهي شهادة لا تردد ، لقد أقرَّ

بعلم وفقه الشافعي ، وكان مجرد حظ المرأة من العلم والفقه وسيلة قاصدة إلى قلب الرشيد .

برئت ساحة الشافعي ، وأمر الرشيد له بعطاء قدره خمسون ألفاً ، فأخذها وهو من أموال المسلمين يوزعها الخليفة عليهم لتنفق على العلم والعلماء ، ولحق بالشافعي هرثة بن أعين ، أحد كبار قواد الرشيد ، فقدم له هدية عظيمة ، فردها الشافعي قائلاً : « إني لا أخذ الهدية من هو دوني » ، وأنفق الإمام الشافعي المال كله على نسخ الكتب ، وكانت نجاته وبراءته أمام الخليفة ، وشهادته القاضي له بيعة من الملايين والسياسي لينطلق إلى حيث قدرته السماء : ثالث الأئمة العظام لأهل الإسلام .

وتكررت اللقاءات بين الشافعي والرشيد ، وقال الرشيد له : « كثرة الله في أهل بيتي مثلك ». وكان الرشيد إذا أراد لقاء الإمام الشافعي يقول للفضل بن الريبع : عليّ بهذا الحجازي .

قال له الرشيد مرةً بعد أن استقبله وقبل بين عينيه وهشّ وبشّ : « لم لا تزورنا أو تكون عندنا ؟ » فأجلسه وتحدثا ساعة ، ثم أمر له ببدرة دنانير ، ولما خرج ، أمر الرشيد الفضل بن الريبع أن يوصل الشافعي إلى داره إكراماً لقدره ، قال الفضل : فجعل الشافعي ينفق ما في البدرة مينة ويسرة حتى رجع إلى منزله وما معه دينار .

ومكث الشافعي ببغداد وذاعت شهرته في الآفاق ، فطلبته الرشيد لمناظرة طرفها الأول الشافعي ، وطرفها الثاني محمد بن الحسن الشيباني وبشر المرسي . ومكانها قصر الرشيد وبحضوره .

قال محمد بن الحسن : هات مسألة يا شافعي نتكلّم عليها .

فقال له الشافعي : سلوني عما أحببتم . فتجرد بشر المرسي وقال له : لولا
أنك في مجلس أمير المؤمنين وطاعته فرض ، لننزلنَّ بك ما تستحقه ، فليس أنت
في كف العمر ، ولا أنت في ذمة العلم فيليق بك هذا ، وأنشأ يقول :

أهابك يا عمرو ماهبني وخاف بشراك إذ هبتني
وتزعم أمي عن أبيه من أولاد حام بهما عبتي
وأجابه الشافعي وهو يقول :

ومن هاب الرجال تهبيوه ومن حقر الرجال فلن يهابا
من قشت الرجال له حقوقاً ولم يعص الرجال مما أصابا
فأجابه بشر : هذا أوان الحرب فاشتدي زيم .

فأجابه الشافعي :

سيعلم ما يريد إذا التقينا بشط الراتب أي فتي أكون^(١)

فقال بشر : يا أمير المؤمنين دعني وإياه ، فقال له هارون الرشيد : شأنك
وإيادك . فسألته بشر أسئلة ، فأجاب الشافعي إجابات تدل على سعة علمه وتبصره
في الفقه والحديث وفنون العلوم .. وانبسط الشافعي في الكلام ، فتكلم بكلام
حسن ، فأعجب به الرشيد وقربه من مجلسه ورفعه عليهما ، على الشيباني
والمرسي ، وقال الرشيد : أنا أمير المؤمنين وأنت القدوة ، فلا يدخل عليَّ أحد من
الفقهاء قبلك .

وبعد سؤال الرشيد له يوماً عن كتاب الله ، وسُنة رسول الله ، والشعر ،
 وأنساب العرب ، واللغة ، قال له : فهل من موعضة ؟ فقال الشافعي :

(١) حلبة الأولياء وطبقات الأصفياء : ٨٢/٩

إِنَّكَ تخلع رداء الكبر عن عاتقك ، وتضع تاج الهمية عن رأسك ، وتنزع قيس التجبر عن جسدك ، وتفتش نفسك ، وتنشر سرك ، وتلقي جلباب الحياة عن وجهك ، مستكيناً بين يدي ربك ، وأكون واعظاً لك عن الحق ، وتكون مستقعاً بحسن القبول ، فينفعني الله بما أقول ، وينفعك بما تسمع .

فقال له الرَّشيد : أما أني قد فعلت وسمعت لله والرَّسول والواعظين بعدهما ، فعظ وأوجز . فحلَّ الشَّافعي عنه إزاره ، وحسر عن ذراعيه ، وقال : « يا أمير المؤمنين ! أعلم أنَّ الله جلَّ ثناؤه امتحنك بالنعم ، وابتلاك بالشُّكر ، ففضل النعمة أحسن ل تستغرق بقليلها كثيراً من شرك ، فكن لله تعالى شاكراً ولا إله ذاكراً ، تستحق منه المزيد ، واتق الله في السرِّ والعلانية تستكمل الطاعة ، واسمع لسائل الحق وإن كان دونك تشرف عند الله ، وتزد في عين رعيتك ، واعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى يفتش سرَّك فإن وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدُّنيا ، وفتق لك ما ينزل عليك ، واستغنى الله والله غني حميد ، وإن وجده موافقاً لعلانيتك أحبك وصرف هم الدُّنيا عن قلبك ، وكفاك مؤونة نظرك لغيرك ، وترك لك نظرك لنفسك ، وكان المقوي لسياستك ، ولن طماع إلا بطاعتكم الله تعالى ، فكن له طائعاً تكتسب بذلك السلام في العاجل ، وحسن المنقلب في الآجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل ١٢٨/١٦] . واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه ، وغاب عنه ولية ، فتقيق خوف السرى ، لا تأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك ، فإنَّ ذلك مفسدة لك ، وذهاب لدينك ، وأسقط المهابة في الأولين والآخرين ، وعليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به ، ولن تهلك ماتمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك ، وعليك بسنة رسول الله عليه السلام تكن على طريقة الذين هداهم الله فبهدامه اقتده ، وما نصب الخلفاء المهديون في الخارج والأرضين ، والسواد والمساكن والديارات ، فكن لهم تبعاً وبه عملاً راضياً مسلماً ، واحذر التَّلْبِيس فيه فإِنَّكَ مسؤول عن رعيتك ، وعليك بالمهاجرین

والأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا السَّارَّ وَالْإِيَانَ ﴾ [الحشر ٧٥٩] ، فا قبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وآتتهم من مال الله الذي آتاك ، ولا تكرههم على إمساك عن حق ، ولا على خوض في باطل ، فإنهم الذين مكنوا لك البلاد ، واستخلصوا لك العباد ونوروا الظلمة ، وكشفوا عنك الغمة ، ومكروا لك في الأرض ، وعرفوكه السياسة وقلدوك الرّياضة ، فنهضت بثقلها بعد ضعف ، وقويت عليها بعد فشل ، كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفهم طمع الزّيادة لهم ، فلا تطبع الخاصة تقرباً إليهم بظلم العامة ، ولا تطبع العامة تقرباً إليهم بظلم الخاصة ل تستديم السّلامة ، وكن لله كما تحب أن يكون لك وأوليائك من العامة من السّمع والطّاعة ، فإنه ما ولني أحد على عشرة من المسلمين فلم يخطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيمة ويده مغلولة إلى عنقه ، وأنت أعرف بنفسك » .

فبكى الرّشيد - وقد كان في خلال هذه الموعظة يبكي لا يسمع له صوت - فلما بلغ إلى هذا الفصل بكى الرّشيد وعلا نحيبه وبكي جلساً ^(١) .

قال أحدهم : يا هذا احبس لسانك عن أمير المؤمنين ، فقد قطعت قلبك حزناً ، وقال محمد بن الحسن الشّيّاباني : احمد لسانك يا شافعي عن أمير المؤمنين فإنه أمضى من سيفك .. والرّشيد يبكي لا يفيق ، فأقبل الشّافعي على محمد ومن حوله فقال : اسكتوا أخرسكم الله لا تذهبوا بنور الحكمة يا عشرين عبد الرّاعي وعبد السّوط والعصا . أخذ الله لأمير المؤمنين منكم لتلبيسكم الحق عليه ، وهو يرثكم الملك لديه ، أما والله ما زالت الخلافة بخير ما صدف عنها أمثالكم ، ولن تزال بشر ما اعتصمت بكم . فرفع الرّشيد رأسه وأشار إليهم أن كفوا .

وأقبل الرّشيد على الشّافعي فقال : قد أمرت لك بصلة ، فرأيك في قبولها

(١) حلية الأولياء : ٨٩٩ وما بعدها .

بـ ، فقال له الشافعي : كلا ! والله لا يراني الله قد سوّدت وجهه موعظتي
بـ الجزاء عليها ، ثم نهى وخرج .

☆ ☆ ☆

القاضي أبو يوسف صاحب (الخراج) ..
محمد بن الحسن الشيباني (قاضي القضاة) ..
عبد الله بن المبارك (العالم القدوة) ..
الفضيل بن عياض (العالم الزاهد الورع الناصح) ..
مالك بن أنس (إمام دار المحرقة) ..
الإمام الشافعى ثالث الأئمة العظام .

رجال مخلصون ، وعلماء عاملون ، حيّاتهم إسلام ، وسلوكيهم إيمان .. كُلُّهم
وا رجلاً حول الرشيد ، بعضهم بنصحه وتوجيهاته ، وبعضهم بمحالسه
اسلاته :

فن هؤلاء وأمثالهم اكتملت للرشيد شخصيته الإسلامية .

☆ ☆ ☆



من شَوَّه سِيرَة الرَّشِيد ؟

« وإذا اختلف اللصان ... ظهر المسروق » .

هذه أخبار الرَّشِيد كَا روثها وأورتها الكتب التأريخية العربية ، إنَّها أخبار سيرة عطرة طيبة ، لرجل مؤمن ملتزم بإسلامه ، محب لله ولرسوله ، لا يحب المراء في الدين ويكره الزندقة والزنادقة ، يحب العلم والعلماء ، ويحب التفقُّه بالدين ، لقد عظم شعائر الإسلام ، ووقف عند محرماته ..

الرَّشِيد .. شخصية مستقرة مطمئنة ، شخصية لا ازدواجية فيها ، لم تخشع للموعضة مرة ، بل خشت لها في كل مرّة ، تغضب الله في كلّ مرّة ، وتتدوّق الأدب الرفيع في كلّ مرّة ..

الرَّشِيد .. الَّذِي نقش على خاتمه : « لِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ »^(١) ، وكان معه أيضًا خاتم المنصور ، دفعه إلى ابنه عبد الله المأمون عام ١٩٠ هـ ، قبل غزو الروم مكتوبًا عليه : « اللَّهُ ثَقِيْ بِهِ آمَنْتُ »^(٢) .

الرَّشِيد .. الذي وقَّع وزيره في ليلة واحدة زيادة على ألف توقيع^(٣) ونظر الرَّشِيد فيها جيئها ، لم يخرج شيئاً عن موجب الفقه والدين واللغة العربية^(٤) ،

(١) البداية والنهاية : ٢١٤/١٠

(٢) تاريخ الموصل : ٣٠٨

(٣) أبي على ألف رسالة إلى الولايات ، وإلى أصحاب الحاجات .

(٤) النجوم الزاهية : ١٢٢/٢

لذلك قال منصور النري^(١) في الرشيد :

جعل القرآن إمامه ودليله لاختيارة القرآن ذماما
ـ فلماذا إذن شوّهت هذه السيرة الطيبة ؟ هذه السيرة الإسلامية العطرة ؟
ومن شوهها ؟ !

☆ ☆ ☆

شوّه سيرة الرشيد :

١

ألف ليلة وليلة

ألف ليلة وليلة : مجموعة منوعة من القصص الشعبي ، لغته بين الفصحي والعامية يتخللها شعر مصنوع أكثره ، مكسور ، ركيك في نحو ١٤٢٠ مقطوعة .

نسخ ألف ليلة وليلة معروفة مرتبة على هذا النحو : كلكتا الأولى ، ثم بولاق ، ثم كلكتا الثانية ، ثم بسلامة ، وأخيراً بولاق الثانية .

وكلها حديثة ، لا ترجع إلى أقدم من أول القرن التاسع عشر ، مما جعل البحث في أصلها عسيراً للغاية ، وقد شغل المستشرقين ذلك ، وكان نص ابن النديم المتوفى عام ٤٣٨ هـ ، في (الفهرست) مفتاحاً للبحث ، لقد ذكر ابن النديم أنها مترجمة عن أصل فارسي اسمه (المزار أفسان) ، أي ألف الخرافة ، ولما كان كتاب (المزار أفسان) غير موجود ، فإن البحث في أصل الليالي يزداد غواضاً^(٢) .

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٤

(٢) راجع دوائر المعارف التالية : دائرة معارف البستانى : ٢٦١/٤ ، ودائرة المعارف الإسلامية :

٥١٨/٢٨ ، دائرة معارف القرن العشرين لوجدي ، الموسوعة العربية الميسرة : ٢٠٣ ، ط دار

الشعب .

ويُسمىها الإفرنج : (الليالي العربية) ، لأنّها ترجمت عن العربية ، وقام بترجمتها الكاتب الفرنسي (أنطوان جالان)^(١) بتصرف ، فانتشرت في أوربة ، وترجمت عن (جالان) مراراً طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وما زالت إلى اليوم تصدر لها ترجمات مصورة فاخرة ، ويعتبر : برتون ، لين ، ليتمان ، أهم من ترجمها .

ومن الملاحظ ، أن قصص ألف ليلة وليلة منتشرة بين أمم الأرض ، لما فيها من قصص تلذ للناس مطالعتها ، فهم يرون فيها أجمل الغرائب ، ويرون تنوع الأخبار التي تخاطب الطبع البشري الذي يميل إلى مطالعة المصادفات والاتفاقات المدهشة ، والأعمال الدالة على الشجاعة والبطش ، مع أن فيه من السفاهة والفساد ما يجعله كتاباً خطراً جداً على الفتيا والفتيات .

ومن الثابت أن مادة ألف ليلة وليلة ، أخذها العرب من الفرس والهنود ، وقد أسهب في بحث موضوع أصلها (سلفستر ده ساسي Silvestra de Sacy) ، وأيدَ يوسف فون هامر Joseph Von Hammer ماقاله المسعودي عن أصل ألف ليلة وليلة إنّها فارسية الأصل يقال لها : (أفسانة) ، ونستطيع أن نقرر في كثير من الثقة ، أنّ نواة كتاب ألف ليلة وليلة مأخوذة عن كتاب قصص فارسي اسمه (هزار أفسان) نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، وأنّ غالباً القصص من أصل هندي ، ووجوه الشبه التي نجدها بين كتب هندية وفارسية لا شك في أنها أقدم من الأصل العربي ، والمقارنة بين الطبعات ، تدل على ملامح بارزة تظهر أصلها الفارسي ، فأسماء شاه زمان وشهريار .. أسماء فارسية والقصص التي يتكلم بها البهائم والوحوش لها نظائرها في الأدب الهندي ، والتشابه الملحوظ بين الطريقة التي تدمج بها بعض القصص في بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وبين الطريقة التي تنتهي بها الكتابة الهندية ، له أهمية خاصة ، فإنّ إدماج قصة في قصة

(١) ويكتب أيضاً (أنطوان غليند) ، ولد سنة ١٦٤٦ م .

من خصائص الأدب الهندي ، وهو أمر مشاهد في (المهاباراته) والـ (بنجه تنتهـ) .. ولا يحفل الهندوس بما في هذه الطريقة من بعد عن الواقع ومنافاة لطبيعة الأشياء ، فإنهم يظهرون من حين إلى حين أشخاصاً يتكلمون أو يستمعون في حين أن طبيعة موقفهم من القصة تتنافى مع هذا .

والباعث الأول لكتاب ألف ليلة وليلة هو اكتساب الوقت ، وثني المتهور عن عزمه ، وهذا موجود أيضاً في قصة الوزراء السبعة ، الهندية الأصل ، ونلحظ هذا بصورة أخرى في القصة الهندية (Sokastbati) ، وفيها قصة خليلة تسرد لصاحبها قصة في غياب زوجها ، تسرد عليه في كل يوم قصة ، وتختتمها دائماً بقولها : سأقص البقية غداً إذا بقيت في البيت الليلة .. وهذه الطريقة في تكوين هيكل القصص شائعة في الهند نادرة في غيرها .

ونجد اسم هارون الرشيد في بعض قصص ألف ليلة وليلة ، لقد ذكر اسمه في كثير من القصص لذلك ظن بعضهم أن ألف ليلة وليلة كُتبت بعد أيامه بزمن قصير .

لقد شوهدت ألف ليلة وليلة كذباً وخياناً سيرة الرشيد ، إذ أنه أصبح منذ وقت قديم ، رمزاً للعصر النبوي الغابر ، تفعل فيه الأعاجيب ، وتحاك حوله الأساطير .

لقد ظن الأوربيون أن الرفاه في قصر الرشيد ، لا يمكن أن يكون إلا كما كان في قصر شارلسان من شراب وفسق وفجور ، فجعلوا الرشيد بطلاً لروايات ألف ليلة وليلة ، وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم ، مع أن الرشيد لم يسمع بـ ألف ليلة لأنها ترجمت إلى العربية في القرن الثالث الهجري والرشيد عاش في القرن الثاني الهجري ، وتدل قصص ألف ليلة وليلة على أنها مؤلفة من قبل عديدين أضافوا عليها حتى العصر المملوكي .



الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني^(١)

جاء في مقدمة (مختار الأغاني) الجزء الرابع تحت عنوان (كلمة حول أخبار أبي نواس) ، ما يلي : « قسم من تاريخنا مصدره قليلو العلم أو رقيقو الدين ، الذين يطلقون فيضاً من الأكاذيب ، ويختلقون ركاماً من الافتراط .. وينتشر الزمان فيختفي القائل ، وتنطمس المعالم ، وتغيب القيم ، فتحتلّط الأكاذيب والحقائق ، وتشابك ، حتى ليُعسر على أكثر الناس أن يميز الرغوة من الصريح » .

ومما أصدق بالرشيد زوراً وبهتاناً وافتراءً أخباره مع أبي نواس .. ولقد روج لها في كتب رخيصة بعض دور النشر ، وكل أخبار الرشيد مع أبي نواس مستمدّة من الأغاني ، والأغاني كتاب أدبي لا تاريخي ، وهو كتاب مشكوك صراحة بأمانة مؤلفه ، كما سيتضح بعد قليل .

« لقد اشتهر أبو نواس بالجنون ، حتى صار الجنون علماً عليه ، وكانها اختص به وحده من بين أترابه ، فإذا عُثر على خبر في الجنون أصدق به ، وإذا اخترع أحد الماجنين ، أو المتجانين ، حادثة ، عزّاهما إليه حتى إنه ليترك من وقع الجنون منه ، لينسب إلى أبي نواس ! » .

« وهنالك دلائل كثيرة تثبت أن ماروي لأبي نواس من خبر وشعر إنما حدث بعده ، منها ما تراه في الشّعر المنسوب إليه من التفاوت الكبير في النسيج

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، وستر ترجمته مفصلة من (الأعلام) و (معجم الأدباء) و (ميزان الاعتدال) .. وكتابه (الأغاني) كتاب أدب ، وليس كتاب تاريخ يعتقد ، وهذا لا يعني مطلقاً أن كل كتاب أدب لا يؤخذ به ، بل يؤخذ به إذا كان صاحبه ثقة ، ومعروفاً عنه الأمانة في النقل والرواية .

والرُّوح والسبك ، فكثيراً ما ترى إلى جانب الشِّعر النَّاصع المطبوع ، الشِّعر الغثَّ الرَّكيك ، بالإضافة إلى التُّتضارب الكبير في الأخبار التي تتصل بأبي نواس ، التُّتضارب الذي تكتشفه بقليل من التَّعْنُّ ، سواء من حيث النوع ، أو الرُّوح ، أو الحوادث ، أو الرجال ، أو التاريخ .

وفي كثير من الموضع يظهر الوضع والافتراء سافراً ، مما يجعل أكثر الناس تورعاً وترددًا ، لا يتزدَّد في الجزم بالحكم عليه بالوضع والافتراء ، كأخباره الماجنة مع الرَّشيد ، الذي كان يصلّي في اللَّيلة مئة ركعة .. والذي كان من الهيبة بحيث يبطش بأقوى فئة تليه سلطة ومكانة ، ثم لا ينبع أحد بكلمة » .

ويذكر ابن منظور : ١٦٧/٤ ، أنَّ أخبار الرَّشيد مع أبي نواس موضوعات لاتصح ، وأنَّ أبو نواس مدخل على الرَّشيد قط .

وهذا الرأي لأنأخذ به نحن ، ولكننا نقول : كان أبو نواس يدخل على الرَّشيد كما يدخل غيره من الشعراء ، مع التزام تام بحدود الشرعية المطهرة ، والأدب الكامل . ودليل دخوله على الرَّشيد أحياناً ، قول أبي العتاهية لأبي نواس : البيت الذي مدحت به الرَّشيد لو ددت أَنِّي كنت سبقتك إليه :

قد كنتَ خفتَكَ ثُمَّ آمني مِنْ أَخافُكَ خوفُكَ الله^(١)

وفي أخبار أبي نواس لابن منظور يروي ما يأتي : « قال أبو عبد الله

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٩٥ ، والفارحي : ٢٠ ، والذي يقول بعد ذكره البيت المذكور مباشرة : « لم يكن الرَّشيد يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي وهم أولاد بنت نبيه لغير جرم تدلُّ على عدم خوفه من الله تعالى ، ولكن أبو نواس جرى في قوله على عادة الشعراء » ! عجيب أمر التعامل ، فشمس الدين الذهبي في (سير أعلام النبلاء) مثلاً ، يذكر بوضوح : وأحسن الرشيد إلى آل البيت [٢٩٠/٩] . ولنا حديث مستقل عن آل البيت والرشيد على صفحات هذا الكتاب .

أحمد بن أبي نصر : كان أبو بحر عبد الرحمن بن أبي المذاهد شاعراً مجيداً ، وكان لا يكاد يقول شيئاً إلاً نسب لأبي نواس ، وكذلك الحسين بن الضحاك ، وقد غلب على الكثير من شعرهما » .

وهذا ابن المعزفي (طبقات الشعراء) يذكر شعراً في المجنون لوالبة بن الحباب ، ثم يعقب عليه فيقول : وهذا الشّعر مما ينحله العامة أبو نواس ، وذلك غلط ، لأنَّ العامة الحقى قد لهجت بأن تنسّب كلَّ شعر في المجنون إلى أبي نواس ، وفي موضع آخر يذكر شعر الحسين بن الضحاك ، ويعقب عليه بقوله : وقد نسبت العوام هذا إلى أبي نواس ، وذلك منحول ، إنما هو للحسين بن الضحاك .
ويروي أبو الفرج الأصفهاني أنَّ الحسين بن الضحاك قال : لما قلت
قصيدي :

بدلت من نفحات الورد بالاء ومن صبوحك در الأبل والشاء
أنشدتها أبو نواس ، فقال : ستعلم من يرويها النّاس ، ألي أم لك ! فكان الأمر كما قال : رأيتها في دفاتر النّاس في أول أشعاره .

وفي موضع آخر يروي أنَّ أبو نواس بعد أن عارض شعراً للحسين ، وأخذ معانيه ، غضب الحسين وسبه ، فقال له أبو نواس : دع هذا عنك فوالله لا قلت في الخبر شيئاً أبداً وإنما حي إلا نسب إلى .

وما يدلُّ أيضاً على النّحل والوضع ، ورواية أخبار عن أشخاص - لاسيما هارون الرّشيد - أُلْصقت بهم إلصاقاً ، أنَّ شعراً لأبي نواس تراه أو بعضه قد نسب في الخبر لغيره ، ففي صفحة ١٦٦ ، نجد خبراً لأبي نواس مع الرّشيد ، ولو عدنا إلى أغاني أبي الفرج فننظرنا في الصفحة ٢٢٥ ، من الجزء الثالث ، لرأينا الخبر نفسه ، ولكن ليس لأبي نواس ولا مع الرّشيد ، وإنما يعزى هناك لبشار بن برد مع المهدى .

ثمَّ يَبْيَنُ الْمُؤْلِفُ أَنَّ هَذِهِ الْحَكَابَاتِ مُوْسَوْعَةٌ ، وَأَنَّ أَبَا نَوْاْسَ مَا دَخَلَ عَلَى الرَّشِيدِ قَطَّ ، وَلَا رَأَاهُ ، وَإِنَّمَا دَخَلَ عَلَى مُحَمَّدِ الْأَمِينِ ، الَّذِي أَزْمَعَ عَلَى قَتْلِ أَبِي نَوْاْسَ إِذْ بَلَغَهُ أَنَّهُ شَرَبَ الْحَمْرَ مَرَّةً .

وَمَعَ هَذَا .. « لَانْطَمَعَ بِهَذَا الْادْعَاءِ بِأَنَّ أَبَا نَوْاْسَ كَانَ مِنَ الْأَتْقِيَاءِ الْبَرَّةِ الصَّالِحِينَ ، وَأَنَّهُ سَابِقُ الْعَبَادِ ، وَأَوْحَدَ الزَّهَادَ ، لَا .. فَإِنَّهُ لَا دُخَانَ دُونَ نَارٍ ، فَقَدْ كَانَ أَبُو نَوْاْسَ عَلَى طَرْفِ مِنَ التَّهْتِكِ ، وَإِنَّهُ كَانَ مَاجِنًا ». .

جاءَ فِي الْجَزْءِ الرَّابِعِ مِنْ مُخْتَارَاتِ الْأَغْنَانيِ صِ ٢١٩ : أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ مُحَمَّدَ كَانَ يَتَشَوَّقُ أَبَا نَوْاْسَ ، وَيَمْبَلُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَرَأَى ظَرْفَهُ وَكَالَّهُ ، أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : يَا أَبَا عَلِيٍّ : أَرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ شَيْئًا ، فَاسْتَحِيْكَ وَاسْتَحِيْ مِنْ نَفْسِي فِي تَرْكِ نَصْحَكَ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ مَكْبُّ عَلَى الْمُعَاصِي ، مُشْتَهِرٌ بِالْقَبَائِحِ وَالْمَجْوَنَ ، فَقَالَ : أَئْيُهَا الْأَمِيرُ ، أَمَا الْمُعَاصِي فَإِنَّمَا أَثْقَ فِيهَا بَعْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ، فَوَاللَّهِ لَوْأَنَّ السَّنَدِيَّ يَقُولُ مَا قَالَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى لَوْقَتَ بِهِ ، فَكَيْفَ بِقَوْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَشَرَّفْتُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. ﴾ ، [الرُّمُرُ : ٥٢/٣٩] .

وَأَمَّا الْمَجْوَنُ ، فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَحْسَنُ أَنْ يَجْنَ ، إِنَّمَا الْمَجْوَنُ ظَرْفٌ ، وَلَسْتُ أَبْعَدُ فِيهِ عَنْ حَدَّ الْأَدْبِ ، وَلَا أَتَجَازُ مَقْدَارَهُ ، ثُمَّ نَهَضَ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : هَذَا وَاللهُ الْأَدْبُ الَّذِي يَحْسَنُ مَعَهُ كُلُّ شَيْءٍ .

وَقَدْ رُوِيَ أَبُو هَفَانَ صِ ٤٩ مِنْ أَخْبَارِ أَبِي نَوْاْسَ ، أَنَّ يَوْسُفَ بْنَ الدَّاِيَةَ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَا نَوْاْسَ كَانَ مَحَافِظًا عَلَى صَلَاتِهِ ، إِلَّا أَنْ يَسْكُرَ ، وَكَانَ يَقْضِي مَا يَفْوَتُهُ مِنْهَا حِينَ يَفْيِيقَ مِنْ سُكْرِهِ .

وفي (تهذيب ابن عساكر) أن محمد بن عمير قال : سمعت أبا نواس يقول :
والله ما فتحت سراويلي لحرام قط .

دخل الحسن بن هانئ (أبو نواس) على الأمين ، فقال له : يا حسن بن هانئ ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : إنك زنديق ، فقلت يا أمير المؤمنين ، وأنا أقول مثل هذا الشّعر ؟ !

أَصْلِي صَلَاةَ الْخَمْسِ فِي حِينَ وَقْتِهَا
وَأَحْسِنْ غُسْلًا إِنْ رَكِبْتِ جَنَابَةً
وَإِنِّي وَإِنْ حَانَتْ مِنَ الْكَأسِ دُعْوَةً
وَأَشْرِبْهَا صَرْفًا عَلَى لَحْمِ مَاعِزٍ
جَوَادِبٌ^(١) جَدِي وَجُوزٌ وَسُكَّرٌ
وَاجْعَلْ تَخْلِيطَ الرَّوَافِضِ كَلَمَّهُمْ

فقال لي : كيف وقعت على فحقة بختيشوع ويلك ؟

قلت : بما تمت القافية ، فضحك وأمر لي بجائزة وانصرفت .

كتب أبو نواس قبل وفاته رقعة جاء فيها :

يَارَبِّ إِنْ عَظَمْتَ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمْ	فَلَقْدَ عَلِمْتَ بِأَنَّ عَفْوَكَ كُثْرَةً
فِنَ الَّذِي يَدْعُونَ وَيَرْجُو الْجَرْمُ ؟	إِنْ كَانَ لَا يَرْجُو سُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ
فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فِنَ ذَا يَرْحَمُ	أَدْعُوكَ رَبَّ كَمَا أَمْرَتَ تَضْرِعًا
وَجَمِيلَ عَفْوَكَ ، ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ	مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا

قال أبو العتاهية : قد قلت عشرين ألف بيت في الزهد ، وددت أن لي مكانتها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس :

(١) الجواذب : طعام يتخذ من سكر ورز وحم .

يَا نَوَّا سِيْ تَوْفِيرٌ وَتَعْزِيزٌ وَتَصْبِرٌ
 إِنْ يَكُنْ سَاءَكَ دَهْرٌ إِنْ مَسَرَّكَ أَكْثَرٌ
 يَا كَبِيرَ الدَّنْبِ عَفْ وَاللَّهُ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرٌ

وهذه الأبيات مكتوبة على قبر النواسي .

فما نسب إلى أبي نواس ، معظمه منحول ، فمن باب أولى صلته بالرشيد ، الذي عرفنا مجالسه كيف كانت ، وثقافته ما ماستواها ، وهذه ناحية هامة جداً ، فالقصص التي تذكرها الكتب الشعبية مرفوضة قطعاً ، لاصحة لها ، وإنما هي افتراء على الخليفة الورع التقي ، سيد ملوك بني العباس .

إن كتاب الأغاني الذي جعله كثيرون مرجعاً تاريخياً ، فقرن بين الرشيد وأبي نواس ، صاحبه متهم في أمانته الأدبية والتاريخية . ومن المخزي أن تختار افتراءات الأغاني بكتاب تحت عنوان « نوادر أبي النواس ، وما كان بينه وبين الخليفة هارون الرشيد من المداعبات الحقيقة واللطائف الظرفية » ، ومع كل أسف أن يكون هذا الكتاب صادراً عن (المكتبة الأدبية) ، وشتان بين المضمون وبين الواقع التاريخي الحقيقي ، وشتان بين أثر هذا الكتاب في المجتمع وبين اسم المكتبة (الأدبية) !

وما جاء في الكتاب على سبيل المثال : « ولا ينادي نواس مع الرشيد كلاماً طريفاً في المجنون والخلاعة ! » ، ولا يسعنا هنا أن نسجل أكثر من هذا !

جاء في « ميزان الاعتدال في نقد الرجال »^(١) : أنَّ الأصفهاني في كتابه الأغاني كان يأتي بالأعاجيب بحدِّثنا وأخبرنا .

(١) لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق علي محمد البحاوي : ١٢٣/٣ - ١٢٤

وقال الخطيب : حديثي أبو عبد الله الحسين بن محمد بن طباطبا العلوى ، سمعت أبا محمد بن الحسين بن النوخنـى كان يقول : كان أبو الفرج الأصبهانـى أكذب الناس ، كان يشتري شيئاً من الصحف ثم تكون رواياته كـلها منها ، ثم قال العلوى : وكان أبو الحسن البـتـى يقول : لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج الأصبهانـى ، فمن هو أبو الحسن البـتـى ؟ من البـتـى هذا الذى شهد هذه الشهادة للأصبهانـى ؟ إذا رجعنا إلى ترجمته في الأعلام^(١) مثلاً نجده ماجـنا خليعاً ، فما جـنا خليع ترفض شهادته بـحقـ ماجـنا خليع مثلـه !

وجاء في معجم الأدباء^(٢) ، أنَّ أبا الفرج الأصبهانـى : عليـ بنـ الحـسـينـ بنـ محمدـ بنـ الهـيثـمـ بنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بنـ مـروـانـ بنـ عـبـدـ اللهـ بنـ مـروـانـ بنـ الـحـكـمـ بنـ أـبـيـ الـعـاصـيـ بنـ أـمـيـةـ بنـ عـبـدـ شـمـسـ بنـ عـبـدـ مـنـافـ أـبـوـ الفـرجـ الأـصـبـهـانـىـ .ـ مـاتـ فيـ رـابـعـ عـشـرـ ذـيـ الـحـجـةـ سـنـةـ ٢٥٦ـ هـ /ـ فـيـ خـلـافـةـ الـمـطـيـعـ لـهـ ،ـ مـنـ كـتـبـهـ :ـ أـخـبـارـ الـقـيـاـنـ ،ـ كـتـابـ الـمـالـيـكـ الشـعـرـاءـ ،ـ كـتـابـ أـدـبـاءـ الـغـرـبـاءـ ،ـ كـتـابـ أـخـبـارـ الـطـفـيـلـيـنـ ،ـ كـتـابـ الـخـمـارـيـنـ وـالـخـمـارـاتـ ،ـ كـتـابـ الـغـلـمـانـ وـالـمـغـنـيـنـ ،ـ كـتـابـ مـنـاجـيـبـ الـخـصـيـاـنـ .ـ

وكان وسخاً قدرأً لم يغسل ثوباً منذ فصله إلى أن قطعـهـ ،ـ كانـ وسخـاـ فيـ نـفـسـهـ ،ـ ثـمـ فيـ شـوـبـهـ وـنـعـلـهـ ،ـ وـحتـىـ إـنـهـ لـمـ يـكـنـ يـنـزـعـ ذـرـاعـةـ^(٣) إـلـاـ بـعـدـ إـبـلـائـهـ وـتـقـطـيعـهـ ،ـ وـلـاـ يـعـرـفـ لـشـيءـ مـنـ ثـيـابـهـ غـسـلاـ وـلـاـ يـطـلـبـ مـنـهـ فـيـ مـدـةـ بـقـائـهـ عـوضـاـ^(٤)ـ .ـ

وجاء في (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، كان وسخاً قدرأً لم يغسل

(١) أحمدـ بنـ عـلـىـ الـبـتـىـ ،ـ أـبـوـ الـحـسـنـ :ـ كـاتـبـ أـدـبـاءـ ،ـ غـلـبـ عـلـيـهـ الـظـرـفـ وـالـمـجـونـ ..ـ [الأعلامـ :ـ ١٧١/١]ـ .ـ

(٢) لياقوتـ الـمـحـويـ :ـ ٩٤/١٢ـ وـمـاـ بـعـدـهـ .ـ

(٣) الدرـاءـةـ وـاحـدةـ «ـ الدـارـارـيـعـ »ـ ،ـ وـلـمـ رـادـ هـنـاـ تـيـابـهـ .ـ

(٤) معجمـ الـأـدـبـاءـ :ـ ١٠١/١٣ـ .ـ

ثوباً منذ فصله إلى أن قطعه .. ثم ذكر ما ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء وأضاف في الصفحات ١٦١/١٦٢، ١٦٢/١٦٣ غرامياته ومحونه .

وجاء في (لسان الميزان) بشأن الأصفهاني ما يلي : شيعي ، وهذا نادر في أموي ، يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا . ثم أورد قول الذّهبي في (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) .

من يقرأ الأغاني يرى حياة العباسين لها ومحوناً وغناء .. وهذا يناسب المؤلف وحياته وما حوله . وإذا عدنا إلى مراجعنا التّاريخية الصّحيحة نجد حياة الرّشيد ديناً وورعاً وتقوى ، الصّورة الأولى نرفضها لأنَّ المؤلف يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا ، والصّورة الثانية هي الصّورة الحقيقية الصادقة لمن يحج عاماً ويغزو عاماً ، ويصلِّي في كل ليلة مئة ركعة .

☆ ☆ ☆

٣

أحمد أمين

في كتابه هارون الرّشيد^(١)

قال أحمد أمين في الصفحة الخامسة من كتابه المذكور عن الرّشيد : « إنَّه رجل عاطفي ذوّاق ، يخضع للمؤثرات الّوقتية ، فيصلِّي مئة ركعة كلَّ يوم ، ويحجّ ماشياً ، ويهيم من ناحية أخرى بالجمال والغناء ومجالس الشراب ، ويحدثه أبو العتايبة حديث الزُّهد فيبكي حتّى تخصلُّ لحيته ، ويقول له ابن مرِيم نكتة فيضحك حتّى يستلقي على قفاه ».

(١) العدد ٣ من كتاب الملال أغانيس « آب » ١٩٥١ م / ذي القعدة ١٣٧٠ هـ .

ويقول أحمد أمين في صفحة ٢١ : « كُتب الأدب والشعر التي روت عن مجالس الرشيد ، والقصص والحكايات التي روتها عنه ألف ليلة وليلة ، وعلى الجملة فقد صور ألف ليلة وليلة الرشيد تصويراً بدرياً لطيفاً » .

وقال أحمد أمين في صفحة ١٤٥ : « كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء في تاريخ الرشيد ، فقد أعلى البرامكة ، ثم فتك بهم ، وقد زلزلت الحادثة الشرق والغرب معاً ، لأن البرامكة كان يحسنون معاملة الرعية ويتولون كل شؤونهم ، ويتقربون من الشعراء » .

وقال في صفحة ١٤٦ : « وأما الغربيون ، فقد روعهم الحادث لأنّه لم يكن في نظرهم عادلاً ، فلم يحاكموا بتهمة معينة ، ولا سمعت أقوالهم ، ولا عرفت أسباب النّقمة عليهم ... » ثم قال في صفحة ١٤٧ : « والحق أن هذا عيب الحاكم المستبد دائمًا ، فهو عرضة لأن يفعل أقصى الخير ، وأقصى الشر » . وقال في صفحة ١٥٩ : « على كل حال لم يخلد اسم هارون تلك الحروب ولا الانتصارات ، وإنما خلدته مجالس الأدب والعلم ومجالس الغناء » ، وكرر ذلك في صفحة ١٦٤

وقال في صفحة ١٩٧ : « تجاوز الدين وأوامره » بسبب اتصاله بشارلمان .

وقال في صفحة ٢١٧ : « متوسط عمر الخلفاء ٤٨ سنة ، وإنما قصر عمرهم لشدة مشاغلهم وإفراط أكثرهم في الشهوات ، وتحملهم أكبر المسؤوليات ، وتناسلهم من أصل قصر عمره » .

وهكذا يضيّ أحمد أمين في تخيّله بحق الخليفة المسلم هارون الرشيد ليس في كتابه هذا فقط ، بل في كتابه « ضحي الإسلام » أيضًا ، حيث قال في صفحة ١١٢^(١) : « فيظهر لي أنه كان شاباً حاد العاطفة ، ولكن ليس من هذا

(١) ضحي الإسلام : ١١٢/١ ، [مكتبة النهضة المصرية] .

النوع الذي يستسلم كل الاستسلام لشهوته ، بل هو مع ذلك قوي النفس ، جندي بالغريرة وبال التربية ، طالما قاد الجيوش وشَرِقَ وغَرَبَ ، هذه الحدة في العاطفة وقوه النفس ، ونضارة الشباب ، أظهرته مظاهر مختلفة .. » .

☆ ☆ ☆

وتعليقنا على تخبط أحمد أمين ما يلي :

أحمد أمين أديب وليس مؤرخاً أولاً ، فهو في تأليفه أبعد الناس عن التميص دراسة النصوص والمراجع ، وصدق المؤلف ، والثقة بما كتب .

وأحمد أمين ذو شخصيتين ثانياً ، شخصية أزهريّة ، وشخصية استشرافية غربيّة ، ولقد ذكر لي الدكتور عبد الرحمن الحجي^(١) ، في صيف عام ١٩٧٥ م ، أنّ مدرساً للتاريخ شكا إلى أحمد أمين رفض تلامذته آراء المستشرقين وأفكارهم ، وأنّ هناك سداً بينها وبينهم ، فقال له أحمد أمين ناصحاً وموجاً : دُسْ آراء المستشرقين وأفكارهم في حديثك وتوجيهك دون أن تذكر أنّ ذلك من كلام المستشرقين وأفكارهم ، إنّ ذكر اسم المستشرق ينفر الشباب المسلم مما سيقال لهم من آراء ، فاذكر الرأي الاستشرافي دون ذكر اسم المستشرق ، فيسهل عليك غرس ماتريد في أذهان الجيل !!

هاتان الناحيتان ، هما مفتاح شخصية أحمد أمين ، وهما مفتاح دراسة مؤلفاته وآرائه التي قدّمها في كتبه : (أزهر مع استشراق) !

لقد قال أحمد أمين عن الرشيد ، إنّه يهتم بالجمال والفناء ومجالس الشراب ، ونسى أنّ الشراب الذي تعاطاه الرشيد هو (النبيذ) ، النبيذ الذي رأى أبو حنيفة حله ، وهو طبعاً غيرنبيذ اليوم وإن اتفقت التسمية .

(١) في جلسة « بدار المأمون للتراث » ، بدمشق .

جاء في كتاب (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) ، للإمام علاء الدين الكاساني الملقب بملك العلماء : « وما يُتَّخَذ من الزَّبِيب شَيْئاً : نقِيع ونبيذ ، فالنقِيع أَن ينقع الزَّبِيب في الماء أَياماً حتَّى تخرج حلاوته إلى الماء ، ثُمَّ يطْبَخ أَدْنَى طَبَخ ، فَإِذَا حلواً يَحْلُّ شَرْبَه ، وَإِذَا غلاً وَاشْتَدَّ وَقْدَفَ بِالزَّبِيد يَحْرُم - أَي تَخْمَر - ، وَأَمَّا النَّبِيذ فَهُوَ الَّذِي يَؤْخَذ مِن ماء الزَّبِيب إِذَا طَبَخ أَوْ فِي طَبَخ ، يَحْلُّ شَرْبَه مَادَام حلواً ، فَإِذَا غلاً وَاشْتَدَّ وَقْدَفَ بِالزَّبِيد يَحْلُّ شَرْبَه مَادَون السُّكْرِ عَنْدَ أَبِي حَنِيفَة وَأَبِي يُوسُف ، وَعِنْدَ مُحَمَّد وَالشَّافِعِي لَا يَحْلُّ شَرْبَه » ، كَمَا يَحْلُّ عَنْدَ أَبِي حَنِيفَة وَصَاحِبِه أَبِي يُوسُف شَرْب نَبِيذ التَّمْر مَادَام حلواً .. وَيَحْرُم إِذَا أَسْكَر .. وَكَذَلِكَ الشَّرَاب المُتَّخَذ مِن حلَّ العَسل بِالْمَاء دُونَ تَخْمَر ، وَكَذَلِكَ الْأَشْرَبَةُ المُتَّخَذَةُ مِن الشَّعِير وَالدُّخْن وَالنَّدْرَة وَالثَّيْن وَالسُّكْر ، وَأَبُو حَنِيفَة يَجْزِي الْوَضُوء بِالنَّبِيذ عَنْدَ اِنْعَدَامِ الْمَاء ، عَنْ عَلَيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ : « نَبِيذ التَّمْر وَضُوءٌ مِنْ لَمْ يَجِدْ الْمَاء »^(١) .

لَذِلِك .. شَرْب الرَّشِيد النَّبِيذ بِعْرَف زَمَانُه لَا نَبِيذ هَذَا الزَّمَان ، وَلَقَدْ تَنَّبَّهَ لَذِلِكَ الْعَالَمَةُ ابْنُ خَلْدُون^(٢) فَقَالَ : لَمْ يَعَاوِر الرَّشِيد الْخَمْر لِأَنَّهُ كَانَ يَصْبِحُ الْعَالَمَاءُ وَالْأُولَيَاءُ ، وَيَحْفَظُ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْعُبَادَاتِ وَيَصْلِي الصُّبْحَ فِي وَقْتِهِ ، وَيَغْزُو عَامًا وَيَحْجُّ عَامًا ، وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيد يَشْرُبُ نَبِيذ التَّمْر عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعَرَاقِ وَفَتاوِاهُمْ فِيهِ مَعْرُوفَة ، وَأَمَّا الْخَمْر الْصَّرْفِ فَلَا سَبِيلٌ إِلَى اتَّهَامِهِ بِهَا ، وَلَا تَقْليْدٌ

(١) وَمَا يَذَكُرُ بِكُلِّ أَسْفٍ أَنَّ الدَّكْتُورَ طَهَ حَسِينَ فِي كِتَابِه « الشَّيْخَانَ » ، عَنْ حَدِيثِه عَنْ مَقْتَلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٍ ، قَالَ الطَّبِيبُ لِعَمْرٍ ، مَا أَحَبُّ الشَّرَابَ إِلَيْكَ ؟ قَالَ النَّبِيذ - أَيُّ الْمَاءِ الْخَلْيُ - فَسَقَاهُ نَبِيذًا ، فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ جَرْحِه .. إِلَخ .

وَسَكَتَ الْكَاتِبُ الْكَبِيرُ ، وَالْحَقْقَى الشَّهِيرُ ، الدَّكْتُورُ طَهَ حَسِينُ عَمِيدِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عَنْ هَذِهِ الرَّوَايَةِ ، دُونَ أَنْ يَفْسُرْ وَيَعْلَقَ عَلَى كَلْمَةِ (نَبِيذ) ، وَمَا الرَّادُ مِنْهَا ، كَمَا عَلَقَ عَلَى مَسَأَلَةِ الشُّورِيِّ فِي الْكِتَابِ نَفْسَهُ !! لَقَدْ أَظْهَرَ طَهَ حَسِينَ عَمْرٍ يَشْرُبُ النَّبِيذَ وَهُوَ يَسْتَعِدُ لِلْلَّقَاءِ وَجْهَ رَبِّهِ ، وَوَقَصَّتْهُ مَعَ ابْنِهِ مَشْهُورَةً مَعْرُوفَةً فِي حَدَّهِ عَنْدَمَا سَكَرَ مِنْ خَمْرِ النَّبِيذ !!

(٢) ابْنُ خَلْدُونَ : ١٤/١

الأخبار الواهية بها ، فلم يكن الرجل بحث يُ الواقع محظياً من أكبر الكبائر عند أهل الله .

وابن حزم يقول عن الرشيد أيضاً : أراه كان يشرب النبيذ المخالف فيه ، لا الخمر المتفق على حرمتها^(١) .

وأحمد أمين يعرف الحقيقة ويرأوغ عنها لأمر في نفسه ، فهو يقول : « ونحن مع اتفاقنا في الرأي مع ابن خلدون في أنَّ الرشيد لم يشرب الخمر ، إنَّما المعروف عنه أنه شرب النبيذ »^(٢) ، لكنه لم يذكر أي نبيذ !!

وهنا ننبه إلى أمر فطن له ابن خلدون ، وهو : وضع الأخبار الكاذبة في الملاذ تقرباً إلى الكباء ، فكانوا يبالغون في أخبار الملاهي ليغروهم عليهما ، وليكسبوا من وراء ذلك مالاً أو جاهًا أو نحوهما .

وما نذكره هنا أيضاً ، أنَّ العلماء الأتقياء ، والأولياء النُّصحاء ، كالفضيل بن عياض ، وأبي يوسف ، والإمام مالك لم ينبهوا الرشيد ولو مرة واحدة إلى ارتكابه الحرام ، كشرب الخمر مثلاً ، لقد كانت نصائحهم كلها عاممة ، لقاء الله ، الخشية من الله ، ذكر الموت والدار الآخرة ، الزهد في الملك .. ولو وجدَ خمر مسکر في حياة الرشيد لنبهه لذلك الفضيل ، أو أبو يوسف ، أو أبو العتاهية ، أو الإمام مالك ، أو الكسائي .. أو أبو معاوية الضرير .

أما الغناء الذي يذكره أحمد أمين ، فهو غناء له معانٍ السامية بشكل حتى دون شك ، لأنَّ مجالس الرشيد معروفة ، والتزامه فيها بحدود الشرع من أهم صفاتها ، ولقد كان الغناء ، معنى وأدباً ، مع لحن جميل .

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٩٠/٩

(٢) ضحي الإسلام : ١١٤/١

ولقد أباح أهل الحرمين الغناء وحرّموا النّبيذ ، وأباح أهل العراق النّبيذ
وحرّموا الغناء ، فأوجدوا رخصة باختلافهما ، قال الشّاعر :

رأيَهُ فِي السَّمَاعِ رَأَيْ حِجَازِيٍّ وَفِي الشَّرَابِ رَأَيْ أَهْلِ الْعَرَاقِ
فَأَوْلَى اتِّهَامِ مُوجَّهٍ لِلرَّشِيدِ - شَرَابٌ وَغَنَاءٌ - مَرْفُوضٌ قَطْعًا عَلَى مُحَكَّ الْبَحْثِ
الْمُسْتَوْدِعِيِّ الْعَلَمِيِّ .

ثم ذكر أحمد أمين ، مشوّهاً صورة الرّشيد الحقيقية ، أنّ الرّشيد
ذو شخصيتين ، ولو كان أحمد أمين مؤرّخاً متخصصاً لرفض الأغاني ولرفض ألف
ليلة وليلة ، عندها تظهر شخصية حقيقة واحدة للرّشيد . لقد اعتمد على كتاب
(الأغاني) وعلى صاحبه الذي يأتي بالأعاجيب بحدهنا وأخبرنا ، فلو حذف روح
الاستشراق التي تعج بها نفسه ، لظهرت شخصية الرّشيد على حقيقتها ، ولما بدأت
مجلة (روز اليوسف) تصوّر الرّشيد في كل عدد من أعدادها الأسبوعية في
الخمسينات ، على أنه صاحب جوار وقينات ، متناسين دوره في إدارة دولة مترامية
الأطراف ، مع تأمين حاجاتها ، وتأمين حدودها عزيزة كريمة الجانب ، مع نهضة
علمية عمرانية عظيمة ، وتجارة وصلت من أندونيسية شرقاً ، إلى مراكش وإسبانيا
وفرنسيّة غرباً .

ومن الغريب ، أنّ أحمد أمين يعتقد في تصويره حياة الرّشيد على كتاب ألف
ليلة وليلة ، ثم يذكر هو نفسه في صفحة ٢٣ من كتابه هارون الرّشيد قول
ابن النّديم : «ألف ليلة وليلة قصص تافهة» . فكيف يتم التّأليف على هذا
النّحو ؟ كيف يضع الرّأي ونقشه في مؤلف واحد ؟!

إذا حذفنا ما نقله أحمد أمين من الأغاني وألف ليلة وليلة ، خرج كتابه
ينطق بحقيقة الرّشيد ، ويتحدّث عن شخصيّته الوحيدة المعروفة يائعاًها وورعها
وتربيتها ، ولما قال عنه : إنه ذو شخصيتين .

وقال أحمد أمين : إن نكبة البرامكة نقطة سوداء في حياة الرشيد ، ونحن سنفصل نكبة البرامكة كا هي بحسب مراجعنا العربية المعتمدة ، ولكن أحمد أمين قال في ضحى الإسلام^(١) : « كان وراء الثقافة الفارسية ووراء العلماء الفرس قوى تحميها وتدفعها ، هذه القوى ظاهرة أحياناً ، وخفية أحياناً ، وتنطوي على نية خيرأً أحياناً ، ونية سوء أحياناً ، منهم من يريد خدمة العلم والعمل على نشره ، لا يريد بذلك إلا وجه الله والعلم ، ومنهم من يريد أن يشيد بالقومية الفارسية والخطأ من القومية العربية ، بل منهم من يريد الكيد للإسلام وأهله .. ومنهم من يريد الشعوبية ، ومنهم من ينشر الزندقة ، ومنهم من يغلو في التشيع لأهل البيت ، وهو يضر السوء للمسلمين » .

ثم قال أحمد أمين : « وقد كان من أعظم من يحمي الثقافة الفارسية وينشرها (البرامكة) الفرس ، وما لهم من مال وفير وكرم واسع يتحقق رجاءهم ، ويُبسط نفوذهم . روى الماحظ عن ثيامة قال : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يُرى جليس خالد (البرمكي) دار إلا خالد بنها له ، ولا ضيعة إلا خالد ابتعاها له ، ولا ولد إلا خالد ابْتَاعَ أُمّةً إِنْ كَانَتْ أُمّةً ، أو أَدَى مهْرَهَا إِنْ كَانَتْ حَرّةً ، ولا دَائِبٌ إِلَّا خالد حمله عليها »^(٢) .

ثم قال : كان هؤلاء البرامكة وأمثالهم يعملون على نشر الثقافة الفارسية . اتهموا بالزنادقة ، فكان البرامكة يحسنون إلى محمد بن الليث الخطيب ، ويقدمونه ، وكان من يرمى بالزنادقة^(٣) ، وكان هشام بن الحكم الرافضي منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان القييم بمجالس كلامه .. » .

(١) ضحى الإسلام : ١٩٢/١ وما بعدها .

(٢) نقلها أحمد أمين عن المهمشياري : ١٧٣ ، وتاريخ بغداد : ١٤٤/٤

(٣) عن ابن النديم : ١٢٠

وقال : « رأى الفُرس أنَّ انتقال الخلافة من الأُمويين إلى العباسيين لم يتحقق مطالبهم ، فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأُموية ، إلى يد أخرى هي يد العباسيين ، ومطعم نقوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقة ، في سلطتها ولغتها ودينها ، ورأوا أنَّ ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن أمكن ، وخفية إذا لم يكن » .

أُفبعد هذا كله ، كيف تكون نكبة البرامكة نقطة سوداء في تاريخ أو حياة الرَّشيد ؟ نكبة البرامكة نكبة جماعية ، ضدَّ عمل جماعي كما ظهر من قول أَحمد أَمين وكَا سِنْرِي .

ثم ذكر أَحمد أَمين « والحقُّ أنَّ هذا عيب الحاكم المستبد فهو عرضة لأنَّ يعمل أقصى الخير وأقصى الشر ». وهذا كلام مرفوض أيضاً ، لأنَّ خشية الله في قلب الرَّشيد ، كانت تمنعه من عمل أقل شر ، لا أقصى الشر ، وكلام أَحمد أَمين هذا ، يحتاج إلى أمثلة عن أعمال الرَّشيد التي في أقصى الشر ، علماً أنَّ الرَّشيد كان يطبق شرع الله ، لقد وقع في ليلة واحدة ألف توقيع كلها في حدود الشرع ، فأين أقصى الشر ، إلا إذا كان يعني أَحمد أَمين أنَّ أقصى الشر هو نكبة البرامكة ؟ !

ويؤسفنا أخيراً في حديثنا عن أَحمد أَمين ، أنه قال : « على كل حال لم يخلد اسم هارون تلك الحروب ولا الانتصارات ، وإنما خلده مجلس الأدب والعلم ومجالس الغناء » ، وهذا الحكم لأندربي ماسنده ، لماذا لم يخلده (بيت الحكمة) أو الصناعة المتطورة في مجال السفن والساعات والاصطراكاب ؟

لماذا لم يخلده حروبه مع البيزنطيين ؟

لماذا لم يخلده عدله وقربه من العلم والعلماء ؟

لماذا لم يخلده النظام الاقتصادي الذي وضعه أبو يوسف له خاصة ؟

كل ذلك لأندري ماسبب تغافل أحمد أمين عنه ، ليجعل مجالس الغناء سبب خلود الرشيد ، ولكن له وجهة نظره المستقدمة من الأغانى ومن ألف ليلة وليلة !!

لقد وصف ابن خلدون حياة الرَّشيد كَا هي على حقيقتها ، فكانت صورة مشرقة مسلمة فاضلة ، فأغاظ ذلك الشَّخصيَّة الاستشرافية عند أحمد أمين ، فقال متنهِكًا على ابن خلدون عندما قال قول الحق : « لَقَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلدِّفاع
عَنْهُ »^(١) . فهو مُصر على إدانة الرَّشيد ولو لفق حوله قصصاً من الأغاني ، كتاب الأدب المعروف صاحبه يأتيانه بالأعاجيب ، ومن ألف ليلة وليلة ، قصص الخيال الهندي الفارسي .

☆ ☆ ☆

٤

أورد الإتليدي قصة العباسة مع جعفر البرمكي . وقبل أن نبدأ بضمون الكتاب لنتعرف على الإتليدي أولاً ، وال Abbasة ثانياً ، ثم نتعرف القصة التي روّج لها الإتليدي في كتابه .

الإليدي : محمد دياب ، مؤرخ من إقليم المنية ، وكا جاء في معجم .

(١) في كتابه «*هارون الرشيد*»، ص: ٦. طبعة دار الهلال ١٩٥١

المؤلفين^(١) من آثاره : (إعلام النّاس بما وقع للبرامكة مع بني العباس) ، فرغ من تأليفه سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٩ م ، أي أن بين المؤلف وحياة الرّشيد أكثر من تسعة مئة عام .

أمّا العبّاسة ، فهي علّيّة بنت المهدى بنت المنصور ، من أجمل النساء وأظريفهن ، وأكملهن فضلاً وعقولاً وصيانة ، قال الصولي : لا أعرف خلفاء بني العباس بنتاً مثلها ، كانت أكثر أيام طُهرها مشغولة بالصلوة ، ودرس القرآن ، ولزوم الحراب ، تزوجها موسى بن عيسى العباسي^(٢) .

والإتليدي يروي قصة رفَضَها المؤرخون الأقدمون كالبغدادي في تاريخ بغداد ، وقال كثير من المؤرخين : وليس من التّاريخ ما يقال عن صلتها - صلة العبّاسة - بجعفر البرمكي .

والعقل يقول : القصة أوردها الأصفهاني في الأغانى ، فهي مرفوقة من يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا .

والقصة تؤكّد أنَّ الرّشيد مثل من الخمر وكذلك أخته وجعفر ، وحياة الرّشيد تكذب تعاطيه الخمر ، وهذا مما يفسد القصة المختلفة من أرومتها .

والقصة متعددة الروايات ، مما يثبت أنها من نسج الخيال ، فمن الروايات أنَّ الرّشيد تركها مع جعفر فواقعها جعفر ، وفي رواية أنها زَيَّنت وأدخلت على جعفر ، فتعدد الروايات واختلافها يثبت اختلاقها .

ومن ثم في رواية الإتليدي أنَّ العبّاسة ولدت من جعفر ثلاثة بنين ، أولاً :

(١) معجم المؤلفين : تراجم مصنفي الكتب العربية لعمر رضا كحالات ، ج ٩ ، ط : ١٣٧٩ / ١٩٦٠ ، نقلًا عن فهرست الخديوية : ١١٥ ، والبغدادي : إيضاح المكنون : ١٠٤/١

(٢) الأعلام : ١٨٩/٥

حملّ لمدة تسعه أشهر وهي في قصر الرّشيد ، ألم يَرَ الرّشيد بطنها يكبر ؟ وفي بطنها ولد وليس بذرة زيتون ! ثم الأولاد الثلاثة ، وأحدهم ولد في مكة ، مادرهم في حياة العباسين ؟ ماهي حياتهم ؟ أين كانت ؟؟ ! لو وجد هؤلاء لقاموا بدور في أي مجال من مجالات الحياة ، ولو جانبياً ، فما بالنا لانسمع عنهم شيئاً ؟

ومن أورد قصة العبّاسة مع جعفر جعلها سبباً لنكبة البرامكة ، وهذا يجعلها من نسج الخيال أيضاً ، لأن نكبة البرامكة ، عمل حاسم ضدّ عمل خطير هو إساءة استعمال السلطة .

فمن وضع القصة ، ومن روّج لها ؟

القصّة من وضع البرامكة أو أعوانهم عن قصد ، روّج لها الفرس ، إذلاً للرّشيد الذي نكبهم ، فالقصّة في عرفهم تطاول على عرض الرّشيد وإذلال له ، وليطمسوا - عن قصد سوء - نوایاهم وشعوبيتهم وتفاخرهم في فارسيتهم ، وليطمسوا تشيعهم المفرق في الحقد على العباسين .

وروّج للقصّة الخرافية كما يقول صاحب (الأعلام) كتاب الخيال الغربيون ، فنشرت عنها عدة قصص منها مانشره (Laharpe) بالفرنسية ، و (Von Hammer) بالألمانية .

وقد نسي الإتليدي لأمر في نفسه فضل العبّاسة وصيانتها لدينها ، وشغلها بالصلوة والقرآن ولزوم المحراب .. وألف كتاباً اعتمد كله على قصّة من نسج الخيال البرمكي .

☆ ☆ ☆

وجاء

جرجي زيدان

في مطلع هذا القرن ، فطالعنا بمؤلفات^(١) سجّل فيها تاريخنا العربي الإسلامي باثنتين وعشرين رواية غرامية كان من بينها رواية « العبّاسة أخت الرّشيد »^(٢) ، اعتمد بها كتاب الإتليدي (إعلام النّاس بما وقع للبرامكة معبني العباس) ، وكتاب (الفخرى) في الآداب السلطانية ، وديوان أبي نواس ، وكتاب الأغاني .. وهذا ما ذكره (كمراجع ومصادر للبحث) على الصفحة الثانية من روايته .

إنَّ رواية جرجي زيدان ، ساهمت إسهاماً كبيراً ومدروساً في تشويه سيرة الرّشيد ، فعنوان الرواية فيه تشهير ، إنَّ قصَّةَ الحُبِّ الْخِيَالِيَّةَ الَّتِي شَكَّ بِهَا المُؤْرِخُونَ ، ودحضها معظمهم ، والَّتِي اخْتَلَقَتْ حَوْلَ الْعَبَّاسَةِ ، أَنْشأَ عَلَيْهَا جرجي صيداً سميناً طيباً ، إنَّهَا الْعَبَّاسَةُ ، وَمَنْ تَكُونُ؟ إِنَّهَا (أخت الرّشيد) !! فما سينسجه جرجي من غرام وخراءات وحب ، إدانة للرشيد ، فالعبّاسة (أخت الرّشيد) !! فالحديث خوض في عرض سيد ملوك بنى العباس ، وبالتالي خوض وتشويه في قمة الحضارة العربية الإسلامية ، ولذلك لم يجعل العنوان : (العبّاسة بنت المهدى) !!

إنَّ كتاب (إعلام النّاس) لم يصل ليد كل قارئ ، لأنَّ طبعته قدية ، فجاء

(١) أنشئت دار في بيروت باسم « دار مؤلفات زيدان » ، ولقد أصدرنا كتاباً تحت عنوان (جرجي زيدان في الميزان) ، ناقشنا فيه سائر روايات جرجي زيدان وما شوه وما افترى وما طعن تحت شعار (روايات تاريخ الإسلام) .

(٢) ترجمت رواية (العبّاسة أخت الرّشيد) إلى الفرنسية سنة ١٩١٢ م ، مع مقدمة بقلم (كلوود فارير) الروائي الفرنسي .

جرجي زيدان ، ونسج من هذا الكتاب رواية غرام وفجور ، وجاءت دار للنشر تولى نشر مؤلفات (المؤرخ العظيم) بتأثیر شكلية تقل عن التكفة حتاً ، والهدف معروف ، إنّه تشویه لتاريخ وماضٍ وتراث ، تؤلم روائعه المستشرقين والمبشرين ومن والاهم من أمثال جرجي زيدان .

ولقد كان (جرجي زيدان) دور رئيسي في تشویه حياة الرشيد .

☆ ☆ ☆

٥

الطالبيون

كتب محمد بن علي طباطبا ، المعروف بابن الطقطقا كتاباً اسمه : (الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)^(١) ، والكتاب غريب في تناقضه ، يحمل الضغينة والتحامل على الرشيد بشكل جلي واضح ، ويظهر الكتاب تحامل الطالبيين على الدولة العباسية .

لقد كان الطالبيون يؤيدون انتقال الحكم إلى العلوّيين ، لكن الحكم انتقل من الأمويين إلى بني العباس ، فكادوا للعباسيين .

جاء في (الفخرى في الآداب السلطانية) : « لم يكن الرشيد يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي أولاد بنت نبيه لغير جرم ، تدل على عدم خوفه من الله تعالى »^(٢) . وهذا ادعاء نراه يتراجع عنه في الكتاب نفسه حيث يقول :

« كان الرشيد من أفضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحجُّ

(١) طبع دار صادر بيروت .

(٢) الكتاب المذكور : ٢٠

سنة ويغزو سنة .. وكان يصلّي في كلّ يوم مئة ركعة ، وحجّ ماشياً ، ولم يحجّ ماشياً غيره ، وكان إذا حجّ حجّ معه مئة من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلث مئة رجل بالنفقة السابحة ، والكسوة الظاهرة ، وكان يتتبّعه في أفعاله بالنصرور ، إلّا في بذل المال ، فإنّه لم ير خليفة أسمح منه بالمال »^(١) .

ثم قال : « وكانت دولة الرّشيد من أحسن الدّول وأكثرها وقاراً وروقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة »^(٢) ، فالشّاقض واضح جداً بين تحامله على الرّشيد أولاً ، ثمَّ رجوعه إلى الحقيقة ثانياً .

وفي هذا الكتاب ، يظهر جلياً تضامن البرامكة مع الطّالبيين ضدّ الدولة العباسية ، فلقد أفرد صاحب (الفخرى في الآداب السُّلطانية) فصلاً كاملاً تحت عنوان (دولة البرامكة) ، وقال عنها :

« اعلم أنَّ هذه الدولة كانت غرّة في جبهة الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بِكَارِمَهَا الأمثال ، وشدَّت إلَيْهَا الرّحال ، ونيطت بِهَا الآمال ، وبذلت لها الدُّنْيَا أفلاد أكبادها ، ومنحتها أوفى إسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيُول دافعة ، والغيوث ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية ، والدُّنْيَا في أيَّامهم عامرة ، وأُبَيْهَة المملكة ظاهرة ، وهم ملْجأ اللَّهَف »^(٣) ، ومعتصم الطَّرِيد »^(٤) .

ثمَّ ذكر قصّة العباسة وجعفر فقال : « فجامعها جعفر ، فحبّلت منه وولدت

(١) الفخرى في الآداب السُّلطانية : ١٩٣

(٢) المرجع السابق : ١٩٥

(٣) اللَّهَف واللَّهَف : الأسى والحزن والغبط ، وقيل : الأسى على شيء يفوتك بعدما تشرف عليه ، واللَّهِيف المضطر ، والملهوف : المظلوم ينادي ويستغيث ، [اللسان : لف].

(٤) المرجع السابق : ١٩٧

ولدين وكتت الأمر في ذلك حتى علم الرشيد ، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة «^(١)».

لقد كانت نكبة البرامكة برأيه بسبب العبّاسة وجعفر ، أمّا ما وصفه في دولة البرامكة « شدت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاد أكبادها .. » فكل هذا لاقية له داخل الدولة العباسية في رأي صاحب (الفخري في الآداب السلطانية) ، وعجبًا لذلك ، كيف يتعاملون عن الحق !!

ومما يذكر أنَّ المؤلَّف محمد بن طباطبا ، يتحامل على الرشيد ، لأنَّ الرشيد أَخْمَدَ حركة طباطبا ، وهو من الطَّالبِين ، واسمُه : إبراهيم بن إسماعيل ، وأَخْمَدَ من الطَّالبِين أيضًا ، يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ^(٢) . مع أنَّ الرشيد أَمْنَه وكتب له كتاب أمان ، وأَشَهَدَ عليه القضاة والفقهاء ومشيخة بني هاشم ومنهم عبد الصمد بن علي .

وهكذا .. من ألف باء التاريخ ، ألاً يعتمد كتاب فيه تحيز ، لأنَّ فيه افتراءً ودَسًاً وكذبًا ، كَا هي الحال في كتاب الإتليدي ، وكَا هي الحال في كتاب (الفخري في الآداب السلطانية) ، وكذلك كل كتاب لطاليبي يذكر بالدولة العباسية ، وبسيِّد ملوكها ، الرشيد .

علمًا أنَّ الرشيد حاول في أول خلافته أن يستميل قلوب الطَّالبِين بشيء من الإحسان إليهم ، وكان أول مافعله معهم أن رفع الحجر عن كأن منهم ببغداد ، وسَيَرَهُم إلى المدينة المنورة ، مَا خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي ، ومع هذا الَّذِي بدا من الرشيد ، لم يتركه الطَّالبِيون على سجِّيته ، فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي ، فندب الرشيد

(١) الفخري في الآداب السلطانية : ٢٠٩

(٢) الطبرى : ٢٦٨/٨ ، والبداية والنهاية : ١٦٧/١٠

لقتاله الفضل بن خالد بن يحيى فأجابه إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ، فكتب له الرشيد الأمان ، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، فجاء بغداد ، وأقام منزل يحيى بن خالد .

حجَّ الرشيد فأتى قبر النبي ﷺ زائراً ، وحوله قريش ورؤساء القبائل ، ومعه موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، فقال : السلام عليك يا رسول الله يابن عم ، افتخاراً على من حوله ، فقال موسى : السلام عليك يا أبا ، فقال الرشيد : هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقاً^(١) .

وقيل : إنَّ الرشيد حمل موسى الكاظم معه إلى بغداد ، وحبسه بها إلى أن توفي في محبسه^(٢) وهذا مرفوض ، لقد كانت إقامة احترازية إلى زمن محمد - لم يتجاوز السنة - ثم أطلقه وأعطاه ثلاثين ألف درهم ، وقال له : إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تُحب ، وإن أحببت المصي إلى المدينة ، فالإذن في ذلك لك .

والرشيد أول خليفة زاد في الكتب : .. وأسألة أن يصلّي على محمد وآلـه^(٣) ..

وعلى الرغم من نصٌّ صريح في (سير أعلام النبلاء) يقول : وأحسن - الرشيد - إلى آل البيت^(٤) ، نجد في كتاب (الحياة السياسية للإمام الرضا) تحاماً شديداً على الرشيد ، ولكنه غير موثق مطلقاً ، منه :

« أمَا الرشيد .. الَّذِي حَصَدَ شَجَرَةَ النُّبُؤَةِ ، وَاقْتُلَعَ غَرْسُ الْإِمَامَةِ » على حد تعبير الخوارزمي !! بلا مصدر أو مرجع موثق .

والرشيد : « لم يكن يخاف الله ، وأفعاله بأعيان آل علي عليه السلام ، وهم

(١) وفيات الأعيان : ٣٠٩/٥

(٢) بلغ الرشيد أنَّ بعض الناس يبایعون للكاظم في المدينة المنورة .

(٣) صبح الأعشى : ٤٨١/٦ ، مأثر الإنابة : ٣٤٧/٣

(٤) سير أعلام النبلاء : ٢٩٠/٩

أولاد بنت نبيه ، لغير جرم ، تدل على عدم خوفه من الله تعالى » ، والمصدر هنا الفخرى في الآداب السلطانية : ٢٠ ، مؤلف هذا الكتاب شيعي ، يقول مناقضاً كلامه السابق : « كان الرشيد من أفضل الخلفاء و أصحابهم و علمائهم و كرمائهم ، كان يحج سنة ويغزو سنة ، كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلّي في كل يوم مئة ركعة ، وحج ماشياً ولم يحج خليفة ماشياً غيره ، وكان إذا حج حج معه مئة من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحج أحج ثلاط مئة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الظاهرة »^(١) ، وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظم الدنيا .. ^(٢) ، فهل الرشيد صدقأً وبموضوعية « لم يكن يخاف الله » ومنصور بن عمار يقول : « مارأيت أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة : فضيل بن عياض ، وأبي عبد الرحمن الزاهد ، وهارون الرشيد »^(٣) ، وهو الذي يقسم « والله ما أحب أحداً حبي له » أي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٤) ؟

ويتابع كتاب (الحياة السياسية للإمام الرضا) فيقول عن الرشيد : « .. والذى بلغ من كرهه لهم ، أن الشعرا كانوا يتقررون إليه بهجاء آل علي عليه السلام ، كما يظهر بأدنى مراجعة للتاريخ ، ومراجعه التاريخية في الصفحة ذاتها (كتاب الأغاني) حيث جاء فيه : « .. حتى أصبر على آلبني أبي طالب ، والله لا أقتلنهم ، ولا أقتلن شيعتهم ، ولا فعلن وأفعلن » ، ونكرر : إن مصدر هذا القول الأصفهاني في كتابه (الأغاني) ، ولقد تحدثنا عنه وعن كتابه بما فيه الكفاية !!

ويذكر الكتاب أيضاً : هدم الرشيد قبر الحسين ، وحرث أرض كربلاء ،

(١) الفخرى : ١٩٣

(٢) الفخرى : ١٩٥

(٣) تاريخ بغداد : ٨/١٤ ، البداية والنهاية : ٢١٧/١٠ ، تاريخ الخلفاء : ٢٨٥

(٤) البداية والنهاية : ٢١٥/١٠ ، تاريخ بغداد : ٨/١٤ ، تاريخ الخلفاء : ٢٩٣

وما المصدر؟ تاريخ الشيعة : ٨٩ ، وشرح ميّة أبي نواس : ٢٠٩ ، والمناقب
لابن شهر آشوب : ١٩/٢ ؟!!؟

و « تَوَجَّ مُوْبَقَاتَهُ كُلُّهَا ، وَفَطَائِعَهُ تَلْكَ بَقْتَلَ سَيِّدَ الْعُلَمَائِينَ ، وَقَائِدَهُمْ ،
الإِمامَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ » ، فَهَلْ قُتِلَ الرَّشِيدُ مُوسَى أَمْ أَكْرَمَهُ بِشَلَاثَيْنِ أَلْفِ دَرَهم
وَمَضَى بِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ؟

وَالْعَجِيبُ ، أَنَّهُ فِي (سِيرَةِ الْأَئمَّةِ الْإِثْنَيْ عَشْرَ : ٢٢٨/٢) جَاءَ حِرْفِيًّا :
« وَأَحِيَانًا كَانَ يَتَظَاهِرُ بِإِكْرَامِهِ وَتَعْظِيمِهِ [لَآلِ الْبَيْتِ] دِجْلَادًا وَنَفَاقًا » ، فَالْإِدَانَةُ
وَاقِعَةٌ وَلَوْ أَكْرَمَ وَعَظَمَ ؟!!؟

كُنْتُ أَوْدُ أَنْ أَقْرَأَ اسْمَ مُصْدَرٍ وَاحِدٍ مُوثَقٍ فِي مُثْلِ هَذِهِ الْمَؤَلَّفَاتِ .

☆ ☆ ☆

٦

الروايات الكنسية الأوربية

اهتمت الروايات الكنسية براسلات الرشيد ومعاصره ملك بلاد غاليا - فرنسة حالياً - شارلماן ، وبراسلات تقفور وعبد الرحمن بن الحكم ، وهي مراسلات لم تتعذر السفارات والجاملة إن ثبتت صحتها .

إن الروايات الكنسية الأوربية أعطت المراسلات حيزاً أكبر من حجمها الحقيقي بكثير ، ودليل ذلك .. أن الروايات العربية ، والتي اشتهر عنها أنها لا تغفل شيئاً ، لم تذكر هذه المراسلات ، الأمر الذي جعل العلاقات ، سفارات تجارية فردية ، أراد منها المسلمون إطلاع الفرنجة على حياة الشرق

وختبراته وتقديمه العلمي والصناعي والحضاري^(١) .

بينما أراد شارلaman تحقيق هدف دعائي من ناحية ، والضغط على البيزنطيين من ناحية ثانية ، علماً أنَّ الضَّغط على البيزنطيين أمر حاصل من قبل الدولة العباسية ، دون حتّ من قبل شارلaman .

إن ذكريات الفتوحات الإسلامية في قلب فرنسة وسويسة وإيطالية ، تفزع شارلaman وتقلقه ، وزاد عليه خطر البيزنطيين من الشرق ، فأراد أن يوجه للبيزنطيين ضغطاً عباسيًّا ، يتفرغ بعدها لل المسلمين في الأندلس ، وهذا مالم يحصل عليه شارلaman ، لأن الرشيد ما أضرته إمارة الأمويين في الأندلس ، فقد بقي الأمويون الأندليسيون تحت راية الخلافة التي لم تتعدد ، وحافظوا على دولة الإسلام بخلافة واحدة ، وراية واحدة ، فالرشيد هو الخليفة في بغداد ، وهو الخليفة الأوحد في عصره ، وهم في الغرب أمراء ليس غير ، وهذه فضيلة تذكر لعبد الرحمن الداخل (صقر قريش) بالخير والجميل .

وإيمان الرشيد لا يكُنه من أن يستعين على المسلمين في الأندلس بالمرشكين ، فهم لم يضروه شيئاً ، ووجهوا ضغطهم إلى شارلaman ولم يفكّروا مطلقاً بتوجيه ضغطهم إلى الرشيد ، فهم الذين احترموا مركز الخلافة وقبلوا بالإمارة .

والروايات العربية لم تذكر مراسلات شارلaman وبطريق بيت المقدس ، التي روجت لها الروايات الكنسية الأوروبية ، بأمر من شارلaman ، وسبب إغفال الروايات العربية للأمر شيء طبيعي ، لأنَّ الدولة العباسية أيام الرشيد كانت من القوة بحيث تجعلنا نصفها بالدولة الأعظم والأقوى في العالم كله ، فلا يمكن لثلها أن تعطي امتيازات لأحد منها كانت وضعيته ، ولكن شارلaman أراد كسباً إعلامياً دعائياً ، أراد تعظيم وتفخيم المراسلات ، وتكبير مكانتها - وقد تكون لاصحة لها

(١) جاء في قصة الحضارة : ٩٤/١٣ : « ورأى الرشيد أن يصطنع شارلaman ليرهب به إمبراطور الروم ، فأرسل إليه وفداً مثلاً بالهدايا ، منها فيل وساعة مائية معقدة التركيب » .

في التّارِيخ - ليعظم نفسه ، ويُفخِّم مكانته ، أمّا شعبه ، فيظهر وكأنَّه من القوّة
يجاهي الرّشيد في قوّة دولته وسطوتها وجبروتها ، وكأنَّه يلوذ بها ويقارعها المكانة
والنّدّيَّة والعظمة .

ومن هنا قارن المؤرّخون الأوّرييون الرّشيد بشارلماן ، وشارلمان بالرّشيد ،
فجعلوا قصر الرّشيد كقصر شارلماان ، على ما فيه من قصص حبٍّ وغراميات
وشراب ورقص وضياع ، وغناء مائج . فشوّهوا حياة الرّشيد في كتبهم وفكيرهم ،
وبقيت الحقيقة في كتبنا ومراجعنا العربيَّة .

لقد جعلوا حياة الرّشيد ومجالسه ، كحياة شارلمان ومجالسه ، لقد قرئوا بينها
ظلمًا وبهتانًا وإفكًا . لقد ظنَّ الأوّرييون والمؤرّخون منهم خاصة ، أنَّ حياة التّعيم
والمال والسلطة ، لا يمكن أن تكون إلَّا بالنّساء والرّاقصات ، وبالخمور والخلفات
الحراء ، وكأنَّ الرّفاه والسعادة والمُلْك لا تتم إلَّا بها ، فألصقوا ما في قصور ملوكهم
بالرّشيد ، إمَّا عن حسن نِيَّةٍ بسبب الجهل ، أو عن سوء قصد ، وتوجيهه
مدرس !!

وساعد على تشويه صورة الرّشيد في أذهان الغرب أيضًا الروايات
البيزنطية . فقد حطَّم الرّشيد كبرياء تقفور المفتولة ، ورسالته الشهيرة « من
أمير المؤمنين هارون الرّشيد ، إلى كلب الروم تقفور .. » مشهورة معروفة ، ولقد
فعلت فعلتها في نفوس البيزنطيين ، فكيف يوجّه الرّشيد مثل هذه الرّسالة إلى
تقفور ، وهو المصلح الديني في حياة بيزنطة ؟ !

لقد شهدت منظراً غريباً عندما كنت في السنة الثالثة في كلية الآداب قسم
التّارِيخ في جامعة دمشق ، عندما وقف الأستاذ يشرح محاضرة عنوانها :
(العلاقات البيزنطية العربية في صدر الدولة العباسية) ، ولما قرأ الأستاذ رسالة
تقفور ، ثمَّ ردَّ الرّشيد إليه : « إلى كلب الروم تقفور » وقفَ راهبة (كانت
تدرس التّارِيخ معنا) وهي تبكي وتقول بانفعال وعصبية : ليس تقفور كلب

الرُّوم ، إِنَّه ملِك الرُّوم ، إِنَّه ملِك لَا كُلْب ، وأَخْذَتْ تَبِي وَتَصْرَخْ بِانْفَعَال . فَهَذَا الأَسْتَاذُ الْمُحَاضِرُ مِنْ اِنْفَعَالِهَا بِجَمِيعِهِ ، وَأَثْبَتْ لَهَا أَنَّ كُلَّ الرُّوَايَاتِ الْعَرَبِيَّةِ ذَكَرَ الرَّدَّ عَلَى حَقِيقَتِهِ كَأُورَدَنَاهُ ، إِلَّا غَرِيغُورِيوسُ الْمَلَطِي ، الْمُعْرُوفُ بِابْنِ الْعَبْرِي ، الَّذِي أَوْرَدَ النَّصَّ : « مِنْ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى نِيقْفُورَ (زَعِيم) الرُّوم ، قَدْ قَرَأْتَ كِتَابَكَ وَالْجَوابَ مَا تَرَاهُ دُونَ مَا تَسْمَعَهُ »^(١) ، وَتَحْرِيفُ النَّصَّ مِنْ قَبْلِ اِبْنِ الْعَبْرِي يُثْبِتُ التَّشْوِيهَ وَالْحَقْدَ وَالصَّلَبِيَّةَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَقْنَعْ ، وَشَهَقَتْ فِي بَكَائِهَا غَيْرَةً عَلَى نِيقْفُورَ .

فَالرُّوَايَاتُ الْبِيْزَنْطِيَّةُ وَالْكَنْسِيَّةُ الْغَرَبِيَّةُ ، الَّتِي جَعَلَتِ الرَّشِيدَ بَطْلَ الْأَلْفِ لِيَلَةَ وَلِيَلَةَ ، سَاهَمَتْ فِي تَشْوِيهِ حِيَاةِ الرَّشِيدِ ، حَقْدًا وَافْتَرَاءً وَمَكِيدَةً ، وَلَا تَنْسِي مَا يَحْمِلُهُ تَحَامِلُ بِيْزَنْطِيَّةُ فِي ثَنَيَاهُ مِنَ التَّعَصُّبِ وَالصَّلَبِيَّةِ أَيْضًا !!

☆ ☆ ☆

٧

نَكْبَةُ الْبَرَامِكَةِ وَهَلَاكُمُهُمْ

« سُئِلَ الرَّشِيدُ عَنْ سَبَبِ نَكْبَةِ الْبَرَامِكَةِ فَأَجَابَ : لَوْعَلْتُمْ يَبْيَنِي بِالسَّبَبِ الَّذِي لَهُ فَعُلِتْ هَذَا لَقْطَعَتْهَا »^(٢) .

لَمَّا مَاتَ الْخَلِيفَةُ الْمَادِيُّ أَخُو الرَّشِيدِ ، جَاءَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بْنَ بَرْمَكَ إِلَى الرَّشِيدِ ، فَوُجِدَهُ نَائِمًا ، فَأَيْقَظَهُ وَبَشَّرَهُ بِالْخَلْفَةِ ، فَجَعَلَهُ الرَّشِيدَ وزِيرَهُ وَدَفَعَ خَاتَمَهُ إِلَيْهِ . فَمَنْ هُوَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ؟

(١) تَارِيخُ مُختَصِّ الدُّولَ : ١٢٨

(٢) الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ : ١٨٩/١٠ ، وَتَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ : ٤٢١/٢ ، وَالْكَاملُ فِي التَّارِيخِ : ١١٤/٥ ، وَتَارِيخُ اِبْنِ الْوَرْدِيِّ : ٤٢٢/١

إنه يحيى بن خالد بن برمك^(١) ، أبو الفضل ، سيد بنى برمك وأفضلهم ، وهو مؤذن الرشيد ومعلمه ، رضع الرشيد من زينب بنت منير زوجة يحيى مع ابنها الفضل ، فكان الرشيد يدعوه يحيى : يا أبي !!

أمّة المهدى سنة ١٦٣ هـ - وكان الرّشيد في حينها في الرابعة عشرة من عمره - أن يلزمه ، ويكون كاتباً له ، وأكرمه بئنة ألف درهم ، وقال : هي معونة لك على السّفر مع هارون ، ولما ولي الرّشيد الخلافة ، قلّده الأمر ، فبدأ يعلو شأنه^(٢) ، وخصوصاً بعد موت الخيزران أمّ الرّشيد ، فقد كان يحيى لا يقطع أمراً إلا بشورتها بناء على أمر مسبق من الرّشيد ، فكانت هي المشاورة في الأمور كلّها ، فتبرم وتحلّ وتقضى وتحكم^(٣) .

ولما دخلت سنة ١٨٧ هـ ، كان فيها مهلك البرامكة على يد الرشيد ، فقتل جعفر بن يحيى ، وحبس يحيى في الرقة إلى أن مات .

فَلِمَّا نَكَ الرَّشْدَ الْبَرَامِكَةَ ؟

جواب هذا السؤال ، اختلف فيه المؤرخون .. وتعددت الروايات في كتبهم .. ويمكن أن نستخلص إجاباتهم من المصادر المعتمدة .. كالطبرى ، والبداية والنهاية ، والكامل في التاریخ ، وتاریخ بغداد ، وتاریخ الموصل ، والنجوم الراھرة ، وعيون الأخبار ، وتاریخ الیعقوبی ، ومروج الذہب ومعادن الجوهر ، وحسن المضارة ، والأخبار الطوّال^(٤) .. ويمكننا أن نستخلص الأسباب التالية :

(١) الأعلام : ١٧٥/٩ ، وكانت ولادة يحيى عام : [١٢٠ هـ = ٧٣٨ م] ، وتوفي عام : [١٩٠ هـ = ٨٥٠ م] . راجع جدول نسب البرامكة في نهاية الكتاب .

٢) البداية والنهاية : ١٦١/١٠

(٣) راجع روایة البداية والنهاية : ١٦١/١٠ ، والطبری : ٢٠٥/٨ وما بعدها .

(٤) راجع ثبت المراجع للتعرف على أسماء المؤلفين والطبعات المعتمدة في بحثنا هذا .

١ - الرواية الأولى :

ذكر الطّبرى تحت عنوان : (ذكر الخبر عن إيقاع الرّشيد بالبرامكة)

ما يلى :

أمّا سبب غضبه عليه - على جعفر بن يحيى - الذي قتله عنده ، فإنه مختلف فيه ، فمن ذلك ما ذكر عن بختي Shaw بن جبريل^(١) ، عن أبيه أنه قال : إنّي لقاعد في مجلس الرّشيد ، إذ طلع يحيى بن خالد ، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ، فلما دخل وصار بالقرب من الرّشيد وسلم عليه رداءً ضعيفاً ، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر .

قال : ثمّ أقبل على الرّشيد ، فقال الرّشيد : يا جبريل ! يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك ؟ فقلت : لا ، ولا يطمع في ذلك ، قال : فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ! فقام يحيى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدّمني الله قبلك ، والله ما ابتدأت ذلك الساعة ، وما هو إلا شيء كان خصّني به أمير المؤمنين ، ورفع به ذكري .. وإذا قد علمتُ إنّي أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن ، أو الثالثة إنْ أمرني سيدي بذلك ، قال : فاستحيا وكان من أرق الخلفاء وجهها ، وعيناه في الأرض ، ما يرفع إليه طرفه ، ثمّ قال : ما أردت ماتكره ، ولكن الناس يقولون . قال : فظننت أنّه لم يسنح له جواب يرضيه فأجاب بهذا القول ثمّ أمسك عنه ، وخرج يحيى^(٢) .

٢ - الرواية الثانية :

رفع محمد بن الليث رسالة إلى الرّشيد يعظه فيها ، ويذكره قائلاً : إنَّ

(١) ابن طبيط الرّشيد (جبريل بن بختي Shaw) ، مرت ترجمته .

(٢) الطّبرى : ٢٨٧/٨

يحيى بن خالد لا يغنى عنك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه ، فسألتك عما عملت في عباده وبلاه ، فقلت : يا رب إني استكفيتْ يحيى أمور عبادك ! أتراك تحتاجْ بحجة يرضي بها عنك !! مع كلام فيه توبیخ وتقریع .

فدعى الرشید يحيى ، وقد تقدّم إليه خبر الرسالة ، فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : نعم ، قال : فأی الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، فأمر به فوضع في المطبق^(١) دهراً . فلما تذكر الرشید للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه ، فاحضر ، فقال له بعد خطابة طويلة : يا محمد ، أتحبني ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : تقول هذا ؟ قال : نعم ، وضعت في رجلي الأكبال ، وحُلت بياني وبين العيال بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله ، ويحب الإلحاد وأهله ، فكيف أحبك ؟ قال : صدقت ، وأمر بإطلاقه ، ثم قال : يا محمد ، أتحبني ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن قد ذهب ما في قلبي ، فأمر أن يعطى مئة ألف درهم ، فاحضرت ، فقال : يا محمد ، أتحبني ؟ قال : أما الآن فنعم ، قد أنعمت عليّ ، وأحسنت إليّ . قال : انتقم الله من ظلمك ، وأخذ لك بحقك من بعثني عليك ، قال : فقال الناس في البرامكة فأكثروا ، وكان ذلك أول ما ظهر من تغيير حالم .

دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشید ، فقام الغلامان إليه ، فقال الرشید لسرور الخادم : مِرِّ الغلامان ألاً يقوموا ليحيى إذا دخل الدار . فقال : فدخل فلم يقم إليه أحد ، فاربد لونه ، فقال : وكان الغلامان والمحجّاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربّاً استسقى الشربة من الماء أو غيره ، فلا يسوقنه ، وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً^(٢) .

(١) لعله اسم سجن .

(٢) الطبری : ٢٨٨/٨ ، والبداية والنهاية : ١٨٩/١٠

٣ - الرواية الثالثة :

ذكر أبو محمد البزيدي - وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم - قال : من قال إنَّ الرَّشِيدَ قُتِلَ جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه ، وذلك أنَّ الرَّشِيدَ دفع يحيى^(١) إلى جعفر فحبسه ، ثم دعا به ليلة من الليلي فسألَه عن شيء من أمره ، فأجابه ، إلى أن قال : أتَقِ الله في أمري ، ولا تتعرّض أن يكون خصمك غداً مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فوالله ما أحدثت حدثاً ، ولا آويت محدثاً ، فرق عليه ، وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، قال : وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأردد إليك أو إلى غيرك ! فوجّه معه من أدآء إلى مأmine ، وبلغ الخبر الفضل بن الربيع ، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه ، فجلا الأمر ، فوجده حقاً ، وانكشف عنده ، فدخل على الرَّشِيدَ فأخبره ، فأراه أنه لا يعبأ بخبره ، وقال : وما أنت وهذا لأم لك ! فعل ذلك عن أمري ، فانكسر الفضل ، وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلَا ، وجعل يلقمه ويحادثه ، إلى أن كان آخر مأداته بينها أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال ، قال : بحياتي ! فاحجم جعفر - وكان من أدقّ الخلق ذهناً ، وأصحّهم فكراً - وهجس في نفسه أنه قد علم

(١) (يحيى الطالبي) وهو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، دعا إلى نفسه فباعيه أهل الحرمين واليدين ومصر ، وذهب إلى اليدين فأقام مدة ، ودخل مصر والمغرب ثم العراق ، وقصد بلاد ما وراء النهر ، واشتَدَّ الرَّشِيدَ في طلبه ، فانصرف إلى خاقان (ملك الترك) ومعه شيعته ، ثم عاد إلى طبرستان فبلاد الديلم سنة ١٧٥ هـ ، فكثر جمعه ، ندب الرَّشِيدَ لحربيه الفضل بن يحيى البرمي ، وضعف أمر يحيى فطلب الأمان من الرَّشِيدَ ، فأجابه بخطه ، واستقدمه إلى بغداد ، وأعدّ على الرَّشِيدَ عطاياه إلى أن بلغه أنه يدعوه لنفسه يرزاً ، فحبسه عند الفضل بن يحيى ، ورق له هذا بعد مدة ، فأطلقه ، وعلم الرَّشِيدَ ، فأرسل من أعاده إلى الاعتقال ، وكان كثيراً ما يدعوه به إليه فيناظره ، واستمر إلى أن مات في محبسه . «الأعلام» : ١٥٤/٨ .

بشيء من أمره ، فقال : لا وحياتك يا سيدى ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده ، قال : نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسي ، فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلني الله بسيف المدى على عمل الضلال إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان^(١) .

ثم ذكر الطبرى : وحدث إدريس بن بدر ، قال : عرض رجل للرشيد وهو يناظر يحيى بن خالد البرمكي ، فقال : يا أمير المؤمنين نصيحة ، فادع بي إليك ، فقال هرمثة : خذ الرجل إليك ، وسله عن نصيحته هذه ، فسأله ، فأبى أن يخبره وقال : هي سر من أسرار الخليفة ، فأخبر هرمثة الرشيد بقوله ، قال : فقل له لا يخرج الباب حتى أفرغ له ، قال : فلما كان في الهاجرة^(٢) انصرف من كان عنده ، فدعاه ، فقال : أخلي ، فالتفت هارون إلى بيته فقال : انصرفوا يافيان ، فوثبوا وبقي خاقان وحسين على رأسه ، فنظر إليهما الرجل ، فقال الرشيد : تنحيا عنى ، ففعل ، ثم أقبل على الرجل ، فقال : هات ماعندك ، فقال : على أن تؤمنني ! قال : على أن أومن لك وأحسن إليك . قال : كنت بحلوان^(٣) في خان من خاناتها ، فإذا أنا بيعي بن عبد الله في دراعة صوف غليظة ، وكساء صوف أخضر غليظ ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل ، ويرحلون إذا رحل ، ويكونون منه بصد ، يوهمون من رأهم أنهم لا يعرفونه وهم من أعوانه ، ومع كل واحد منهم منشور يأمن به إن عرض له ، قال : أوتعرف يحيى بن عبد الله ؟ قال : أعرفه قدِّيماً ، وذلك الذي حقق معرفتي به بالأمس ، قال : فصفه لي ، قال : مربوع أسمى رقيق السمرة ، أجلح^(٤) حسن

(١) الطبرى : ٢٨٩/٨

(٢) الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر . مختار الصحاح : ٥٩٤

(٣) حلوان : عدة مواقع ، وحلوان العراق هي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ، [معجم البلدان : ٢٩٠/٢] .

(٤) الجلح : الخسار الشعر عن جانبي الرأس .

العينين ، عظيم البطن ، قال : صدقت ، هو ذاك ، قال : فما سمعته يقول ؟
 قال : ما سمعته يقول شيئاً ، غير أنّي رأيته يصلّي ، ورأيت غلاماً من غلمانه
 أعرفه قدماً جالساً على باب الخان ، فلما فرغ من صلاته أتاه بشوب غسيل ،
 فألقاه في عنقه ونزع جبة الصُّوف ، فلما كان بعد الزَّوال صلّى صلاة ظننتها
 العصر ، وأنا أرمقه ، أطال في الأولين ، وخفّ في الآخرين ، فقال الرّشيد : الله
 أبوك ! لجاد ما حفظت عليه ، نعم تلك صلاة العصر ، وذاك وقتها عند القوم ،
 أحسن الله جزاءك وشكر سعيك ! فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من أعقاب أبناء
 هذه الدّولة ، وأصلي من مرو ، ومولدي مدينة السّلام ، قال : فمن زلك بها ؟
 قال : نعم ، فأطرق مليّاً ، ثم قال : كيف احتمالك لمكروره تتحن به في طاعتي !
 قال : أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين ، قال : كن بمكانك حتّى أرجع ،
 فطفر في حجرة كانت خلف ظهره ، فأخرج كيساً فيه ألفاً دينار ، فقال : خذ
 هذه ، ودعني وما أُدبر فيك ، فأخذها ، وضمّ عليها ثيابه ، ثم قال : يا غلام ،
 فأجابه خاقان وحسين ، فقال : أصفوا ابن اللّخاء^(١) ، فصفعاه نحواً من مئة
 صفعة ، ثم قال : أخرجاه إلى من بقي في الدّار ، وعماته في عنقه وقولاً : هذا
 جزاء من يسعى بياطنة أمير المؤمنين وأوليائه ! ففعلاً ذلك ، وتحدثوا بخبره ، ولم
 يعلم بحال الرّجل أحد ، ولا بما كان ألقى إلى الرّشيد حتّى كان من أمر البرامكة
 ما كان .

٤ - الرواية الرابعة :

ذكر يعقوب بن إسحاق أنَّ إبراهيم بن المهدى حدَّثه ، قال : أتيت
 جعفر بن يحيى في داره الّتي ابتناهما ، فقال لي : أما تعجب من منصور بن

(١) اللّخَنْ : نتن الرّيح عامة ، واللّخَنْ : قبح ريح الفرج .. [اللّسان : لحن] .

زياد ؟ قال : قلت فمَاذا ؟ قال : سأله هل ترى في داري عيباً^(١) ؟ قال : نعم ، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة ، قال إبراهيم : فقلت : الْذِي يعيها عندي أَنَّك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف درهم ، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين ، قال : هو يعلم أَنَّه قد وصلني بأكثربن ذلك وضعف ذلك ، سوى ماعُوضني له ، قال : قلت : إِنَّ الْعَدُوَ إِنَّمَا يأتِيهِ فِي هَذَا مِنْ جَهَةِ أَنْ يَقُولُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَنْفَقْتَ عَلَى دَارِ عَشْرِينَ أَلْفَ دَرْهَمٍ ، فَأَيْنَ نَفَقَاتِهِ ! وَأَيْنَ صِلَاتِهِ ! وَأَيْنَ النُّوَابِ الَّتِي تَنْوِبُهُ ! وَمَا ظُنْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا وَرَاءِ ذَلِكِ ! وهذه جملة سريعة إلى القلب ، وال موقف على الحاصل منها صعب ، قال : إِنْ سَمِعْتَ مِنِي قَلْتَ : إِنَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَاً عَلَى قَوْمٍ قَدْ كَفَرُوهُ بِالسُّتُّرِ هُنَّ أَوْ يَأْظُهَارَ الْقَلِيلِ مِنْ كَثِيرِهِنَّ ، وَأَنَا رَجُلٌ نَظَرْتُ إِلَى نِعْمَتِهِ عَنْدِي ، فَوَضَعْتُهَا فِي رَأْسِ جَبَلٍ ، ثُمَّ قَلْتَ لِلنَّاسِ : تَعَالَوْا فَانْظُرُوا .

٥ - الرواية الخامسة :

وما قيل عن سبب نكبة البرامكة ، أَنَّ الرَّشِيدَ كَانَ لَا يَصْبِرُ عَنْ جَعْفَرٍ وَعَنْ أَخْتِهِ الْعَبَاسَةِ بَنْتِ الْمَهْدِيِّ ، وَكَانَ يَحْضُرُهَا إِذَا جَلَسَ لِلشَّرَابِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَعْلَمَ جَعْفَرًا قَلْلَةً صَبَرَهُ عَنْهُ وَعَنْهَا ، وَقَالَ لِجَعْفَرٍ : أَزْوِجْكُهَا لِيَحْلِلَ لَكَ النَّظَرُ إِلَيْهَا إِذَا حَضَرَتِهَا مَجْلِسِي ، وَتَقْدِمُ إِلَيْهِ أَلَا يَسْهَّا ، وَلَا يَكُونُ مِنْهُ شَيْءٌ مَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ إِلَى زَوْجِهِ ، فَزَوْجُهَا مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ يَحْضُرُهَا مَجْلِسَهُ إِذَا جَلَسَ لِلشَّرَابِ ، ثُمَّ يَقُومُ عَنْ مَجْلِسِهِ وَيَخْلِيَهَا ، فَيَمْلَأُنَّ مِنَ الشَّرَابِ ، وَهَا شَابَانٌ ، فَيَقُومُ إِلَيْهَا جَعْفَرٌ فِي جَمَاعَهَا ، فَحَمَلَتْ مِنْهُ وَوَلَدَتْ غَلَامًا ، فَخَافَتْ عَلَى نَفْسِهَا مِنَ الرَّشِيدِ إِنْ عَلِمَ بِذَلِكَ ، فَوَجَّهَتْ بِالْمَوْلُودِ مَعَ حَوَاضِنَ لَهُ مِنْ مَالِكِهَا إِلَى مَكَةَ ، فَلَمْ يَزِلِ الْأَمْرُ مُسْتَوْرًا عَنْ هَارُونَ ، حَتَّى وَقَعَ بَيْنَ الْعَبَاسَةِ وَبَيْنَ بَعْضِ جَوَارِهَا شُرُّ ، فَأَنْهَتْ

(١) كان جعفر بن يحيى يقول : ليس لدارنا هذه عيب ، إلا أنَّ صاحبها فيها قليل البقاء ، - ويعني نفسه - ، [الطَّبَرِي : ٢٩٢/٨] .

أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد ، وأخبرته بمكانه ، ومع من هو من جوارها ، وما معه من الخلي الذي كانت زينته به أمّه . فلما حجَّ هارون أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أنَّ الصبيَّ به مَنْ يأتيه بالصبيِّ ، وبن معه من حواضنه ، فلما أحضروا سُؤل اللوالي معهنَّ الصبيِّ ، فأخبرنَّه بعش القصة التي أخبرَتْ بها الجارية عن العبَّاسة ، فأراد قتل الصبيِّ ، ثمَّ تحَوَّبَ^(١) من ذلك .

- وقيل في ذلك رواية أخرى ..

لما زوج الرشيد أخته العبَّاسة من جعفر أحبها حباً شديداً ، فراودته عن نفسه ، فامتنع أشدَّ الامتناع خوفاً من الرشيد ، فاحتالت عليه ، وكانت أمّه تهدي له في كل ليلة جمعة جارية حسناء بكرأ ، فقالت لأمّه : أدخليني عليه بصفة جارية ، فهابَت ذلك فتهددتها حتى فعلت ذلك ، فلما دخلت عليه لم يتحقق وجهها فواقعها ، فقالت له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟

وحملت من تلك الليلة ، فدخل على أمّه فقال : بعييني والله برخيص .

ثمَّ إنَّ والده يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد في النفقَة حتى شكت زبيدة ذلك إلى الرشيد مرّات ، ثمَّ أفسحت له سر العبَّاسة فاستشاط غيظاً ، ولما أخبرته أنَّ الولد قد أرسلت به إلى مكة ، حجَّ في ذلك العام حتى يتحقَّق الأمر .

اختلَفت الروايات ، فظهر التلْفِيق والكذب جلياً ، إنَّما روایتان مختلفتان كلَّ الاختلاف في مجرى الأحداث ، مما يثبت الخيال والأخلاق .

الرواية الأولى ذكرت أيضاً فيما ذكرت ، أنَّ الرشيد كان يعتب على الفضل بن يحيى لتركه الشراب معه ! وتقول الرواية ، كان الفضل يقول :

(١) أي خاف أن يأثم .

لوعلمت أن الماء ينقص من مروءني ماشربته ، وكان جعفر يدخل في منادمة الرّشيد وأبوه - الفضل - ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، فيترك أباه ، ويدخل مع الرّشيد فيما يدعوه إليه :

١ - الرّشيد لا يشرب شراباً مسكراً ، غير أنه شرب النبيذ ، وهو الماء المحلي الذي لا يُسْكِر ، مما يوضح أنَّ الرّواية والأقوال ، رواية وأقوال برمكية ، أرادت الخطأ من قدر الرّشيد الذي نكب البرامكة ، والرفع من تربية وأخلاق الفضل بن يحيى وابنه جعفر .

٢ - ماورد مطلقاً أنَّ الرّشيد جالس أو نادم النّساء ، فأراد البرامكة الخطأ من فضل مجالس الرّشيد ، وما فيها من احتشام وأدب ودين .

٣ - ذكرت الرّواية الأولى أنَّ جعفر كان يقترب من العباسة بعد كل جلسة يمثل بها الرّشيد !! فولدت منه غلاماً ، وفي الرّواية الثانية ، هي التي دفعت نفسها إليه كجارية ، لثبت الرّواية عفة جعفر ، وسوء أخلاق العباسة . وفي الرّواية الثانية أيضاً ما ينقضها ، لقد جاء : لقد كانت أمُّه تهدي إليه بنتاً بكرًا كل ليلة جمعة ، والعباسة ليست بكرًا ، لقد مات عنها زوجها راوي الحديث الشّريف ، أمير البصرة والكوفة ، محمد بن سلمان بن علي بن عبد الله بن العباس .

٤ - الرّواية الأولى تقول : الرّشيد لا يصبر عن جعفر وعن أخيه العباسة ، فكيف كبر بطن العباسة ، وكيف ولدت في بيته ، ولم ينتبه لذلك ؟ ! وتقول الرّواية التي أوردها الإتليدي أنَّ عدد الغلامان ثلاثة ، وفي رواية أخرى (غلامان) ، وهذا يجعل الرّواية في منتهى الافتراء !!

٥ - العباسة ، يعرفها جعفر جيداً ، لذلك ذكرت الرواية الثانية لتنسجم القصة : « دخلت عليه ولم يتحقق من وجهها » ، فكيف لم يتحقق منها ولم يعرفها ، وهي التي تداوم معه يومياً مجلس الشراب ؟ !؟

٦ - وما يطعن في الروايتين ، الرواية الأولى جعلت انتشار الخبر على لسان جارية اسمها (الرافعة) ، وفي الرواية الثانية جعلت الأمر ينتشر على لسان (زبيدة) .

٧ - والتاريخ لم يذكر لنا مطلقاً مصير الأميرين أبى العباسة ، إنما أميران من نسل (فارسي برمكي) ، لواضحة وجودهما ، لاغتنم الفرصة ، وبما يعوا لهما كيداً بالدولة العباسية ، العربية الحكم والمظاهر .

وهكذا ، فإن المتفحّص للروايتين ، يجد التناقض واضحاً جلياً بينهما . فقد نجد تاريخياً حادثة في روایتين (أو ثلاث روایات) ، ولكن تكمل وتدعى إحداهما الأخرى ، فلا تناقض بينها ، ولا تختلف إحداهما في البناء الأساسي الأخرى ، بل تتم بعض جوانبها وهوامشها .

وروايتا (ال Abbasة) تناقضتا في البناء والجوهر ، واتفقتا في الطعن والتّجريح والافتراء . لذلك رفض الخطيب البغدادي ، وابن تغري بردي كل ما ورد بشأن العباسة مع جعفر .

☆ ☆ ☆

مناقشة الروايات الخمس

خمس روایات ، ذكرها مؤلفون مختلفون ، وكلّ منهم جعل إحداهما سبباً لنكبة البرامكة .

الرواية الأولى جعلت سبب نكبة البرامكة دخول يحيى بن خالد بلا استئذان على مجلس الرّشيد ، وهذا سبب غير كافٍ لنكبة بطيش البرامكة كلّهم .

والرواية الثانية جعلت السبب كيد يحيى بن خالد البرمكي للإسلام وأهله ، وحبّه للإلحاد وأهله ، ولعل هذا السبب من جملة أسباب مكنته .

والرواية الثالثة جعلت السبب إطلاق يحيى بن خالد البرمكي ل Yoshiya bin Khalid البرمكي عبد الله العلوى ، الذى أمنه الرشيد بعد خروجه في خراسان . ولعل هذا أيضاً عامل من جملة عوامل مكنته .

والرواية الرابعة جعلت السبب إنفاق المال الكثير ، لبناء قصور البرامكة التي ينافسون بها قصر الرشيد ، يتطاولون ويتشبهون بأمير المؤمنين بها . ولعل هذا من أسباب النكبة الجماعية للبرامكة^(١) .

والرواية الخامسة جعلت السبب قصة العباسة مع جعفر ، وهي قصة مدوّنة ناقشناها في بداية هذا البحث ، لذلك .. نستبعدها ، ونستبعد الرواية الأولى كسببٍ وحيدٍ لبطش نكل بكل البرامكة . قال الرشيد : « لا أمان للبرامكة ولا من آواهم إلا محمد بن يحيى بن خالد ، فإنه مستثنى لنصحه للخليفة »^(٢) .

فرأينا في سبب النكبة ما يلي :

إن نكبة البرامكة نكبة وهلاك جماعي ، فهي لابد عقاب على فعل جماعي ، خطط له لكنه لم يتم ، فالرشيد لم يرق دما يوماً ، ولم يسجن شخصاً في أي يوم .. إلا لسبب يقره الدين والعقل والمنطق السليم ، فمن باب أولى إلا ينكّل بجماعة بسبب ظن ، أو بسبب إساءة فردية من أحد أفرادها .

وعلى ذلك يكن القول :

(١) لما فرق الرشيد البزد في الأمسار بقبض أموال البرامكة وغلامتهم ، وجد لهم مما حباه اثني عشر ألف ألف ، ومن سائر أموالهم ثلاثة ألف ألف وست مائة ألف وستة وأربعين ألفاً . وعلى تقديرات المسعودي في (مروج الذهب) تكون ثروتهم التي خلفوها : (٤٢,٦٤٦,...) دينار .

(٢) البداية والنهاية : ١٩٠/١٠

نكب الرَّشيد البرامكة لأنَّهم كانوا يمليون إلى فارسية كسرمية ، يظهرون إسلاماً ، وفي نفوسهم مجوسية ظهرت بما يلي :

حَكى الجهميَّاري أَنَّ الفضل بن سهل (وكان مجوسياً) نقل لِيحيى بن خالد البرميَّي كتاباً من الفارسية إلى العربية ، فاعجب بفهمه وبجودة عبارته ، فقال له يحيى : إِنِّي أَرَاكَ ذكِيًّا ، وَسْتَبْلُغَ مِثْلَكَ رَفِيعاً ، فَأَسْلِمْ حَتَّى أَجِدَ السَّبِيلَ إِلَى إِدْخَالِكَ فِي أَمْوَالِنَا وَإِلْحَانِكَ ، وَقَالَ لَهُ يَحِيَّ : الآن ، وَدُعَا بِسَلَامٍ مُولَاه فَقَالَ خذ بِيدهِ هَذَا الْفَتْنَى ، وَامضِ بِهِ إِلَى جَعْفَرٍ وَقُلْ لَهُ يَدْخُلْهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَسْلِمَ عَلَى يَدِيهِ ، فَفَعَلَ وَأَسْلَمَ عَلَى يَدِ الْمُؤْمِنِ ، وَهُوَ الَّذِي صَارَ فِيمَا بَعْدِهِ وزِيرَ الْمُؤْمِنِ ، وَالَّذِي لُقِّبَ بِذِي الرِّيَاسَتَيْنِ^(١) .

فِي إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْفَرَسِ لَمْ يَكُنْ عَنْ قِنَاعَةٍ ، كَمَا هُوَ أَيْضًا إِسْلَامُ (كاووس) مَلِكَ أَشْرُوْسْنَة^(٢) ، فَإِنَّهُ لَمَّا غَلَبَ فِي الْحَرْبِ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ ، وَكَذَلِكَ ابْنُهُ حِيدَرُ الْمُعْرُوفُ (بِالْإِفْشَنِ) حِيدَرُ بْنُ كَاوُسٍ ، الَّذِي ماتَ فِي سُجْنِ الْمُعْتَصِمِ لِزِندَقَتِهِ وَمَجُوسِيَّتِهِ .

لقد حمى البرامكة الفرس - بجاههم ، وبالأموال التي وضعت بين أيديهم - الثَّقَافَةَ الْفَارسِيَّةَ ، ونشروها بما لهم من جاه وسلطان . روى الماجستي عن ثَمَامَةَ ، قال : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يرى جليس خالد (البرمي) دار إلاً وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلاً وخالد ابتعاها له ، ولا ولد إلاً وخالد ابتعاها أمّه إن كانت أمّة أو أَدَّى مهرها إن كانت حُرَّة ، ولا دابة إلاً وخالد حمله عليها ، إما

(١) جعل المؤمن للفضل بن سهل الوزراة وقيادة الجيش معاً ، فكان يلقب بـ ذي الرياستين (الحرب والسياسة) .

(٢) أشروسنة : مقاطعة في بلاد ماوراء النهر ، تقع إلى الغرب من فرغانة والشاس ، وتقع سمرقند وبخارى إلى الجنوب منها . [القاموس الإسلامي : ١١٦١] .

من نتاجه أو من غير نتاجه^(١).

ولقد آوى البرامكة كثيرين من اتهموا بالزندة كمحمد بن الليث الخطيب^(٢) ، وهشام بن الحكم الراضي ، ولقد هال البرامكة الفرس قوة الدولة العباسية ، خصوصاً وقد انتقل الحكم من الأمويين إلى العباسيين ، ونفوس الفرس تطمح إلى حكم فارسي في المظهر والمضمون ، في اللغة والتّراث ، لذلك شجعوا المانوية والزرادشتية والمزدكية بحجّة حرّية الرأي ..

ولذلك قال كثيرون إن البرامكة يطربون لذكر الشرك والكفر في مجالسهم الخاصة . قال الأصمي في البرامكة :

إذا ذُكرَ الشّركُ في مجلسِ
وإنْ تُلِيتْ عِنْدَهُمْ آيَةٌ
أَنارتُ وجوهَ بنيَّ بَرْمَكَ
أَتَوَا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدَكٍ^(٣)

وقال آخر :

إِنَّ الفَرَاغَ دَعَ
وَإِنَّ رَأِيَ فِيهِ
إِلَى ابْتِنَاءِ الْمَسَاجِدِ
كَرَأَيِّ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ^(٤)

وقال (أبو عمرو) كلثوم بن عمرو بن الحارث التّغلبي :

إِنَّ الْبَرَامِكَ لَا تَنْفَكُ أَنْجِيَةٌ
تَجَرَّمَتْ^(٦) حَجَجَ مِنْهُمْ وَمَنْصُلُهُمْ
بِصَفَحةِ الدِّينِ مِنْ نَجْوَاهُمْ نَدَبَ^(٥)
مَضْرَّجُ بِدَمِ الإِسْلَامِ مُخْتَضِبُ

(١) الجهشياري : ١٧٣ ، و تاريخ بغداد : ١٤٤/٤

(٢) ابن النديم : ١٢٠

(٣) عيون الأخبار : ٥١/١

(٤) عيون الأخبار : ٥١/١ أيضاً .

(٥) ندب : جمع ندبة ، أثر الجرح الباقى على الجلد .

(٦) تجرمت : انقضت .

لقد نكب الرشيد البرامكة لمشاهتهم له . وإطلاق سراح يحيى بن عبد الله ، يدل على بده ترك مشورته ، والبت والأمر والنهي دون الرجوع إليه ، بل مخالفة أمره ، فقد أطلق سراحه ووجهه معه من أوصله إلى بلاده دون علم الرشيد^(١) . وهذا تثبته روایة الطبری عن إدريس بن بدر في ج ٨ ، ص : ٢٨٩ .

وقد استعمل أكثر من مؤرخ كلمة (دولة البرامكة)^(٢) يقول المسعودي : « وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النّضرة الحسنة من استخلاف هارون الرّشيد إلى أن قتل عصر بن يحيى بن خالد بن برمك ، سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً .. » . وبالفعل فقد أصبحوا دولة ضئلة ، ولم يكن الرّشيد ذلك الخليفة الساذج البسيط ليدع لهم الحبل على الغارب .

ولقد احتجنوا^(٣) الأموال دون الرّشيد ، حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه^(٤) ، حتى إن أبيا عصر محمد بن مناذر قال لما حجَّ الرّشيد مع البرامكة :

فيا طيبَ أخبار ويا حَسَنَ منظرِ
وحسبيك من راعِ لَه ومدْبِرِ
غرانيقَ ماءٍ تحت بازِ مُصْرِرِ^(٥)

أتانا بنو الأُملاك مِنْ آلِ برمك
إذا راضَ يحيى الأمر ذلتْ صِعَابَةٌ
ترى النّاسَ إجلالاً كَائِنَهُمْ

(١) التّجوم الزاهرة : ١١٥/٢

(٢) أوردها المسعودي ٢٨٩/٣ ، والفارسي : ١٩٧

(٣) احتجنوا الأموال : أصطفوها لأنفسهم من دونه .

ويقال : إن البرامكة ضربوا النقود باسمهم ، وهذا يحتاج إلى تحقيق دقيق ، لأنَّه لم يثبت بشكل قاطع عن طريق الكتب التاريخية المعتمدة والصحيحة ، فلعل ذلك من نسج خيال الفرس ، تعظيمياً (لدولة البرامكة !!)

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٣٦٢/٣

(٥) الغرانيق : جمع غرنوق ، وهو طائر مائي أسود ، وقيل أيضًا ، والبازى : الصقر ، المتصحر : الصائح صياغاً شديداً .

لما سبق تقول :

لقد نكب الرشيد البرامكة بسبب (إساعة استعمال السلطة) ، أطلقوا عدو الرشيد دون علمه ، أنفقوا الأموال على قصورهم وخدمتهم وبني ملتهم وتطاولوا في بنيائهم ، وحموا الشعوبية وكل ما هو فارسي ، كل ذلك على حساب الرشيد ، فكأنهم هم الخلفاء ، لذلك قال الرشيد بعد نكبتهم :

إِنَّ اسْتِهْانَتَهَا إِذَا وَقَعَتْ
لِبَقْدُرٍ مَا تَعْلُوْ بِهَا رَتَبَهُ
وَإِذَا بَدَتْ لِلنَّمْلِ أَجْنَحَهُ
حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطَبَهُ^(١)

فالبيت الأخير يوضح سبب النكبة والهلاك .

رُفِعت إلى الرشيد قصة لم يعرف رافعها فيها^(٢) :

فُلُّ الْأَمِينِ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ
وَمَنْ إِلَيْهِ الْحُلُّ وَالْعَقْدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالالكا
مثلك ، مَا يَنِكْمَا حَدُّ
أُمْرَكَ مَرْدُودٌ إِلَى أُمْرِهِ
وَقَدْ بَنَ الدَّارَ الَّتِي مَا بَنَ الـ
وَأَمْرَةُ لِيْسَ لِـ
الدُّرُّ وَالْيَاقُوتَ حَصْبَأَهَا
وَأَمْرَةُ لِـ
وَنَحْنُ نَخْشِي أَنَّـ
مَلْكَكَ إِنْ غَيْبَكَ اللَّحَـ
وَلَنْ يَبْاهِي الْعَبْدُ أَرْبَابَـ
إِلَّا إِذَا مَا بَطَرَ الْعَبَـ
ـ ☆ ☆ ☆

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٤٠٦/٦

(٢) وفيات الأعيان : ٣٣٧/١

هل ندم الرشيد على نكبتهم ؟

كتب يحيى بن خالد من الحبس حين أحسَّ الموت : قد تقدَّم الخصم إلى موقف الفصل ، وأنتَ بالأثر ، واللهُ الْحَكَمُ العدل ، وستَقدَّم فتعلَّم ، فوْقَع فيه الرَّشِيدُ : الْحَكَمُ الَّذِي رضيَّتِه في الآخرة لك ، هو الَّذِي أعدَّ الخصم في الدُّنيا عليك ، وهو مَنْ لا يَرِد حكمه ، ولا يصرف قضاوَه^(١) .

فحكم الرَّشِيدُ في البرامكة حكم قطعي ثابت ، لا ترَدُّ فيه ولا ندم ، لقد حبس الرَّشِيدَ رجلاً بعد محاكمته ، فلما طال حبسه كتب إليه : إِنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَضِي من نعمك ، يَضِي مِنْ بُؤْسِي مثْلِه ، والأَمْدُ قَرِيبٌ ، والْحَكْمُ لِلَّهِ ، فَأَطْلَقَه الرَّشِيدُ^{(٢) !!}

قال الأَصْمَعِي : وجَهَ إِلَيَّ الرَّشِيدَ بَعْدَ قُتْلَه جَعْفَراً ، فَجَئَتْ فَقَالَ : أَيَّاتٍ أَرَدْتَ أَنْ تَسْمَعَهَا ، فَقَلَّتْ : إِذَا شَاءَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنْشَدَنِي :

لو أَنْ جَعْفَرَ خَافَ أَسْبَابَ الرَّدِيِّ
لَنْجَا بِهِ مِنْهَا طِيمٌ مُلْجَمٌ
وَلَكَانَ مِنْ حَذَرِ الْمَنِيَّةِ حَيْثُ لَا
يَرْجُو الْلَّحَاقُ بِهِ الْعَقَابُ الْقَشْعَمُ
لَكَنَّه لَمَّا أَتَاهُ يَوْمَهُ
لَمْ يَدْفَعْ الْحَدَثَانَ عَنْهُ مُنْجَمٌ

فَعَلِمَتْ أَنَّهَا لَهُ ، فَقَلَّتْ : إِنَّهَا أَحْسَنُ أَيَّاتٍ في مَعْنَاهَا ، فَقَالَ : إِلْحَقُ الْآنَ بِأَهْلِكَ يَا بْنَ قَرِيبٍ إِنْ شَئْتَ^(٣) .

وَمَعَ ذَلِكَ ، أَوْرَدَ بَعْضُ الْمُؤْرِخِينَ قَوْلًا لِلْرَّشِيدِ جَاءَ فِيهِ : « لَعْنَ اللَّهِ مِنْ أَغْرَاني بِالْبَرَامِكَةِ ، فَمَا وَجَدْتُ بَعْدَهُمْ لَذَّةً وَلَا رَاحَةً وَلَا رَجَاءً ، وَدَدْتُ وَاللهُ أَعْلَمُ شَطَرَتْ نَصْفَ عُمْرِي وَمَلْكِي وَأَنِّي تَرَكْتُهُمْ عَلَى حَالِهِمْ » .

(١) العقد الفريد : ٤٩/٥

(٢) العقد الفريد : ١٦١/٢

(٣) وفيات الأعيان : ٣٣٩/١

وهذا الكلام مرفوض ، لأنَّ عمل الرَّشيد عمل مدروس ضدَّ أنسٍ وأساؤوا استعمال السلطة ، لقد كان إبراهيم بن عثمان بن نهيك يكثُر من البكاء على البرامكة ، ولا سيما على جعفر ، ثم خرج من خير البكاء ، إلى خير الانتصار لهم ، والأخذ بشارهم ، وكان يقول لجاريته ، ائْتني بسيفي ، فيسلُّه ثم يقول : والله لا أقتلن قاتله ، فخشى ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهم ، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا ، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه ، فأخبر الفضل الخليفة فاستدعاه ، فاستخبر فأخبره ، فقال : من يشهد معك عليه ؟ فقال : فلان الخادم ، فجاء به فشهد ، فقال الرَّشيد : لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصي ، لعلهما قد تواطأ على ذلك^(١) ، فأحضره الرَّشيد على الشراب المشروم ، ثم خلا به ، فقال : ويحك يا إبراهيم ! إنَّ عندي سراً أحب أن أطلعك عليه ، ألقني في الليل والنهار ، قال : وما هو ؟ إني ندمت على قتل البرامكة ، وددت إني خرجت من نصف ملكي ونصف عمري ، ولم أكن فعلت بهم ما فعلت ، فإني لم أجد بعدهم لذة ولا راحة ، فقال : رحمة الله على أبي الفضل - يعني جعفراً - وبكي ، وقال : والله يا سيدِي لقد أخطأت في قتله ، فقال له : قم لعنك الله ، ثم حبسه ، ثم قتله بعد ثلاثة أيام ، وسلم أهله وولده^(٢) .

فالرَّشيد لم يندم لأنَّه قام بعمل ضدَّ أنسٍ حاولوا أن يجعلوه من بعدهم في الصَّفَّ الثاني وحاولوا نقل خيوط الملك إلى أيديهم ، ودليل عدم ندمه ما يلي :

ولما طال حبس يحيى جاءته زوج يحيى - أمُّ الرَّشيد من الرِّضاع - قال الحاجب : ظئرُّ أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شهادة الحاسد إلى حنين الوالد .. فلما دخلت قام الرَّشيد مختفياً بها ، وأكبَّ على تقبيل رأسها . قالت : يا

(١) لاحظ تحققَه من الخبر ، وعدم أخذَه الأمور بالظن والتَّخمين .

(٢) ويلاحظ هنا أنه لم يأخذ أحداً بجريمة غيره ، وهكذا كانت نكبة البرامكة ، نكبة جماعية ، لعمل جماعي .

أمير المؤمنين .. لقد ربيتك وأخذت لك الأمان من دهري ، ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ومع ذلك يرد الرشيد : قَدَرْ سبَقَ ، وَقَضَاءُ حَمْ ، وغضب من الله نزل .

وتعالت المناجاة ، فكان يلوذ بذكر الله ، ويقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » .. وطال استرحامها ، فقال لها الرشيد : « يا أم الرشيد أما لي من الحق مثل الذي لهم ؟ » يقصد زوجها وأولادها .

قالت : إنك لأعز علىِّ وهم أحب إلىِّ ، وقامت عنه .

وهكذا كانت إنسانية الرشيد العالية تستحيل قسوة ضاربة كلما كانت الدولة محل هجوم عليها ، أو دفاع عنها .

فلو ندم لطلق سراحهم من سجن الرافقة (في الرقة) ، الذي بقي يحيى فيه حتى توفي سنة ١٩٠ هـ في ٣ المحرم وهو ابن سبعين سنة^(١)

وكان الرشيد يقول بحق البرامكة : « من يَرِدُ غير مائة ، يصدر بمثل دائنه » ، ويقول أيضاً : من لم يؤدبه الجليل ففي عقوبته إصلاحه .

وما قيل بشأن سخاء البرامكة ، وتصرفهم بأموال الدولة ، وظهورهم بعظهر السخاء للتحبب إلى الناس أنَّ التوكل سأل أبو العيناء : « من أسرى من رأيت ؟ » فقال : « إنَّ الصدق ما هو في موضع من الموضع أنفق منه بحضرتك ، والناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى السخاء فإذا نسب الناس السخاء إلى البرامكة ، فإنما ذلك من سخاء أمير المؤمنين الرشيد ، وإذا نسب الناس الحسن بن سهل ، والفضل بن سهل إلى السخاء ، فإنما ذلك سخاء أمير المؤمنين المأمون ، وإذا نسبوا

(١) تاريخ بغداد : ١٤/١٢ ، صلى عليه ابنه الفضل ودفنه على شاطئ الفرات في موضع يقال له : « ربع هرثة » .

أحمد بن أبي دؤاد إلى السخاء ، فذاك سخاء أمير المؤمنين المعتضم ، وإذا نسبوا الفتح بن خاقان ، وعبيد الله بن يحيى إلى السخاء فإنما هو سخاؤك ، وإنما بالهؤلاء القوم لم ينسبوا إلى السخاء قبل صحبتهم الخلفاء » ، فقال المتوكل : صدقت ، وسرّي عنك^(١) .

هذا .. وليس البرامكة من البسطاء أو السُّذِّج ، كانوا في منتهى اللباقه والعلم ، أو ما يعرف في عصرنا اليوم (بالبروتوكولات) .. لقد كانوا على ذكاء يساعدهم على تنفيذ مهمتهم ، ومثلهم ينتقى مثل أعمالهم ..

لقد كان جعفر بن يحيى بن خالد (أبو الفضل) البرمي « طلق الوجه ، ظاهر البشر ، فأماماً جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر ، وأئمَّ من أن يظهر ، وكان من ذوي الفصاحة ، والمذكورين باللسن والبلاغة »^(٢) .

وما يُنسب إليه من الفطنة أنه بلغه أن الرشيد مغموم ، لأن منجحاً يهودياً زعم أنه يموت في تلك السنة ، يعني الرشيد ، وأن اليهودي في بيده ، فركب جعفر إلى الرشيد فرأه شديد الغم ، فقال لليهودي : أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوماً ؟ قال : نعم ، قال : وأنت كم عمرك ؟ قال : كذا وكذا ، أمداً طويلاً ، فقال للرشيد : أقتلته حتى تعلم أنه كذب في أمدك كما كذب في أمده ، فقتلته وذهب ما كان بالرشيد من الغم ، وشكراً على ذلك ، وأمر بصلب اليهودي .

فقال أشجع السلمي في ذلك :

سلِ الراكبَ الموفي على الجذعِ هل رأى لِراكبِه نجْمًا بَدَا غيرَ أغورَ

(١) أمالى المرتضى : ٣٠٠

(٢) تاريخ بغداد : ١٥٢/٧

لا يُخْبِرَهُ عَنْ رَأْسِهِ الْمُتَحِيرِ
 يُعْرَفُنَا أَنْبَاءَ كِسْرَى وَقَيْصِرِ
 وَنَجْمُكَ بَادِي الشَّرِّ يَا شَرَّ مُخْبِرِ
 وَلَوْ كَانَ نَجْمٌ مُخْبِرًا عَنْ مَنِيَّةِ
 يُعْرِفُنَا مَوْتَ الْإِمَامِ كَأَنَّهُ
 أَخْبَرُ عَنْ نَحْسٍ لِغَيْرِكَ شَوْمَهِ
 وَمَضِي دَمِ الْمَنْجُومِ هَدْرًا بِحَمْقِهِ^(۱).

قيل ليحيى بن خالد بن برمك : أي الأشياء أقل ؟ قال : قناعة ذي الممة البعيدة بالعيش الدُّون ، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع ، وسكون النفس إلى المدح .

وقيل له : ما الكرم ؟ فقال : مَلِكٌ في زَيِّ مُسْكِينِ .

وقيل له : ما الجود ؟ فقال : عَفْوٌ بعد قدرةِ .

وقال مرّة : إذا فتحت بينك وبينك أحد باباً من المعروف ، فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة .

وقال : أحسن جملة الولاية إصابة السياسة ، ورأس إصابة السياسة العمل بطاعة الله ، وفتح بابين للرّعية ، أحدهما رأفة ورحمة وبذل وتحنّن ، والآخر غلظة ومباعدة وإمساك ومنع .

هذا هو يحيى الذي يقول عنه المأمون : « لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في البلاغة والكمامة والجود والشجاعة » .

مدح بشارُّ بن برد خالدَ بن برمك ، فقال فيه :

لعمرٍي لقد أجدى عليًّا ابنَ برمكِ
 وما كل من كان الغنى عنده يجندِي
 ساحاً كـا در السّحـابـ مع الرـعـدـ

(۱) وفيات الأعيان : ۳۲۹/۱

إليك وأعطيك الكرامة بالحمد
جزاءً وكيل التاجر المد بالمد
إذا ماغدا أو راح كالجذر والمد
جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكدر
ولا تبهرها إن العواري للردد

إذا جئتـه للحمد أشرق وجهـة
له نعمـ في القوم لا يستثيرها
مقيدة ومتلاـفـ سـبيلـ ثـائـهـ
أـخـالـدـ إـنـ الـحـمـدـ يـبـقـىـ لـأـهـلـهـ
فـأـطـعـمـ وـكـلـ منـ عـارـةـ مـسـتـرـدـةـ

فأعطاه خالد ثلاثة ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف درهم ، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان الأخيران ، في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه ، وقال ابنه يحيى : آخر ما أوصاني به أبي العمل بهذه البيتين .

☆ ☆ ☆

« فـلـماـ حـجـ الرـشـيدـ سـنـةـ سـبـعـةـ وـثـانـيـنـ (ـوـمـئـةـ)ـ وـرـجـعـ مـنـ حـجـهـ وـنـزـلـ
الـأـنـبـارـ ^(١)ـ أـرـسـلـ مـسـرـورـاـ الـخـادـمـ فـيـ جـمـاعـةـ مـنـ الـجـنـدـ لـيـلـاـ ،ـ فـأـحـضـرـ جـعـفـراـ ،ـ وـأـعـلمـ
الـرـشـيدـ فـقـالـ :ـ أـئـتـنـيـ بـرـأـسـهـ ،ـ فـطـفـقـ جـعـفـرـ يـتـذـلـلـ لـمـسـرـورـ وـيـسـأـلـهـ الـمـرـاجـعـةـ فـيـ
أـمـرـهـ ،ـ فـرـاجـعـ مـسـرـورـ الرـشـيدـ فـقـدـفـهـ الرـشـيدـ بـعـصـىـ كـانـتـ فـيـ يـدـهـ ،ـ وـتـهـدـدـهـ ،ـ فـخـرـجـ
وـأـتـاهـ بـرـأـسـهـ ،ـ وـحـبـسـ الـفـضـلـ مـنـ لـيـلـتـهـ وـبـعـثـ مـنـ اـحـتـاطـ عـلـىـ مـنـازـلـ يـحـيـيـ وـولـدـهـ
وـجـمـيعـ مـوـجـودـهـ وـحـبـسـهـ فـيـ مـنـزـلـهـ وـكـتـبـ مـنـ لـيـلـتـهـ إـلـىـ سـائـرـ النـواـحـيـ بـقـبـضـ أـمـوـالـهـ
وـرـقـيقـهـ وـبـعـثـ مـنـ الـفـدـ بـشـلـوـ جـعـفـرـ وـأـمـرـأـنـ يـقـسـمـ قـطـعـتـيـنـ وـيـنـصـبـانـ عـلـىـ
الـجـسـرـ .ـ وـأـعـفـيـ مـحـمـدـ بـنـ خـالـدـ مـنـ النـكـبـةـ وـلـمـ يـضـيقـ عـلـىـ يـحـيـيـ وـلـاـ بـنـيـهـ الـفـضـلـ وـمـحـمـدـ
وـمـوـسـيـ ..ـ ^(٢)ـ ،ـ هـذـهـ رـوـاـيـةـ اـبـنـ خـلـدونـ ،ـ وـفـيـ النـجـومـ الزـاهـرـةـ :

وـفـيـ رـوـاـيـةـ :ـ وـلـاـ غـضـبـ الرـشـيدـ عـلـيـهـمـ ،ـ أـرـسـلـ لـلـقـبـضـ عـلـىـ جـعـفـرـ (ـمـسـرـورـاـ)
وـمـعـهـ جـمـاعـةـ ،ـ فـكـانـ جـعـفـرـ فـيـ هـوـهـ وـمـغـنـيـهـ يـغـنـيـهـ قـوـلـهـ :

(١) جاء في وفيات الأعيان ٣٣٨/١ : « وـكـانـ الرـشـيدـ بـالـأـنـبـارـ بـوـضـعـ يـقالـ لـهـ الـعـمـرـ » .

(٢) اـبـنـ خـلـدونـ : ٢٢٢/٢

عليه الموتُ يطْرُقُ أو يُغَادِي
فلا تَبْعَدْ فَكُلْ فَتِي سِيَّاتِي
وَكُلْ ذَخِيرَةً لَا بَدْ يَوْمًا
وَكُلْ كِرْمَتٍ^(١) تَصِيرُ إِلَى نَفَادِ
ولو فُودِيتَ مِنْ حَدَثَ اللَّيَالِي
فَدِيْتَكَ بِالظَّرِيفِ وَبِالْتَّلَادِ

قال مسرور : فقلت له : يا جعفر ، الذي جئت له هو والله ذاك قد
طرقك ، فأجب أمير المؤمنين ، فوقع على رجلي يقبلها ، وقال : حتّى أدخل
وأوصي ! فقلت : أما الدخول فلا سبيل إليه ، وأماماً الوصية ، فاصنع ما شئت ،
فأوصي ، وأتيت الرّشيد به ، فقال : ائْتني برأْسِه فأتّيته به^(٢) .

قال أحد أبناء يحيى بن خالد لأبيه وهم في السجن والقيود بأيديهم : يا أبا
بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذه الحال ؟ فقال : يا بني ، دعوة مظلوم
سرت بليل ونحن عنها غافلون ، ولم يغفل الله عنها ، ثم أنشأ يقول :

رَبُّ قَوْمٍ قَدْ غَدَوْا فِي نَعْمَةٍ زَمَنًا وَالدَّهْرُ رِيَانٌ غَدَقٌ
سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَانًا ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقٌ^(٣)

ولما سبق نقول :

لقد شوّه الفرس أيضاً سيرة الرّشيد ، انتقاماً للبرامكة ، أو (دولة البرامكة)
كما أسموها !! فالمؤرخون أصحاب الميل الشعوبية ، أو الفارسية ، أو الذين
يميلون ، أو الذين يرغبون في الكيد للإسلام وأهله وأعلامه ، شوّهوا سيرة الرّشيد
أيضاً ، وروّجوا إشاعة العباءة لطمس معالم حركتهم .

☆ ☆ ☆

(١) في وفيات الأعيان : « وإن بقيت » ، والبيت الثالث من وفيات الأعيان : ٢٣٨/١

(٢) النجوم الراهرة : ١١٦/٢

(٣) البداية والنهاية : ٢٠٥/١٠

خاتمة

لماذا شوّهوا سيرة الرّشيد ؟

« قال إبراهيم بن عبد الله الخراساني : حجّت مع أبي سَنَة حجّ الرّشيد ، فإذا نحن بالرشيد وهو واقف حاسِر حافٍ على الحصباء وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ، ويقول : يا رب ! أنت أنت ، وأنا أنا ، أنا العواد إلى الذّنب ، وأنت العواد إلى المغفرة ، اغفر لي ! فقال لي : يا بني ! انظر إلى جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء »^(١) .

أسئلة ثلاثة ، نختتم به كتابنا هذا :

لماذا شوّهت سيرة الرّشيد بالذّات ؟

لماذا لم تشوّه سيرة غيره من خلفاء بني العباس ، كملنصور أو المأمون أو المعتصم ، كما شوّهت سيرته ؟

لماذا وجّهت الافتراطات مرتكزةً إلى الرشيد بالذّات من بين كل أعلام المسلمين ؟

في رأينا .. كان التّشويه مدروساً محكماً ، سُدّد لواسطة العقد في الحضارة العربية الإسلامية . إنّ قمة التّقدّم العلمي ، وذروة الحضارة العربية الإسلامية ، بما

(١) فضائح الباطنية ، لأبي حامد الغزالي : ٢١٨

فيها من خير ورفاه وسعادة ، مع القوة والعزّة والمنعة ، ت مثلت في عصر الرّشيد ، حين بلغت بغداد برعايته وحكمته وعقيدته ، ذروة القوّة في كلّ شيء ، سياسة ، وعلوماً ، واقتصاداً ، وتربيّة .. لقد كانت بغداد في عهد الرّشيد ، الدولة الأقوى في العالم كُلّه ، قهرت أعداءها شرقاً وغرباً . والمتأنّل لجدول الخلفاء العباسين ، يجد في بدايتها عشرة خلفاء ، يمثلون ذروة القوّة والنّهضة والتّقدّم والعلم ، والرّشيد يمثل قمة هؤلاء العشرة ، لذلك وجّهت سهام التّشوّيه والتّهم والافتراء إلى الرّشيد بالذّات .

وعلى ذلك .. فإنَّ الطَّعن والتّشوّيه الموجه إلى الرّشيد ، طعن وتشويه موجهان ضدّ ذروة الحضارة العربيّة الإسلاميّة بالذّات ، فالطَّعن في سيرة أعلام الإسلام ، طعن في الإسلام ذاته ، يُرضي حقد الحاقدين ، الذين امتهنوا الدين والافتراء منهُ أوقفوا أنفسهم لها ياخلاص .

وإنَّ الطَّعن المباشر العلني ضدّ الإسلام ، طريقة جرّها أعداؤه فلم تجده نفعاً ، فردة الفعل عند المسلمين قوية لردّ الطَّعن أو التّشوّيه . فلجأوا إلى الطَّعن الخفي ، والتّشوّيه غير المباشر ، طريقة يتبعها الصّليبيُّون اليوم ، والحاقدون على تراث هذه الأمة ، ليأمّنوا ردّة الفعل . فكانت فترة الرّشيد ، فترة القوّة والعزّة والتّقدّم فترة خصبة معطاءة لجريجي زيدان وأمثاله ، كانت فترة خصبة لرواياته ، روايات تاريخ الإسلام ، (كالعباسة أخت الرّشيد) ، و (الأمين والمأمون) .

فالطَّعن في أعلام الإسلام ، طعن في الإسلام .

والدّس على رجالات الإسلام ، دس على تراث الإسلام ، وفكّر الإسلام .

أما شوّهوا سيرة عثمان بالتّحدث عن « اشتراكية أبي ذر » ؟

أما شوّهوا سيرة السلطان عبد الحميد ، لرفضه قيام دولة يهودية في فلسطين ، ليشوّهوا فكرة الخلافة في أذهان المسلمين كلّهم ؟ !

وفي هذه المرة .. الطعن موجّه إلى أوج نهضتنا ، وإلى ثرات إسلامنا تكافف للطعن حقد صليبي متّشل في نقفور ، وروايات كنسية مالأت شارلمان ، واستشراف جعل خيالات ألف ليلة وليلة ، روايات عربية بطلها الرّشيد ، مع حقد شعوي فارسي متّشل في البرامكة ومن أرّخ لهم من الطالبيين .. مع أدباء عرب تنطحوا لكتابة التاريخ كالإتليدي ، والأصفهاني ، وأحمد أمين ..

دولة الرّشيد ، الدولة الوحيدة الأعظم في العالم في حينها ، كسبت مكانتها من إسلام حيّ ، وخليفة مسلم ملتزم بشريعة الله ، فتحت على الخلق الرفيع والعلم والأدب .. والصّحة وكراهة الفرد .. فالطعن في سيرة الرشيد وسلوكه ، طعن لفكر القائد الموجّه للدولة .

دولة الرّشيد ، التي صورها الحاقدون ، دولة أبي نواس ، ودولة الجواري^(١) ، دولة ألف ليلة وليلة ظلماً وبهتانًا ، هي دولة أعلام العلم والاختراع والحضارة حقيقة وصدقًا . فلقد ضمّت دولة الرّشيد أعلام العلم الذين تفخر بهم البشرية جماء ..

جابر بن حيّان الكوفي^(٢) ، كان على اتصال وثيق ب بلاط الرّشيد ، إن جابرًا ، (أبا الكيماء) ، الذي قال عنه بريليو الفرنسي : «إن كلَّ الباحثين في هذا العلم من بعده ، كانوا عالة عليه تقلاً وتعليقًا ، وإنَّه أول واضع للقواعد العلمية لعلم الكيمياء»^(٣) ، كان تحت رعاية دولة الرّشيد ، وبأمواتها كان يعمل في مختبره .

(١) النساء في قصر الرّشيد ، لخدمة القصر في ساعات معينة ، وبباقي السّاعات لتلاؤ القرآن الكريم .

(٢) جابر بن حيان الكوفي : (١٢٣ - ١٩٥ هـ / ٨١٠ - ٧٤٠ م) ، وعرف بالغرب باسم (جبير) .

(٣) راجع (سير ملهمة من الشرق والغرب) ، إساعيل مظهر : ٣٦ ، ط : ١٩٦١ م مؤسسة فرانكلين .

الحسن بن الهيثم ، أكبر عالم بصريات على مر العصور ، إِياد الله البَشَّانِي ،
 الفلكي الشهير شرقاً وغرباً^(١) ، الخوارزمي ، عالم الرياضيات ذائع الصيت ،
 والذي افتخرت به الإنسانية لما قدم في عالم الرياضيات ، أبو حنيفة الدِّينَوْرِي ،
 عالم النبات والمصنف العظيم ، البيروني ، (مثال العالم المسلم في أرق مراتبه) ، كما
 يقول ديورانت في قصة الحضارة^(٢) . وباختصار .. العلماء الذين تعزز بهم
 الإنسانية ، لأن نهضتها تدين لهم بالفضل ، منهم من عاش في كنف الرَّشِيدِ ،
 ومنهم من هيأ له الرَّشِيدِ كنوز العلوم في (بيت الحكمة) ، فنهلوا من مراجعها
 ومصادرها ، لقد بني لهم الرَّشِيدِ (بيت الحكمة) مكتبة فريدة لا نظير لها إلا في
 جوهرة العالم (قرطبة) ، فأينعت هذه المكتبة أيام المؤمنون ، فكلُّ عالم استفاد
 من هذه الدار ، التي جعل فيها الرَّشِيدِ راتب (النَّسَاخَ) ، النَّسَاخُ الذي لا يقدم
 جديداً ، ولا يخترع جديداً ، ولا يؤلف جديداً ، النَّسَاخُ ، جعل الرَّشِيدِ راتبه
 ألفي دينار في الشهر الواحد . فمن استفاد من (بيت الحكمة) فللرَّشِيدِ عليه فضلٌ
 ومنه .

في دولة الرَّشِيدِ تقدمت الصناعات .. الإنبيق ، الساعات الدقاققة التي
 أخافت أوربية ، أدوات الملاحة ، تقطير الأدوية ، العمليات الجراحية الدقيقة
 بأدوات تشريح راقية ، المستشفيات العديدة في كلِّ المدن الكبرى^(٣) ، وفي كلِّ
 الأقاليم .. كل هذا ومئات غيره - ضاع من بيت الحكمة عندما رماها التتار في
 الدجلة ، فتأخرت النهضة ستة قرون - كانت كلها أيام الرَّشِيدِ ، بتشجيع منه
 ومن رجالات دولته ، فلصالح من نردد تشويه حياته ؟ !!

(١) له مخطوطات حتى يومنا هذا في مكتبة الفاتيكان ، راجع (سير ملهمة) : ٢١

(٢) راجع (سير ملهمة) : ٢٢

(٣) وكانت تسمى (ببارستانات) .

إنَّ الثُّرُوة الْهَائِلَةْ عَمِتَ دُولَة الرَّشِيد ، فَأَفْمَنَت الرَّفَاهَ لِكُلِّ النَّاس ، لَا لِبَغْدَادِ وَحْدَهَا ، فَلَمْ تَأْتِ هَذِهِ الثُّرُوة بِلَاطِ الرَّشِيد إِلَّا بَعْدِ سَدِّ حَاجَاتِ الْأَقْوَالِمِ بِشَكْلِ كَامِلٍ . قَالَ الْقَلْقَنْدِي^(١) : « وَكَانَ خَزَانَ الرَّشِيدِ تَفِيسِ بِالْأَمْوَالِ الَّتِي كَانَتْ تَجْبِي مِنَ الْضَّرَائِبِ حَتَّى بَلَغَتْ فِي عَهْدِهِ مَا يَقْرَبُ مِنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلْيُونَ دِينَارٍ ، عَدَا الْضَّرِيَّةِ الْعِينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَؤْخُذُ مَا تَنْتَجُهُ الْأَرْضُ مِنَ الْحَبُوبِ ، حَتَّى إِنَّ الرَّشِيدَ كَانَ يَسْتَلِقُ عَلَى ظَهْرِهِ وَيَنْظَرُ إِلَى السَّحَابَةِ الْمَارَةِ وَيَقُولُ : أَذْهَبِي حِيثِ شَئْتَ يَأْتِي خَرَاجُكَ » . وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ مُحَمَّدُ غَنِيمٌ :

فَحِينَ جَاؤَ زَبْدَ طَافَ الغَامِ بِهِ
مُلْكُ كَمْلُكٍ (بَنِي التَّامِيزِ)^(٢) مَاغْرِبَتِ
مَاضِيٌّ تَعِيشُ عَلَى أَنْقَاضِهِ أَمْمٌ
وَتَسْتَمِدُ الْقِوَى مِنْ وَحْيِ ذِكْرَاهُ

هَذِهِ الثُّرُوةُ اسْتَخْدَمَتْ فِي مَجَالَاتِهَا الصَّحِيحَةُ ، كَمَا رَسَمَهَا أَبُو يُوسُفُ فِي كِتَابِ (الْخَرَاجِ) ، وَلَمْ تَنْفَقْ فِي قَصْوَرِ الْأَلْفِ لَيْلَةٍ وَلِيلَةً اسْطُورِيَّةً .

فَالْتَّنَدُّرُ عَلَى تَارِيخِنَا صَارَ مَهْنَةً تَمَهَّنَ ، لَطْعَنَ تِراثَنَا .

وَالْفَقْرَاءُ صَارُ حَرْفَةً ، تَنْفَقُ الْمَلَيْنِ عَلَيْهَا ، مِنْ قَبْلِ جَهَاتِ يَهْمَهَا أَنْ يَشْعُرُ جِيلَنَا بِعَقْدَةِ النَّقْصِ ، لِيزْهَدُ بِصَانِعِي تَارِيخِهِ ، وَأَعْلَامِ فَكْرِهِ ، وَبِالْتَّالِي لِيَفْتَشَ عَنِ رَجَالَاتِ جُدُّدٍ ، وَفَكْرٍ جَدِيدٍ ، يَظْنُهُ مَثَالِيًّا ، لَأَنَّهُ صُورَ لَهُ بِتَزْيِنَاتٍ وَزِيَادَاتٍ وَتَفْخِيمٍ وَتَبْجِيلٍ عَنْ قَصْدٍ ، لَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ احْتِقَارَ رَجَالَاتِنَا ، أَوِ الزُّهْدُ بِتَارِيخِنَا ، فِيهِ الْمَسْخُ لِذَاتِنَا ، وَفِيهِ تَفْكِكُ الْأُمَّةِ ، وَاضْمَحْلَالُ شَخْصِيَّتِهَا ، وَهَذَا مَا يَسْعَونَ إِلَيْهِ بِكُلِّ طَاقَتِهِمْ .

(١) مَأْثُرُ الإِنَافَةِ فِي مَعَالِمِ الْخَلَافَةِ : ١٩٤/١ ، وَ ٢٢٤/٢

(٢) بَنِي التَّامِيزِ ، يَعْنِي بِهِمِ الْإِنْكَلِيزُ الَّذِينَ أَقَلُومُوا إِمْپِراَطُورِيَّةً لَا تَغْيِبُ عَنْهَا الشَّمْسُ ، وَالتَّامِيزُ خَرِيفٌ لِلْفُرْسَنِ لِأَنَّهُمْ يَرْمَأُونَ لَنَدْنَ (الْعَاصِمَةِ الْبَرِيْطَانِيَّةِ) أَلَا وَهُوَ : نَهْرُ التَّايِزِ .

فلصالح من نجّح أعلام تارينخنا الجيد ؟!

تراثنا الجيد يوحد قلوب الأمة ، ويجعلها في وحدة كلمة ، تتلاقي الأفكار فيه ، وتسعد العزيمة والفاء والنهضة والتقدم منه ، فلصالح من نسمح بتشويهه ؟ ولصالح من يعلوه غبار النسيان ؟ فتنسى حقائقه وروائعه ودروسه !!؟؟

أما تقول في نشيدنا الوطني صباح مساء ، في كل قطعة محاربة ، وفي كل مدرسة ابتدائية أو إعدادية أو ثانوية ، وفي كل احتفال رسمي أو شعبي :

فَنَا الْوَلِيدُ وَمِنَا الرَّشِيدُ فَلِمْ لَا نَسُودُ وَلِمْ لَا نَشِيدُ؟

فالرّشيد خاتم المسك في نشيدنا الوطني ..

فهل نفخر ونسود بالرّشيد صاحب أبي نواس ؟ أم بسيرة الرّشيد الحقيقة الصّحيحة ، التي رسم خيوطها الإمام مالك ، والفضل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وأبو يوسف قاضي القضاة ، والإمام الشافعي ، ومحمد بن الحسن الشّيباني ، واللّيث بن سعد ؟!!؟؟

هل نفخر لنسود ونشيد بالرّشيد صاحب الخمرىات الخيالية ؟ أم بالرّشيد الذي رعى العلم والعلماء كجابر بن حيان الكوفي وأمثاله ؟؟

هل نفخر بنشيدنا القوميّ الوطنيّ ، بصورة الرّشيد كاصورها صاحب الأغاني الذي يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا ، وبروايات تاريخ الإسلام البرجي زيدان ؟ أم بالرّشيد كا هو على حقيقته من حيث الإيمان والتّقوى ، والخير والرّفاه ، والصناعة والعلوم ؟؟

إِنَّا لَنْ نَسُودُ ، وَلَنْ نَشِيدُ مَا دَمْنَا لَا نَغَارُ عَلَى سِيرَةِ الرَّشِيدِ وَالْوَلِيدِ وَأَمْثَالِهِ ،
وما دمنا نسمح لبرجي زيدان أن يؤرخ لنا تراثنا .

إِنَّا لَنْ نَسُودُ ، وَلَنْ نَشِيدُ ، مَا دَمْنَا لَا نَقْدِسُ نَهْجَمُ وَفَكَرُهُمْ وَعَزِيزُهُمْ ..

حتى أصبحنا غرباء عنهم ، نكتفي بالانتساب إليهم فقط . وليس هذا فعل الأمم الحية ، لأنها تغار على أعلامها ، وتدرس حياتهم بدقة ، لتكون سيرهم أسوة للأجيال ، وقدوة للشباب .

فليرحم الله الرشيد ، لقد عاش حياة كلها إيمان وجihad وعلم وخشية من الله . دخل شقيق البلخي (الصوفي الشهير) ، شيخ خراسان ، على الرشيد ، فقال الرشيد : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال له : أما شقيق فنعم ، وأما الزاهد فيقال . فقال الرشيد : عظني ! فقال له : إن الله تعالى أنزلك منزلة الصديق ، وهو يطلب منك الفرق بين الحق والباطل كما تطلبه منه ، وأنزلك منزلة ذي النورين ، وهو يطلب منك الحياة والكرامة كما تطلبه منه ، وأنزلك منزلة علي بن أبي طالب وهو يطلب منك العلم كما تطلب منه ، ثم سكت ، فقال له الرشيد : زدني ! قال : نعم ! إن الله تعالى داراً سماها جهنم ، وجعلك بواباً لها ، وأعطيك بيت مال المسلمين ، وسيفاً قاطعاً ، وسوطاً موجعاً ، وأمرك أن ترد الخلق عن هذه الدار بهذه الثلاث ، فمن أتاك من أهل الحاجة فأعطيه من هذا البيت ، ومن تقدم على هني الله فأوجعه بهذا السوط ، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بهذا السيف بأمرولي المقتول ، فإليك إن لم تفعل ذلك فأنت السابق ، والخلق تابع لك إلى النار . قال الرشيد : زدني ! قال شقيق البلخي : نعم ! أنت العين ، والعمال الأنهر ، إن صفت العين لم يصر كدر الأنهر ، وإن كدرت العين لم يرج صفاء الأنهر .

لقد صفت العين ، فصفت الأنهر ، وصفت معها كل الجداول والسوق في كل أنحاء الدولة الإسلامية ، أيام الرشيد : (أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا) .

اللهم هذا جهدي بحق (الرشيد) ، وهو جهد المُقل .

اجتهدت أن أظهر فيه سيرة علم مسلم اعتز به ، وأحببت ب الدفاع من ديني أن

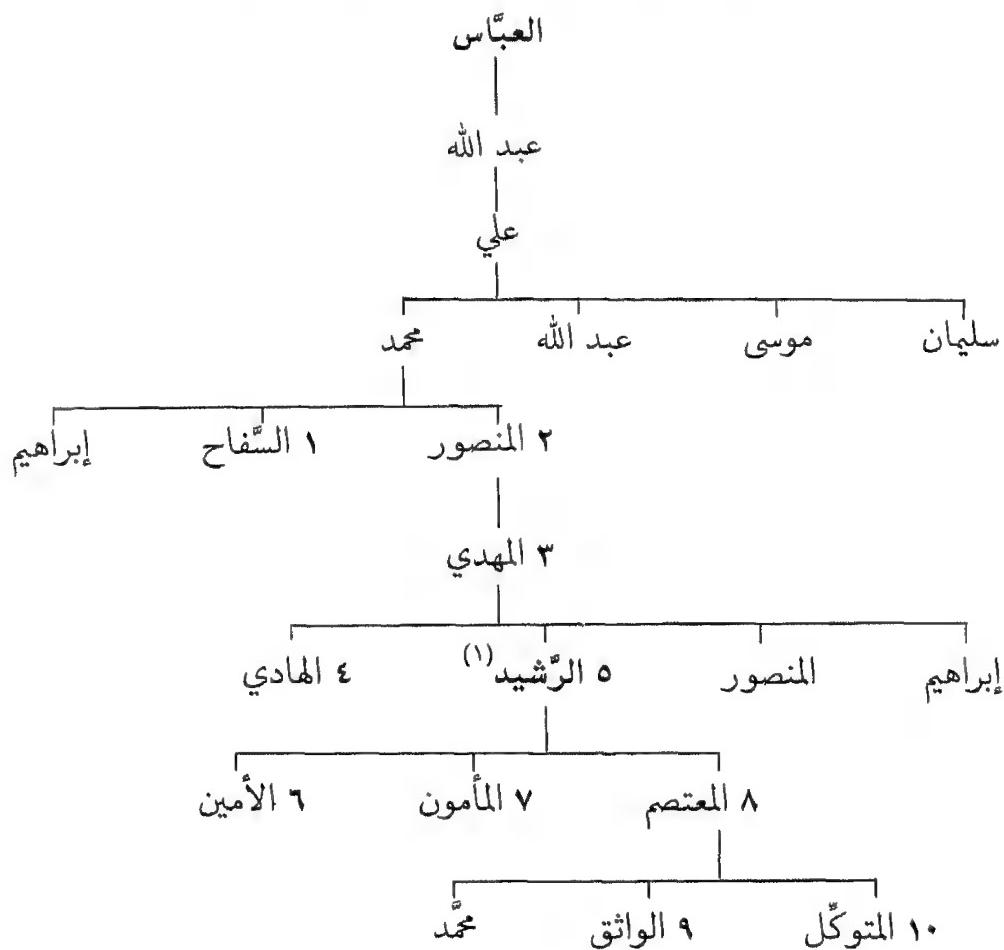
أُبَدِّدَ عَنْهَا كُلُّ افْتِرَاءٍ أَوْ دَسٌّ أَوْ تَشْوِيهٍ ، فَإِنْ كَتَبَ لَهُذِهِ الدِّرَاسَةِ أَنْ تَجِدَ سَبِيلَهَا
الْيَوْمَ لِجِيلَنَا - لَقَدْ وَجَدْتُ طَرِيقَهَا بِحَمْدِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، بَدْلِيلٍ تَكْرَارٍ طَبَعَاتُ هَذَا
الْكِتَابِ بِشَكْلِ مَامُوسٍ مَلْحُوظٍ - ، فَتَعْيَاهَا أَذْنُ وَاعِيَةٍ ، فَهَذَا مَا أَبْتَغَيْهُ ، وَهَذَا
مَا هَدَفْتُ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا فَلَا بدَّ أَنْ تَجِدَ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَلَوْ بَعْدَ
حِينٍ ، سَبِيلَهَا إِلَى الْعُقُولِ الْغَيُورَةِ عَلَى تِرَائِهَا ، وَالَّتِي تُعْشِقُ الْحَقِيقَةَ وَتَسْعَى إِلَيْهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوَّلًاً وَآخِرًا ..



خلفاء العصر العبّاسي الأول

« يبدأ بالسّفاح وينتهي بالخليفة العاشر المُتوكّل »



(١) من ١٧٠ إلى ١٩٣ هـ / ومن ٧٨٦ م إلى ٨٠٩ م .

الخُلُّفَاءُ الْعَبَّاسِيُّونَ

- | | | |
|----------------|--------|---|
| ١٢ ربيع الأول | ١٢٢ هـ | ١ - أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد |
| ١٣ ذي الحجة | ١٣٦ هـ | ٢ - أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد |
| ٦ ذي الحجة | ١٥٨ هـ | ٣ - أبو عبد الله محمد المهدي بن المنصور |
| ٢٢ الحرم | ١٦٩ هـ | ٤ - أبو محمد موسى الهادي بن المهدي |
| ١٦ ربيع الأول | ١٧٠ هـ | ٥ - أبو جعفر هارون الرشيد بن المهدي |
| ٣ جمادى الآخرة | ١٩٣ هـ | ٦ - أبو موسى محمد الأمين بن الرشيد |
| ٢٦ الحرم | ١٩٨ هـ | ٧ - أبو جعفر عبد الله المأمون بن الرشيد |
| ١٦ رجب | ٢١٨ هـ | ٨ - أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن الرشيد |
| ١٨ ربيع الأول | ٢٢٧ هـ | ٩ - أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم |
| ٢٣ ذي الحجة | ٢٢٢ هـ | ١٠ - أبو الفضل جعفر التوكل على الله بن المعتصم |
| ٤ شوال | ٢٤٧ هـ | ١١ - أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن التوكل |
| ٣ ربيع الثاني | ٢٤٨ هـ | ١٢ - أبو العباس أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم |
| ٤ الحرم | ٢٥٢ هـ | ١٣ - أبو عبد الله محمد المعز بالله بن التوكل |
| ٢٧ رجب | ٢٥٥ هـ | ١٤ - أبو إسحاق محمد المهدي بالله بن الواثق |
| ١٨ رجب | ٢٥٦ هـ | ١٥ - أبو العباس أحمد المعتمد على الله بن التوكل |
| ٢٠ رجب | ٢٧٩ هـ | ١٦ - أبو العباس أحمد المعتصد بالله بن الموفق بن التوكل |
| ٢٢ ربيع الثاني | ٢٨٩ هـ | ١٧ - أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتصم |
| ١٢ ذي القعدة | ٢٩٥ هـ | ١٨ - أبو الفضل جعفر المقترن بالله بن المعتصم ^(١) |
| ٢٧ شوال | ٣٢٠ هـ | ١٩ - أبو منصور محمد القاهر بالله بن المعتصم |
| ٦ جمادى الأولى | ٣٢٢ هـ | ٢٠ - أبو العباس أحمد الراضي بالله بن المقترن |

(١) ولـي بعده أبو العباس عبد الله المرتضى بن المعـز لـيـوم واحد فقط ، تم ولـي أبو منصور محمد القاهر لـيـوم فقط ، تم حـكم القـاهر بالـله .

- ٢٠ ربيع الأول ٢٢٩ هـ
- ٢٠ صفر ٢٢٣ هـ
- ١٢ جمادى الآخرة ٣٣٤ هـ
- ١٣ ذي القعدة ٣٦٣ هـ
- ١٩ رجب ٣٨١ هـ
- ١١ ذي الحجة ٤٢٢ هـ
- ١٣ شعبان ٤٦٧ هـ
- ١٥ الحرم ٤٨٧ هـ
- ١٦ ربيع الثاني ٥١٢ هـ
- ١٧ ذي القعدة ٥٢٩ هـ
- ١٨ ذي القعدة ٥٣٠ هـ
- ٢ ربيع الأول ٥٥٥ هـ
- ٩ ربيع الثاني ٥٦٦ هـ
- ٢ ذي القعدة ٥٧٥ هـ
- ٣٠ رمضان ٦٢٢ هـ
- ١٤ رجب ٦٢٣ هـ
- ١٠ جمادى الآخرة ٦٤٠ هـ
- ١٤ صفر ٦٥٦ هـ^(١)
- ٢١ أبو إسحاق إبراهيم المتقى لله بن المقذر
- ٢٢ أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي
- ٢٢ أبو القاسم الفصل المطيع لله بن المقذر
- ٢٤ أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطیع
- ٢٥ أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقذر
- ٢٦ أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر
- ٢٧ أبو القاسم عبد الله مُعَدّة الدين المقدي بأمر الله بن محمد القائم
- ٢٨ أبو العباس أحمد المستظہر بالله بن المقدي
- ٢٩ أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظہر
- ٣٠ أبو جعفر المنصور الراشد بن المسترشد
- ٣١ أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله بن المستظہر
- ٣٢ أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفی
- ٣٣ أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد
- ٣٤ أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء
- ٣٥ أبو النصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر
- ٣٦ أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر
- ٣٧ أبو محمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر وقتلها هو لا يرى في ١٠٧٥ مـ .

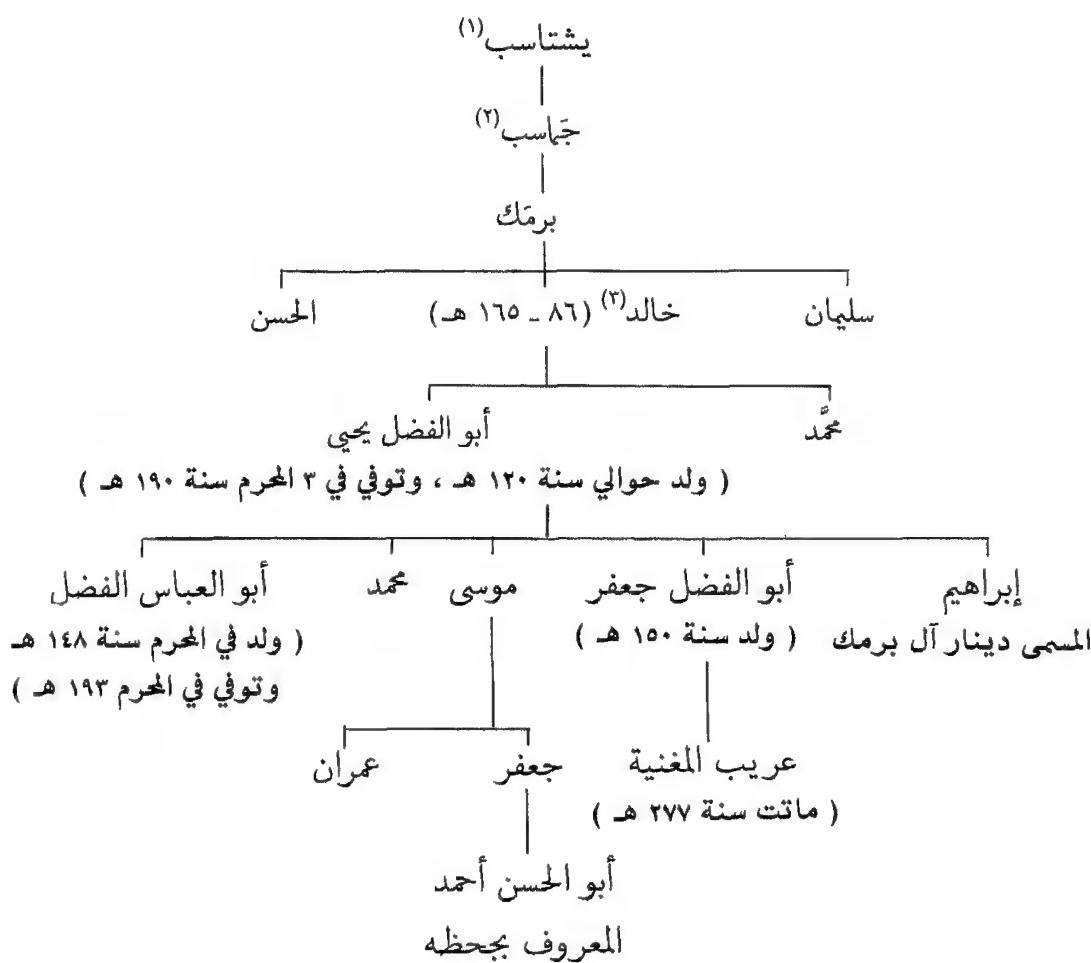
إن عصر القوة ، وقمة الحضارة العربية الإسلامية تثلت في الخلفاء العشرة
 الأول بدءاً بالسفاح وانتهاء بالمتوكل ، ويمثل الرشيد واسطة العقد بينهم .
 ثم بدأ عصر النفوذ التُركي من بعد المتوكل وحتى المقدي عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ مـ . وتبعه عصر النفوذ البوهيمي حتى سقوط بغداد بيد هولاكو .



(١) معجم الأنساب والأنساب الحاكمة في التاريخ الإسلامي : ٣ و ٤ ، عن الطبرى ، والكامن في التاريخ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى (طبع القاهرة سنة ١٢٠٥ هـ) .

البرامكة

[انظر ص : ١٣ (من معجم الأنساب والأنسارات الحاكمة في التاريخ الإسلامي)]



(١) أجداد وهيون .

(٢) كان رئيساً لديوان الخراج منذ سنة ١٢٢ هـ وزيراً من سنة ١٣٣ إلى ١٣٨ هـ ، وحاكم لطبرستان والموصل من سنة ١٤٨ إلى ١٥١ هـ ، ويذكر ابن خلدون ٢٢٢/٣ : « إنَّ خالد بن برمك كان من كبار الشيعة » .

مصادِرُ الْكِتَابِ وَمَرَاجِعُهُ

- ١ - أبو نواس الحسن بن هانئ ، عباس محمود العقاد ، كتاب الملال العدد ١١٥ ، عام ١٢٨٠ م / ١٩٦٠ هـ .
- ٢ - الأخبار الطّوّال ، لأبي حنيفة الدينوري (تراثنا) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ومراجعة د . جمال الدين الشيال (انتشارات آفتاب تهران) .
- ٣ - أخبار القضاة ، لحمد بن خلف بن حيان (وكيع) ، عالم الكتب ، بيروت .
- ٤ - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء ، لياقوت الحموي ط ٢ ، ١٩٢٨ م .
- ٥ - إعلام النّاس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ، محمد المعروف بدبياب الإتليدي ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر .
- ٦ - إعلام النّساء في عالمي العرب والإسلام ، عمر رضا كحالة ، المطبعة الماشمية بدمشق .
- ٧ - أمالی المرتضى (غر الفوائد ودرر القلائد) ، للشّریف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ١ ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- ٨ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، لإسماعيل بن محمد أمين بن ميرسلیم البابانی أصلًا وبالبغدادي مولداً ومسكناً ، طبعة ١٣٦٤ م / ١٩٤٥ هـ .
- ٩ - البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير (الطبعة الثانية ١٩٧٤ م) ، مكتبة دار المعارف ، بيروت .
- ١٠ - بغداد في تاريخ الخلافة الإسلامية ، أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب المعروف بابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، ط ١٩٦٨ م .
- ١١ - تاريخ ابن خلدون ، طبعة دار البيان المصوّرة في سبعة أجزاء مع المقدمة .
- ١٢ - تاريخ ابن الوردي ، زین الدین عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي ، المطبعة الحیدریّة النجف ، عام ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

- ١٣ - تاريخ الإسلام ، د. حسن إبراهيم حسن ، الطبعة السادسة ١٩٦٢ م ، مكتبة النهضة المصرية .
- ١٤ - تاريخ الأمم الإسلامية ، الشّيخ محمد الخضري ، الطبعة الثّامنة ١٢٨٢ هـ ، طـ المكتبة التجارـية الكـبـرى .
- ١٥ - تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، هـ.اـلـ.ـفـيـشـرـ ، دـارـالـعـارـفـ بـصـرـ (ـطـبـعـةـ الثـالـثـةـ) .
- ١٦ - تاريخ بغداد أو (ـمـدـيـنـةـ السـلـامـ) ، للـحـافـظـ أـبـيـ بـكـرـ بنـ أـحـمـدـ بنـ عـلـيـ الـخـطـيـبـ الـبغـدـادـيـ ، دـارـ الـكـتـابـ الـعـرـيـ لـلـنـشـرـ وـالـتـوزـيـعـ ، بـيـرـوـتـ .
- ١٧ - تاريخ الخلفاء ، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق محمد حـيـيـ الدـيـنـ عـبـدـ الـحـيـدـ ، طـ ٤ـ سـنـةـ ١٢٨٩ـ هـ / ١٩٦٩ـ مـ .
- ١٨ - تاريخ الطّبّري (ـتـارـيـخـ الرـسـلـ وـالـمـلـوـكـ) ، ابن جرير الطّبّري . (ـذـخـائـرـ الـعـربـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طـ دـارـ الـعـارـفـ بـصـرـ ١٩٦٦ـ مـ .
- ١٩ - تاريخ [ـالـطـبـقـاتـ الـكـبـرىـ لـابـنـ سـعـدـ] ، طـبـعـةـ دـارـ صـادـرـ ، بـيـرـوـتـ .
- ٢٠ - تاريخ العالم ، سـيرـجـونـ اـهـامـرـتنـ ، مـكـتـبـةـ النـهـضـةـ الـمـصـرـيـةـ ، دونـ تـارـيـخـ .
- ٢١ - تاريخ مختصر الدّول ، لـابـنـ العـبـرـيـ (ـغـرـيـغـورـيـوسـ الـلـطـيـ) ، دونـ تـارـيـخـ أوـ دـارـ نـشـرـ .
- ٢٢ - تاريخ الموصل ، أبو زـكـرـيـاـ يـزـيدـ بنـ مـحـمـدـ بنـ إـيـاسـ بنـ الـقـاسـمـ الـأـزـديـ ، تحقيق دـ.ـعـلـيـ حـبـيـبـةـ ، الجـلـسـ الـأـعـلـىـ لـلـشـؤـونـ إـلـسـلـامـيـةـ القـاهـرـةـ ١٣٧٨ـ هـ / ١٩٦٧ـ مـ .
- ٢٣ - تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح العباسي المعروف باليعقوبي ، بـيـرـوـتـ ١٣٧٩ـ هـ / ١٩٦٠ـ مـ .
- ٢٤ - التـمـثـيلـ وـالـحـاضـرـةـ ، لأـبـيـ منـصـورـ عـبـدـ الـلـكـ وـإـسـمـاعـيلـ الـثـعـالـيـ ، دـارـ إـحـيـاءـ الـكـتـبـ الـعـرـبـيـةـ (ـعـيـسـىـ الـبـايـيـ الـحـلـيـ) ، تحقيق عبد الفتاح محمد الخلو ، طـ ١٢٨١ـ هـ / ١٩٦١ـ مـ .
- ٢٥ - حـسـنـ التـقـاضـيـ فـيـ سـيـرـةـ الإـمـامـ أـبـيـ يـوـسـفـ الـقـاضـيـ ، لـإـمـامـ الـكـوـثـريـ ، طـبـعـهاـ وـنـشـرـهاـ رـاتـبـ حـاكـمـيـ ١٢٨٨ـ هـ / ١٩٦٨ـ مـ .
- ٢٦ - حـسـنـ الـحـاضـرـةـ فـيـ تـارـيـخـ مـصـرـ وـالـقـاهـرـةـ ، للـحـافـظـ جـلـالـ الـدـيـنـ عـبـدـ الـرـحـمـنـ الـسـيـوـطـيـ ، طـ ١٢٨٧ـ هـ / ١٩٦٧ـ مـ ، دـارـ إـحـيـاءـ الـكـتـبـ الـعـرـبـيـةـ ، عـيـسـىـ الـبـايـيـ الـحـلـيـ وـشـرـكـاهـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

- ٢٧ - الحياة السياسية للإمام الرضا ، جعفر مرتضى العاملي ، قُم ، ط ٢ ، سنة ١٤٠٣ هـ .
- ٢٨ - دائرة المعارف ، بطرس البستاني ، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان تهران ناصر خسرو ،
المجلد ٤ ، ص : ٢٦١ و ٢٦٣ .
- ٢٩ - دائرة المعارف الإسلامية ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .
- ٣٠ - دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدي ، ط ١٩٧١/٣ م ، دار المعرفة
للطباعة والنشر ، بيروت .
- ٣١ - رحلة ابن جبير ، دار التراث ، بيروت ، ط عام ١٢٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ٣٢ - رسالة الإمام مالك إلى أمير المؤمنين هارون الرّشيد ، [ولقد أوردناها كاملة ، محققة
منقحة] .
- ٣٣ - رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، أبو علي الحسين بن محمد المعروف
بابن الفراء ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ٢ ،
عام ١٩٧٢ م .
- ٣٤ - زهر الأدب وثر الألباب ، للقيرواني ، حقيقه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار
الجبل ، بيروت ط ٤ ، ١٩٧٢ م .
- ٣٥ - السّفارات الإسلامية إلى أوربة في العصور الوسطى ، د . إبراهيم أحمد العدوی ،
سلسلة أقرأ ١٧٩ ، دار المعرفة بمصر .
- ٣٦ - سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ، ط ١ سنة ١٩٨٢ م ،
مؤسسة الرّسالة .
- ٣٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنسا ، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، نسخة مصورة
عن الطّبعة الأميرية (تراثنا) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية
العامة .
- ٣٨ - ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، ط ٧ ، مكتبة النهضة المصرية .
- ٣٩ - العقد الفريد ، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، ط ٣ ، سنة ١٩٦٥ م .
- ٤٠ - عيون الأخبار ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوري ، وزارة الثقافة
والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ،
عام ١٢٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

- ٤١ - فتوح البلدان ، للإمام أبي الحسن البلاذري ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى عام ١٩٥٩ م .
- ٤٢ - الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، محمد بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، دار صادر بيروت ، عام ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٤٣ - القاموس الإسلامي ، أحمد عطيه الله ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ م .
- ٤٤ - قصة الحضارة ، ول ديورانت ، الإدارية الثقافية ، جامعة الدول العربية ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٨ ط ٣ ، سنة ١٩٦٨ م .
- ٤٥ - الكامل في التاريخ ، لابن الأثير الجزري ، إدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ .
- ٤٦ - الكامل في اللغة والأدب ، لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمرد النحوي ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- ٤٧ - كتاب التّاريخ الكبير ، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٤٨ - كتاب الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن جريرا المحافظ ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٣ سنة ١٩٦٩ م .
- ٤٩ - كتاب الخراج ، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، صاحب الإمام أبي حنيفة ، اقترح عليه إنشاءه وتصنيفه لكبير ملوك الأرض في عصره هارون الرشيد أمير المؤمنين ، عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة ٤ ، عام ١٣٩٢ هـ .
- ٥٠ - كتاب الولادة وكتاب القضاة ، لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري ، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست - طبع بطبعية الآباء اليسوعيين بيروت ، سنة ١٩٠٨ م .
- ٥١ - لسان الميزان ، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، ط ٢ ، عام ١٩٧١ م / ١٣٩٠ هـ ، طبع حيدرآباد - الهند .
- ٥٢ - لمحات من تاريخ العالم ، جواهر لال نهرو ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، ط ٢ ، آب (أغسطس) ١٩٥٧ م .
- ٥٣ - مآثر الإنابة في معالم الخلافة ، القلقشندي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ سنة ١٩٦٤ م .

- ٥٤ - مختار الأغاني ، ج ٤ ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، نشر المكتب الإسلامي .
- ٥٥ - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٥ سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م .
- ٥٦ - معجم الأنساب والأسرارات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، للمستشرق زامباور ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، عام ١٩٥١ م .
- ٥٧ - معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت - لبنان .
- ٥٨ - معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية ، تأليف عمر رضا كحالة ، مطبعة التّرقي بدمشق ، عام ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .
- ٥٩ - الملل والنحل ، الشهريستاني ، البابي الحبي ، مصر ، ط سنة ١٩٦١ م .
- ٦٠ - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، محمد عبد الله عنان ، ط ٤ .
- ٦١ - الموسوعة العربية الميسرة ، بإشراف محمد شفيق غربال ، دار الشعب ، ط ١٩٦٥ م .
- ٦٢ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق علي محمد الجاوي ، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- ٦٣ - النجوم الزاهرة ، بجمال الدين أبي الحasan يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، ط ١ ، دار الكتب المصرية ، عام ١٣٤٠ هـ / ١٩٣٠ م .
- ٦٤ - هارون الرشيد ، أحمد أمين ، كتاب الهلال العدد ٣ ، أغسطس (آب) ١٩٥٢ م / ذي القعدة ١٣٧٠ هـ .
- ٦٥ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان ، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خِلْكان ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .
- ٦٦ - يتيمة الدهر في محسن أهل العصر ، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الشعالي النيسابوري ، حققه وضبطه ونشره محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ، مطبعة السعادة ، القاهرة .

المحتوى

٥	تصدير الطبعة الجديدة
٩	تصدير (الطبعة الأولى)
١٥	حياة الرشيد
٢٤	اخizeran أم الرشيد
٢٧	زبيدة بنت جعفر بن المنصور (زوج الرشيد)
٣٩	بيت الرشيد
٤١	- ولادة العهد
٤٤	وفاة الرشيد
٥٢	شقافة الرشيد
٧٢	إيمان الرشيد
٨٧	مجالس الرشيد
١٠١	عطاء الرشيد
١٠٦	المجتمع في عصر الرشيد
١١٨	ولادة الرشيد وقضاته
١٣٠	جهاد الرشيد
١٣٧	رجال حول الرشيد
١٣٧	- أبو يوسف القاضي
١٥٤	محمد بن الحسن الشيباني
١٥٥	- عبد الله بن المبارك

- الفضيل بن عياض ١٥٦
- الإمام مالك بن أنس ١٦٢
- الإمام الشافعى ١٩٤
- من شوّه سيرة الرّشيد ٢٠٠
- ألف ليلة وليلة ٢٠١
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهانى ٢٠٤
- أحمد أمين في كتابه هارون الرشيد ٢١١
- كتاب : إعلام النّاس ٢١٩
- جرجي زيدان ٢٢٢
- الطّالبيون ٢٢٣
- الروايات الكنسية الأوروبية ٢٢٨
- نكبة البرامكة وهلاكهم ٢٣١
- هل ندم الرّشيد على نكبتهم ؟ ٢٤٧
- خاتمة : لماذا شوّهوا سيرة الرّشيد ؟ ٢٥٤
- خلفاء العصر العباسي الأول ٢٦٢
- الخلفاء العباسيون ٢٦٣
- البرامكة ٢٦٥
- مصادر الكتاب ومراجعةه ٢٦٦
- المحتوى ٢٧١

هذا الكتاب

سيرة الرشيد الحقيقة هي كما صورها الأصنفهانى في كتابه «الأغانى»
يا فيها من توسيعات؟ أم هي سيرة خليفة مسلم ملهم، بلغ بملك المسلمين
كلم يبلغه أحد قبله ولا بعدة منها ينبع الشيطان وسع الأفاق وتأميم
الحدود والغبور..؟!

وهل حقاً بفداد الرشيد هي بفداد «الفيلية وليلة» بما في هذه الليالي من
ملذات وخمور وذكاء وفجور؟ أم هي سيرة من كان يصلي الفراش
والنافلة ويحج عاماً وينذر عاماً، وينج إلى الديار المقدسة مأشياً وينادى
على المباح، ويُقطع ندماءه لصلاح البحر قبل الصبح؟!

من رسم شخصية الرشيد، الواعي والمغون.. أم أبو يوسف القاضي..
وعبد الله بن المبارك.. والفضيل بن عبياض.. والإمام مالك بن أنس؟..
هذا الكتاب.. يدرس في قسمه الأول سيرة الرشيد كل حفظتها أنا كتب
الذيخ العربي للإسلامية المعتمدة، وفي قسمه الثاني أسباب توثيق سيرة
الرشيد «أمير الخلفاء وسيد ملوك الدنيا».. كل ذلك تبعاً للحقيقة
لادفاعاً عن مدان حماوله ببرئته.

الكتاب



To: www.al-mostafa.com